

أعلام ومعالم

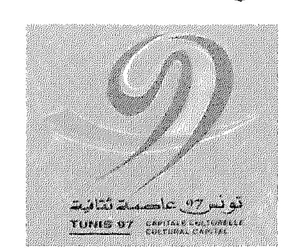




وكالة احياء التراث و التنمية الثقافية

المعهد الوطني للتراث

وزارة الثقافة

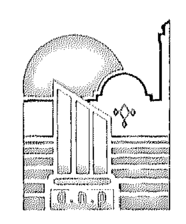




أعلام ومعالم

مؤلف جماعي

الإشراف العلمي
عبد العزيز الدولاتلي





الوكالة القومية للتراث

المعهد الوطني للتراث

مارس 1997

تصميم الكتاب
سراس بروموسيون

متابعة فنيّة
عبد الرزاق الخشين

فرز الألوان
غرافي سنتر

التنسيق مع المؤلّفين ومراجعة النصوص
عبد الحكيم القفصي سلامة

تم الانتهاء من طبع الكتاب
بورشات المطابع الموحدة 1997

ISBN 9973 - 917 - 28 - 6

الصور الفوتوغرافية

أنجز صور الكتاب **عبد العزيز الفريخة** ما عدى الصفحات :

20 - 34 - 64 : **جاك بيريز**

32 - 121 - 125 - 154 : **رضا الزيلي**

78 - 79 (شمال) - 80 - 82 (أعلى) 87 (أسفل) : **محمد الكافي**

75 - 76 - 90 : **فتحي البجاوي**

122 - 129 - 131 - 133 - 134 - 147 : **عبد الحكيم القفصي سلامة**

19 - 22 : **محمد بن كيلاني**

41 : **الزواري**

51 - 52 - 53 - 54 : **عبد الحميد البركاوي**

140 : **الطاهر المنصوري**

88 - 182 - 183 : **عبد الرزاق الخشين**

الفهرس

إبداعـات

المعـالم والمواقع

تقديم

إنّ المعلومات القيّمة والثريّة التي يتضمّنها هذا الكتاب حول تراثنا الوطني العريق لخير دليل عمّا تزخر به تونس من أعلام ومعالم ومدى مساهماتها في إثراء الحضارة الانسانية ولقد كانت بلادنا، وهي المطلة بواجهتيها على ضفتي البحر الأبيض المتوسط، مركزا جذّابا ومحطة أساسية للشعوب المتوسطية ونقطة إشعاع منذ آلاف السنين.

فلم تقتصر تونس على استيعاب ما جاءت به الحضارات المتوسطية من قيم وصيغ فنيّة وتقنيّة، بل أثرت بدورها الموروث الحضاري المتوسطي مجدّدة إياه أحيانا حسبما تمليه أذواق أهلها وأهواؤهم وحاجياتهم. وسيجد القارئ حتما فائدة كبرى بل متعة عند إكتشافه لهذا الرصيد الثقافي الهائل الذي ساهمت في إنشائه بلادنا أيّما إسهام. ولعل أهمّ ما يمتاز به هذا المصنّف الجماعي هو احتضانه بأسلوب شيّق ومبسّط لجملة من المعارف التي لا تطولها عادة إلاّ أيادي أهل الاختصاص من علماء وباحثين نظرا لتناثرها في المؤلفات العلميّة والمجلاّت المختصة.

كما باستطاعة القارىء أن يلتمس من خلال هذا الكتاب مدى تأثير الرصيد الحضاري في بناء صرح الشخصية التونسية على مدى الأزمنة وفي إطار الدول والأنظمة التي تعاقبت بلا انقطاع في هذه الربوع من العهد النوميدي والبوني إلى العهد الروماني ثمّ الوندالي والبيزنطي والعربي الاسلامي. وإن كان فضل هذه الشعوب على تونس كبيرا لما قدمته من روائع ابتكاراتها، فإنّ فضل تونس عليها لا يقلّ أهميّة، إذ بلغ إشعاعها الحضاري إلى أقاصي المشرق والمغرب حتى أنّ القارّة الافريقية ذاتها قد حملت الاسم الذي عرفت به تونس في العهود القديمة (افريقية). ولم تكتف هذه الربوع بالتأثير على ثقافات الشعوب المجاورة أو التي كانت تربط بينها أواصر العرق والدين واللغة بل وصل تأثيرها إلى ثقافات الشعوب البعيدة جغرافيا وحتّى تلك التي ناصبتها أحيانا العداء كاليونان والرومان التي لم تتردّد للنهل من منابع معارفها. ولا عجب في ذلك ما دام هذا البلد قد أنجب شخصيات فذّة ذات مستوى عالمي مثل حنبعل وماغون وأغسطنيانوس وسحنون وابن الجزار وابن خلدون، وشيّد المدن والمعالم التي بقيت آثارها إلى اليوم شاهدة على مدى الرقي الذي بلغه أهلها. مما جعل منظمة اليونسكو ترتب البعض منها ضمن قائمة التراث العالمي كمدن قرطاج وكركوان وتونس والقيروان وسوسة والمسرح الأثري بالجم.

ففي ظل حضارة قرطاج تحوّلت «إفريقيّة» إلى دولة قويّة ذات ثقافة ومعتقدات وعادات متميّزة حتّى أنّها انتصبت في وضع المنافس الشديد والخطير لجارتها الشماليّة روما المسيطرة آنذاك على جزء كبير من الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط؛ لكن قيام تلك المنافسة الشديدة إلى حدّ الصراع العنيف من أجل الهيمنة على ثروات ضفاف المتوسط لم تمنع القوتين من التبادل التجاري

والحضاري السليم. وبقدر ما نهلت قرطاج من الرصيد الحضاري الروماني استفادت روما من التراث البوني القرطاجي، مترجمة التآليف الهامّة ككتاب ماغون عالم الزراعة ومقتبسة عن القرطاجيين صناعة السفن وطرق الملاحة البعيدة المدى، كما استلهمت منهم فنون الحرب التي أبدى فيها كما هو معلوم القائد حنبعل تفوقا كبيرا.

وإن كانت مساهمات «افريقية» في إثراء الحضارة الرومانية ثم المسيحيّة تكاد لا تحصى فإنّ المرء قد يعجز أحيانا عن حصر المعالم والمواقع والقطع الفنيّة الراجعة إلى هذين العهدين، مما يعبّر بكل جلاء عن الأواصر الوثيقة التي كانت تربط هذا البلد بالحضارتين العريقتين إلى أن بسط العرب نفوذهم على هذه الربوع ناشرين فيها تعاليم الدين الاسلامي الحنيف وقيمه السمحة ورافعين افريقية إلى مرتبة الحصن والثغر المتقدّم والمركز القوي من مراكز الاسلام العلميّة والحضارية.

وقد تدعم الحضور الاسلامي بقدوم أقوام الأندلس المهاجرين، بعد أن أجلوا عنوة من ديارهم حاملين معهم تراثا فكريّا وفنيّا رفيعا وعادات وتقاليد متميّزة فأثروا أيّما تأثير في المجتمع التونسي منذ أواخر القرون الوسطى. وقد تزامنت هجرتهم الأخيرة مع قدوم العثمانيين الذين رفعوا بدورهم مشعل الحضارة الاسلاميّة بعد أفول نجمها، فكانت تونس حقّا ملتقى الشعوب والحضارات وأرضا للحوار والتسامح. وستبقى بحول الله كذلك بفضل ما يتّسم به شعبها من جنوح طبيعي للتسامح والتضامن والتفتح على الآخر وبفضل قيادتها الرشيدة وعلى رأسها صانع التغيير المبارك الرئيس زين العابدين بن علي الذي دعّم مبادىء ثقافة التقارب والتفاهم بين الشعوب، خدمة للسلم ورفعا لشأن الانسان أينما كان.

وإنّ اختيار تونس من قبل المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) لتكون كامل هذه السنة (1997) عاصمة ثقافية، لهو إعتراف صريح بما تتمتع به قيادتها وعلماؤها ومبدعوها ومثقفوها من احترام وتقدير لدى الأوساط الفكرية والفنية العالمية بما حققته من أبحاث علميّة وإبداعات فنيّة وأدبيّة رفيعة.

هذا وستؤكد الاحتفالات بهذه المناسبة جدارة تونس بهذا الامتياز باعتبارها أرض الحضارة والتجذّر وعاصمة ثقافية من المستوى الرفيع.

عبد الباقي الهرماسي
وزير الثقافة

إسهام تونس في الحضارة العالمية

عبد العزيز الدولاتلي

تقع تونس في الجزء الشرقي من المغرب العربي، في ملتقى حوضي البحر الأبيض المتوسط متفتحة عليه بأكملها (إذ يبلغ طول سواحلها 1200 كلم) فهي تتأثر بمناخه، ويساعدها البحر في مبادلاتها مع الشعوب الأخرى. كما أنّها تخضع في جزئها الجنوبي إلى تأثير الصحراء الكبرى، لكنّها أقلّ تصحّرا من جاراتها القريبة.

أمّا الأعمال الفلاحيّة فيها فهي كثيرة التنوّع، تتأقلم مع طبيعة الأراضي المتفاوتة الخصوبة ومع كميات الأمطار المتفاوتة الغزارة. ولئن كانت زراعة الحبوب هي السائدة، قبل العهد الروماني، في سهول ماطر وباجة الغنية، فقد اختصّ الساحل تقريبا بزراعة الزيتون، والجريد بإنتاج التمور.

ومنذ فجر التاريخ كان الإنسان في تونس يجابه الطبيعة المتقلّبة فاحتال لتكييف ظروف عيشه مع هذه البيئة. ولا شكّ أن ذلك الصراع اليوميّ هو الذي فجّر في ذهنه مفهوم الربوبيّة، تلك القوة التي تفوق قوّته والتي كان لابدّ له من التضرّع إليها دائما. ويمثّل معبد هرمايون (Hermaïon) البدائي، المتخذ من حصباء وحجارة مستديرة وعظام مكدّسة والذي اكتشف في جهة قفصة (القطار)، أولى المظاهر الدينية للبشرية إبّان مولدها. ولقد نشأت حضارة تنعت بالقفصيّة في العهد اللاّحق للحجري القديم (Epipaléolithique) بتلك الجهة وازدهرت وبلغ إشعاعها مناطق نائية من جنوب الصحراء وغربيّ الجزائر.

ويبدو أنّ هذا الشعب القفصي الذي اختلط بشعوب إفريقيّة أخرى أو قادمة من مصر، هو الذي سمّاه اللاتينيون بربروس (Barbarus). وكان البربر، وخاصّة المقيمين منهم، يسكنون

كهوفا يضرب بها المثل في تكيّف الإنسان تكيّفا ذكيّا مع الطبيعة (مطماطة، تطاوين، الدويرات...) ولعلّها جديرة بأن تدرج في قائمة التراث العالمي.



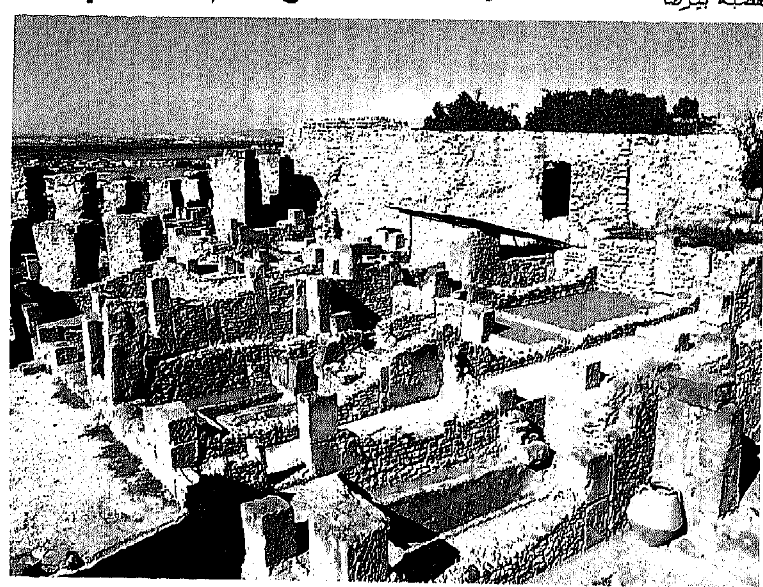
شاب يحصد القمح (فسيفساء - متحف باردو)

أمّا البربر الذين كانوا متّصلين بالبحر بحكم عيشهم في المناطق الساحليّة، فقد قبلوا التفاوض في القرن العاشر قبل المسيح مع الشعوب المتقدّمة التي جاءت من فينيقيا (أي الشواطىء اللبنانية) بشأن المستوطنات التي كانت تريد إقامتها على السواحل الإفريقية. ويبدو أنّ أولى هذه المستوطنات أقيمت بأوتيكا (Utique) (1100 ق. م.).

وبعد ذلك بأحقاب، في القرن الثامن ق. م.، تذكر الأسطورة أنّ عليّسة أو الملكة ديدون- أسّست قرطاج أو قرط حدشت، أي المدينة الجديدة. ولا تفتأ تذكّرنا شخصيّة عليّسة الخرافية والتاريخية بامرأة أخرى طريفة هي الكاهنة البربريّة التي كانت رمزا، في القرن الثامن بعد المسيح، للمقاومة البربريّة والتي اتّخذتها الذاكرة الجماعيّة، مثل عليّسة، رمزا لتضحية القادة في سبيل بقاء شعوبهم.

وكان القرطاجيون يحكمهم في أوّل أمرهم ملك منتخب من قبل الأعيان والكهنة، ثمّ سرعان ما تطوّر نظامهم فأصبح يعتبر نظاما «جمهوريا» ، إذ كانت الطبقة المحظوظة، طبقة رجال الدين وأسر الأعيان وهي التي كان لها وحدها الحقّ في أن تكون ممثلة بمجلس الشيوخ، حيث كانت تتخذ أخطر القرارات السياسية. ورغم ذلك، لم يتوان أرسطو في التنويه بالدّستور «الديمقراطي» القرطاجني الذي اعتبره أرقى من دستور أثينا.

ولقد قدّمت قرطاج، رغم تفوّقها في شؤون البحر، مساعدات جمّة للفلاحة وتربية الماشية فطوّرتها داخل البلاد. وما الفصل في علم الزراعة الذي ألّفه ماجون (Magon) -وهو أوّل مصنّف من نوعه- إلاّ دليل على ما بلغه هذا العلم من إتقان.



قرطاج
هضبة بيرصا

ولا شكّ أن الرحلة التي قام بها حنّون (Hannon) في القرن الخامس ق.م. لبلوغ قلب إفريقيا بمحاذاة السواحل الأطلسيّة في اتجاه الجنوب، كانت تعكس انشغال القرطاجنيين الدائم باستكشاف آفاق جديدة وفتح مسالك أخرى لتجارتهم العالميّة. ولكن، مع الأسف، لم ينج من التوسّع الروماني إلاّ عدد قليل من المدن البونية، مثل كركوان (القرن الخامس ق.م.)

التي كان اكتشافها بمثابة المعجزة، لأنّ هذه المدينة البونية البحرية حافظت تقريبا على كامل نسيجها العمراني ومعالمها وعدّة أشياء أثرية فيها أخرجت من باطن الأرض بفضل الحفريات التي دامت ربع قرن تقريبا ومازالت متواصلة إلى يومنا الحاضر.

ولقد دافع حنّبعل عن سيادة امبراطوريته الإقتصاديّة ضدّ الأطماع الرومانية فامتاز بكونه خبيرا ذا مستوى عالي بالخطط الحربية، إلى حدّ أن المعارك التي كسبها بطرازيمان (Trasimène) وكان (Cannes) وغيرهما مازالت تدرّس في كبرى الجامع العسكرية، ناهيك أنّ عبوره لجبال الآلب على ظهور الفيلة لبلوغ رومة عن طريق البر بلغ من الجسارة حدّا ظلّ إلى الأسطورة أقرب.



كركوان
منظر عام للموقع

وبفضل قرطاج انتشرت كتابة الحروف في غربيّ البحر الأبيض المتوسّط وما أسطورة كادموس (Cadmos) إلاّ صدى من أصداء ذلك الإنتشار، إذ تروي أنّ كادموس هذا مشرقيّ كان يبحث عن أخته أروبّا فاجتاز حوض البحر الأبيض المتوسط وأنّه عند توقّفه باليونان علّم أهلها كتابة الحروف.

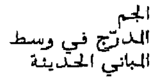
ولقد أدّى سقوط قرطاج (146ق. م.) إلى أن أصبحت تونس مستعمرة ملحقة مباشرة برومة التي استفادت من نعم الحضارة البونية ومزاياها العظمى. وبرز إذ ذاك عدد من الأفارقة

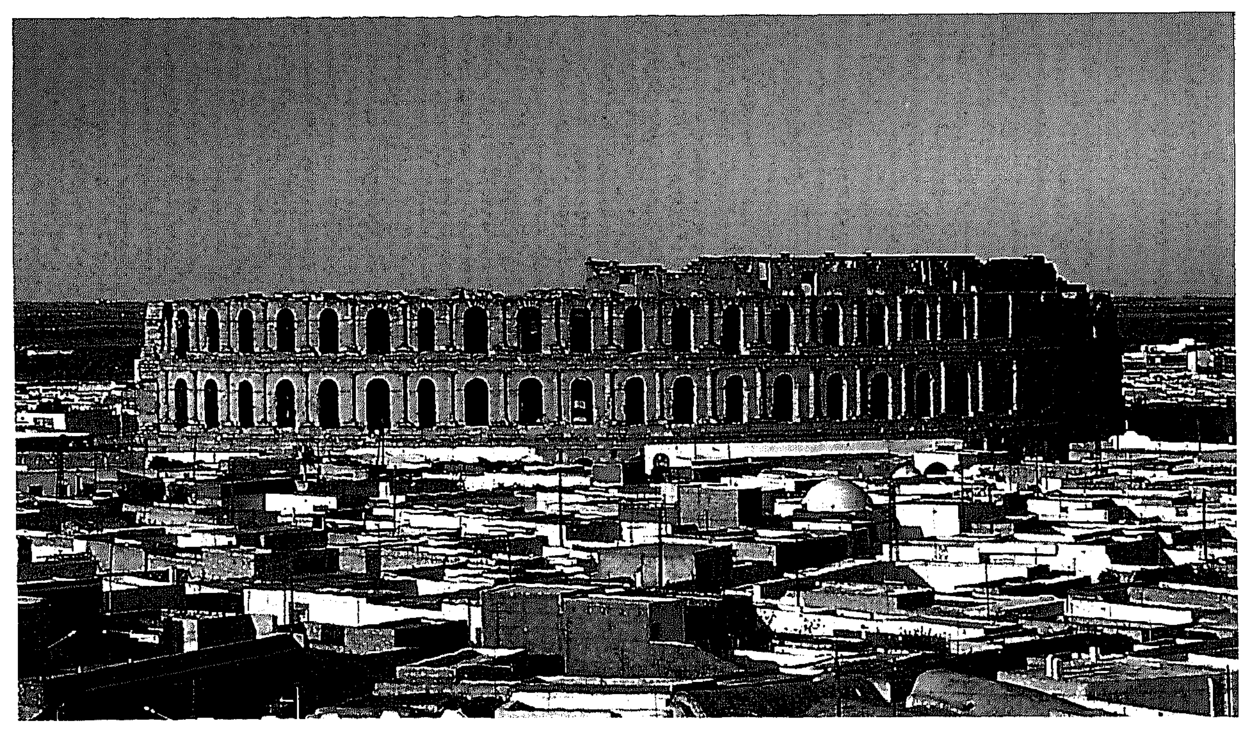
في الآداب والفنون والعلم والسياسة، منهم سبتيم سيفار (Septime-Sévère)، ذلك الإفريقي أصيل لبتيس ماقنا (Leptis Magna)، الذي بلغ عرش الإمبراطوريّة الرومانيّة.

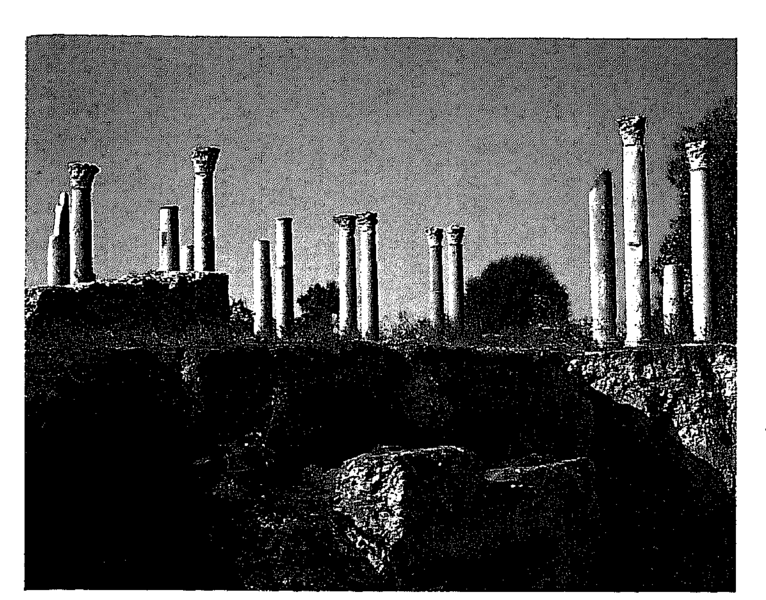
وكان الأفارقة خبيرين بأسرار أراضيهم يستغلّونها أحسن استغلال فأثمرت كميّات كبيرة من الحبوب والزياتين والأعناب ومختلف أنواع الثمار والمواشي حتّى سمّاها القدامى «مطمورة رومة». أمّا إنتاج الزيوت فقد كاد يصبح إنتاجا صناعيا. ولقد سنّت شبه قوانين زراعيّة لإحكام التّصرف الفلاحي وتنظيم حياة الفلاحين وشؤون البوادي عموما (مثلما يتجلّى في نقائش هنشير متّيش وعين جمّالة وغيرهما). وفي ذلك الرخاء تفسير لانتشار المعالم الفخمة مثل قصر الجمّ التي كانت تعرف قديما بتيسدروس (Thysdrus).

ونهضت قرطاج بعد التخريب الذي أصابها، فمجّدها أحد أبنائها وهو أبوليوس، أصيل مادوروس (Apulée de Madaure) وخاطب أهلها بقوله: «في مدينتكم هذه، لا يرى بينكم إلاّ رجال مثقّفون لهم جميعا باع طويل في كلّ العلوم، يكرعون منها أطفالا ويتحلّون بها شبابا ويدرّسونها شيوخا. أنت يا قرطاج المدرسة الوقورة في مقاطعتنا، أنت ربّة الفنّ السماوي في إفريقيا، وأنت أخيرا يا قرطاج بمثابة كامان (Camène) للشعب الروماني الذي يرتدي التوجة».

ولا ننس أن أبوليوس اخترع فنّا أدبيّا جديدا في عصره هو الرواية. كما ينبغي التذكير بأنّ مقاطعة أفريكا التي كانت قرطاج عاصمتها هي التي سميت باسمها القارّة الإفريقيّة برمّتها.


الجم
المدرّج في وسط
المباني الحديثة



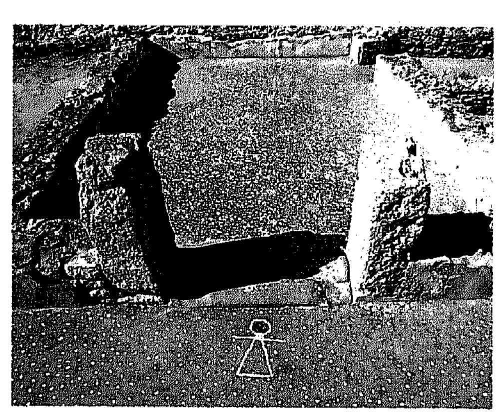


قرطاج
معلم الأعمدة

ولئن أصبحت اللاتينية لغة رسمية فإنّ البربرية والبونية بقيتا مستعملتين، كما يشهد بذلك الضريح الليبي البوني بدقّة الذي تمّ بفضل نقيشته المزدوجة حلّ رموز الكتابة اللوبيّة. ولسنا في حاجة إلى التذكير بأنّ الكتابة اللاتينية العادية والسريعة ظهرت لأوّل مرّة في إفريقيا الرومانية وأنّ الفسيفساء، التي كانت بلا مراء أبرز المظاهر الفنيّة في العصور القديمة، انتشرت في تونس وتطورت حتّى فاقت برقتها وتأنّقها جميع أنواع الفسيفساء في المقاطعات الأخرى، بما في ذلك رومة والمنطقة المحيطة بها. ولقد أنتج الأفارقة نوعا من الخزف الصافي كانوا خبيرين بأسرار صناعته فطوّروها وأبدعوا فيها أيّما إبداع.

وامتازت الأرض الإفريقيّة أيضا بدورها الأساسي في انتشار المسيحيّة، بعد أن حضيت باحتضان أوّل تجلّ ديني للبشرية في ميلادها -وهو ما دلّ عليه اكتشاف معبد هرمايون (Hermaïon) وبعد أن أوجدت كلاّ من بعل وتانيت. ثمّ هاهو القدّيس أوغستين ينشأ في ربوعها بهيبو ريجوس (Hippo-Regius) (عنّابة حاليا) في جوّ من الإنحلال العام أو يكاد ومن الفوضى والإضطهاد. ولقد كان انتصار المسيحية مؤذنا في الواقع بنهاية الامبراطورية الرومانية وكان صاحب كتاب المدينة السماوية وأحد الصانعين الأفذاذ لذلك الإنتصار. أمّا اليوم فإنّ





على اليمين : مأدبة فسيفساء عثر عليها بقرطاج (متحف باردو)
على اليسار: كركوان مدخل منزل مبلط بفسيفساء تمثل تانيت

الحضور المسيحي المتوغّل في ربوع إفريقيا يتجلّى بكامل التراب التونسي في عدّة آثار مثل الكنائس العتيقة وبيوت العماد والنقائش والمصابيح وغيرها. ولقد ظهرت مدرسة أدبية مسيحية في تونس لأوّل مرّة، لذلك فإنّ العرب القادمين لأفريكا -التي أصبحت إفريقية-

والمتقدين إيمانا بالدين الإسلامي وجدوا فيها تقاليد دينية موحّدة مازالت قوية، بيعة يهودية أوّلا (في بيعة الغريبة بجربة الذي يرجع تاريخها إلى حوالي 2600 سنة) ومسيحية بعد ذلك، مع بعض الخصائص المحليّة مثل الدوناتية.

وكان لعقبة بن نافع -الذي أوفده الخليفة على رأس جيش صغير- فضل تأسيس القيروان سنة 670 م. قبل الإنطلاق بخيله لا يلوي على شيء في ربوع بلاد المغرب إلى أن بلغ ساحل المحيط الأطلسي. كما كان لعقبة فضل بناء الجامع الكبير الذي مازال يحمل اسمه وهو أوّل جامع في تاريخ الإسلام أنشىء ببلاد المغرب، وفيه يبرز التناسق البديع بين الفنون المعمارية الشرقية والغربية. وعلى بضعة أميال، تقع مدينة سوسة على ساحل البحر، مطلّة على الجزر المتوسطيّة الكبرى وحارسة للقيروان. وكان رباطها محصّنا يرابط فيه جنود تفرّغوا للعبادة والحراسة. وما رباط سوسة إلاّ حلقة من سلسلة الرباطات التي كانت تحمي السواحل المغربية

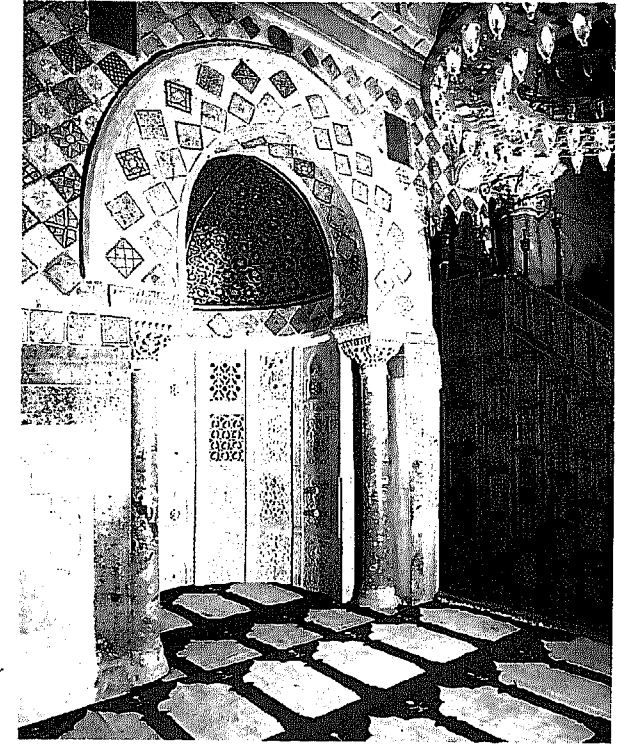
على اليسار:
القيروان
محراب ومنبر الجامع الأعظم

القيروان
صحن وصومعة الجامع الأعظم

سوسة
منظر عام للمدينة من برج خلف



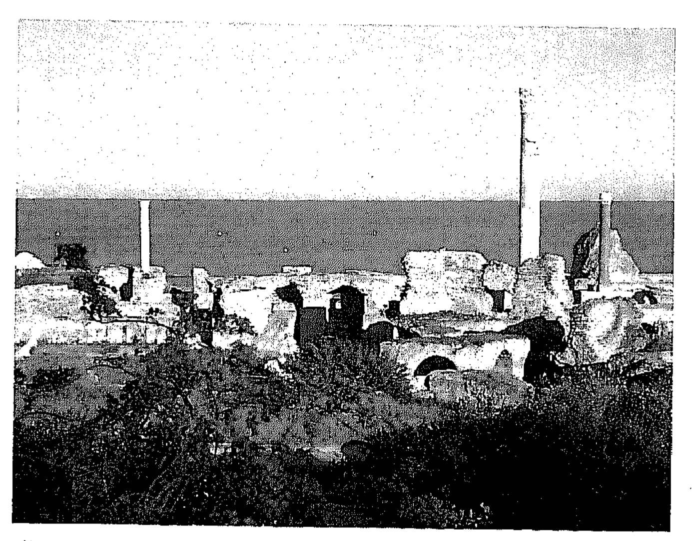




بأكملها. وامتازت سوسة، إلى جانب تونس، بأنّها كانت مركز تجمّع الجيوش والسفن الإسلاميّة التي كانت إذ ذاك سيّدة البحر الأبيض المتوسط. والملاحظ أنّ المدينتين مسجّلتان مع القيروان في قائمة التراث العالمي.

وفي تونس، وحتّى قبل ظهور الإمام سحنون، اتخذ المذهب السنّي طابعا مالكيا وكان له في علي بن زياد (أواخر القرن الثامن م.) خير نصير ومدافع. وفي تونس أيضا أنشئت الجامعة الزيتونية وكانت قبل القرويين بفاس والأزهر بالقاهرة أوّل جامعة في شمال إفريقيا وبقيت إلى مطلع هذا القرن مركزا فكريا وعلميا مشعّا. وفي تونس أخيرا، ولد العلامة

إبن خلدون سنة 1332م. وامتاز ابن خلدون بحصافته وسداد رأيه مما مكّنه من ابتكار نظريّة ذات طابع عصري بخصوص التاريخ وعلم العمران البشري. ولئن كان يعتبر بحقّ مبدع علم الإجتماع، فقد كان في الواقع ممثّلا لحضارة بدت في عصره منحلّة ولكنّها كانت حضارة عالية أثرت أيّما تأثير في الفكر (خصوصا ابن سينا وابن رشد) وفي العلوم (الجبر والطبّ وعلم الفلك والكيمياء) وفي فنون البشريّة قاطبة.



قرطاج
حمامات
انطونينوس

وفي نفس الفترة تقريبا ولكن في مجال آخر تماما، مجال المياه، صنّف ابن الشبّاط أصيل الجريد التونسي، كتابا مفصّلا فريدا من نوعه تناول فيه توزيع المياه في الواحات وضبط فيه عملية مدقّقة في كيفيّة الإستغلال المشترك لمياه الينابيع وتوزيعها بين الناس.

وتألّقت إفريقيّة في ميدان آخر، هو ميدان المخطوطات وخاصّة الرقّ الأزرق الذي انفردت به مدينة القيروان في العالم بأسره. وفي القيروان أيضا، وبفضل العديد من النقائش المقتضبة التي يتراوح تاريخها من القرن الثالث إلى القرن الخامس عشر م. أمكن لأوّل مرّة تشكيل الكتابة الكوفية من جديد، حرفا بعد حرف، والإهتداء إلى سرّ تطوّرها، بدءا بطورها العتيق المزوّى وانتهاء بتحولها الكامل إلى حروف عادية سريعة والعناية الدائمة التي أولاها الإسلام للكتابة، إذ جعلها ركنا من أركان العقيدة وفنّا راشدا بأتمّ معنى الكلمة (ألم يقل جبريل عليه السّلام لمحمّد رسول اللّه أوّل ما خاطبه: «إقرأ» !) هي نفس العناية التي تجلّت في تونس، أرض الحضارة، في أكمل مظاهرها.

السكن التقليدي بجنوب شرق تونس

الناصر البقلوطي

«وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين» قرآن، سورة الحجر، آية 82.

أحس الإنسان منذ غابر العصور بضرورة التجمع والتقارب، وقد أوجدت هذا الشعور عوامل اجتماعية واقتصادية وأمنية فأنشأ القرى والمداشر وأسس المدن والحواضر وجعل منها مجالا لعلاقاته مع بني جنسه. لكن اختيار مواقع العمران ليس أمرا موكولا للصدف بل يستجيب لمتطلبات عدة. يقول عنها ابن خلدون في مقدمته (القرن الرابع عشر) إنه يجب في انتقاء مواقع العمران العمل على «دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها. أما الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعا سياج من الأسوار وأن يكون وضع ذلك في ممتنع من الأمكنة، إما على هضبة متوعرة من الجبل وإما باستدارة بحر أو نهر بها...» وهكذا يتفاعل الإنسان والمكان في علاقة جدلية، لأن المكان يحتم نمطا معينا من الإقامة والإنسان يحاول بدوره تدجين المكان وتسخيره واستغلاله ولنا في ذلك أصدق مثال في الجنوب الشرقي للبلاد التونسية.

ويشتمل جنوب شرق تونس على مجموعة متنوعة من التضاريس، فيها السهول والهضاب والتلال والجبال. فيحاذي سهل الجفارة البحر شرقا ويمتد جنوبا إلى ليبيا مشكلا ممرا طبيعيا يربط الشمال بالجنوب والمشرق بالمغرب، وتحده غربا سلسلة من الجبال تنطلق شمالا من تلال مطماطة وتمر بجبل دمر في شكل مقوس إلى أن تصل إلى ليبيا حيث مرتفعات جبل نفوسة. وقبل ذلك وفي مستوى مدينة غمراسن تقريبا، ينفصل عن دمرمتجها نحو الشرق «الجبل

الأبيض» وتنبسط التضاريس بين الأصل والفرع لتفسح المجال لسهل «الفرش» الخصيب ويتخذ الجبل في واجهته الشرقية المطلة على السهل شكل جرف انتصبت على أعرافه وعلقت به بعض القرى، ثم ينحدر غربا مكونا هضبة تسمى الظاهر وبها هدب قابل للزراعة ويحتوي على بعض البساتين، أما الباقي فهو ميدان للترحال وتربية الماشية.

وقد مثل سهل الجفارة في ماض غير بعيد وفي السنين الممطرة وقبل أن تتفجر فيه الآبار منطقة للحرث وزراعة الحبوب ومجالا لرعي الماشية المتنقلة ولكن يمتاز الجبل بخصوبة نسبية إذا ما قارناه بالسهل ويقول عنه التجاني في رحلته (القرن الرابع عشر) «... هو جبل مرتفع في السماء قد سهلت فيه طرق ضيقة لا يسلكها السالك إلا على غرور.. وتحف بهذا الجبل مزارع فيها نخل كثير لا يرى أحسن من رطبه... وقوة اعتمادهم في ري الأرض إنما هو ما ينحدر من سيول تلك الجبال في وقت الأمطار فإنها تجتمع في أبطح ذي حصباء متناسبة وتربة بيضاء كافورية تحدق بمزارعهم أحداق السور والسوار تخترقها مذانب متسربة إليها منه».

فالجبل يوفر ما يكفي من مياه الري لتعاطي غراسة الأشجار المثمرة كالنخيل والتين والزيتون حيث يتم استغلال سيلان مياه الأمطار في الشعاب والمنحدرات بشدها بواسطة سدود صغيرة ومتعددة من الحجارة والرمل تحافظ على التربة الخصبة وتكوّن قطعا صغيرة من الارض تأتي في شكل مصطبات صالحة للزراعة، فبموقعه الدفاعي وخصوبته النسبية يمثل الجبل نقطة استقطاب للعمران ومجالا فسيحا للأنشطة الاقتصادية.



جامع بشنني
تطاوين

وقد كانت مجموعات ممن يتعاطون تربية الماشية المتنقلة بالسهول تصعد إلى الجبل صيفا في نطاق دورة الترحال لاعتدال طقسه كي تستفيد من نقط المياه المتناثرة به كالآبار والمواجل لسقي الماشية وخزن المحاصيل الزراعية بالاهراء الجماعية المحصنة (القصور). وتتخلل هذه الإقامة حركة دؤوبة من التبادل التجاري والمقايضة وكذا الاستفادة من إسداء بعض الخدمات (حدادة، نجارة، حلاقة...). فقد كان الجبل إذن قطبا بل ركيزة من ركائز النظام الإقتصادي بالجهة، القائم على تكامل بين غراسة الاشجار المثمرة بالشعاب وزراعة الحبوب بالسهول وتربية الماشية المتنقلة بالسهول والهضاب، وبالتالي بين الاستقرار والترحال.. ووجود مجموعات بشرية لها نشاط موزع بين السهل والجبل وهضاب الظاهر قد

خلق منطقة اقتصادية وعمرانية مفتوحة الأرجاء يمثل فيها الجبل نقطة التقاء وفضاء مؤهلا للتعمير.

أما صيغ السكن فهي تتكيف حسب معطيات الطبيعة فمنها المساكن المحفورة عموديا في طبقة الطمي الصلصالي والرملي ومنها الدور المشيدة على القمم ومنها البيوت المنقورة أفقيا في الطبقات الجبلية الهشة والمصطفة على عدة مسطحات صخرية. وقد كانت جبال مطماطة وتلالها تضم قرى وقلاعا قديمة اندثرت كليا اليوم أو تكاد، كانت تحتل النتوءات الصخرية في مواقع محصنة، منها قلعة مطماطة وتوجان ولكن منذ ما يقارب القرنين هجرها السكان ونزلوا مستقرين إما على سفح الجبل (في توجان وبني زلطن...) وإما على التلال (في مطماطة وتشين وتيجمة وبني عيسى...) حيث حفروا البيوت ومعاصر الزيتون، وهكذا يكون الساكن قد اقترب من الشعاب المغروسة (جسور) التي يمتلكها.



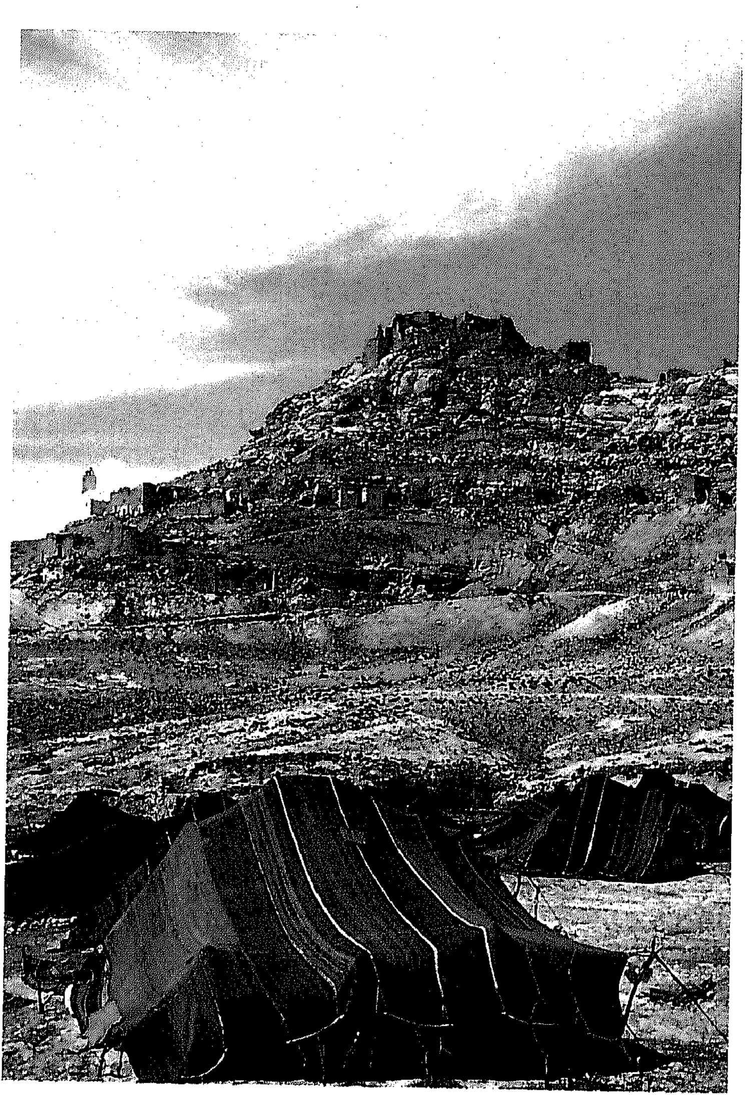
منازل محفورة مطماطة

وتحتل غرب مطماطة ثلاث قرى ربى تشرف على هضاب الظاهر وهي تمزرت وتوجوت وزراوة. ويمتاز تخطيط هذا النمط من القرى بانطلاق البناءات من نواة مركزية تحتل القمة ويجسمها المسجد وتنحدر منها في شكل اهليلجي أحوئه من المساكن على مستويات مختلفة إلى أن تبلغ أسفل الجبل وبذلك تنعطف الأنهج في حركة ملتوية صاعدة ونازلة.

ولقرى جبل دمر مثل شننّي وقرماسة تخطيط مغاير حتّمته طبيعة الجبل أساسا والمسالك المؤدية إليه، ويصف التجاني تلك الطرق قائلا: «وقد تدرب أهلها على سلوكها... وكذلك غنمهم وإبلهم، يسلك البعير منها مسالك لايستطيع الآدمي سلوكها إلا بالحيلة وتؤدي تلك الطرقات إلى بيوت منحوتة بعضها فوق بعض من وسط الجبل إلى أعلاه يسمونها «الغيران». فتنتصب القرية فوق النتوءات الصخرية في وحدة عمرانية متركبة من «القصر» الذي يحتل أعلى القمة في موقع منيع ثم تصطف أسفله مساكن كهفية نقرت افقيا على جوانب الجبل المنحدرة على مستويات مختلفة الارتفاع وكذلك بعض معاصر الزيتون. أما «بالجبل الأبيض» فالسكن على شاكلة سكن جبل دمر غير أنه أكثر تفرقا لعدم وجود ظهر طبيعي تسند إليه القرية ويوفر لها متنفسا ومدى حيويا. لأن الجبل هنا منحصر بين سهلي الجفارة والفرش.

وقد أوجدت هذه الصيغ العمرانية ثلاثة أنماط معمارية: السكن المبني (تمزرط، توجوت...) والسكن المحفور عموديا (مطماطة، تشين...) والسكن المنقور أفقيا (الدويرات، قرماسة...) في النمط الاول المنزل مشيّد بالحجارة وملاط من الجير أو الجبس وتفتح خلاياه من غرف ومطبخ وغيرها في حوش مركزي صغير يتوسط الكل وإن تسنى ذلك يحتوي هذا النوع من الدور على غرفة منقورة في الجبل. وتمتاز هندسة السكن المحفور ببساطتها وطرافتها

فهي عبارة على بئر واسعة الأرجاء يبلغ عمقها سبعة أو ثمانية أمتار وقطرها حوالي العشرة أمتار، تفضي إليها سقيفة مغطاة وتفتح فيها على مستوى أو اثنين الغرف وباقي المرافق كالمطبخ وغرفة الخزن. أما النمط الثالث من المنازل فهو يجمع بين البناء والحفر أو النقر بعبارة أدق، إذ يحتوي على جزء مبني بالحجارة به سقيفة تعلوها غرف صغيرة أعدت لخزن المحصول الزراعي، ويليه حسب تخطيط متلاحق فناء مكشوف بلاطه من صخر ثم تأتي غرفة أو غرفتان منحوتة في طبقة الجبل الهشة وقد اتضح أن النمطين الأخيرين من السكن بقدر ما يستغلان الإمكانيات الطبيعية المتوفرة بقدر ما يستجيبان لحاجيات الإنسان في تلك الربوع فالمسكن هناك لا يتطلب تكاليف باهضة كما أن له خاصية هامة وهي التقليص من برودة الشتاء والتخفيض من حرارة الصيف بحيث يستطاب داخله العيش في كل الفصول.



خيام البدو الرحل شنني

ويشتمل الجبل على وحدة اقتصادية تحويلية تؤدي أجلّ الخدمات للمتساكنين وهي معصرة الزيتون. فإثر عملية الجني يخزن المزارع محصوله في «القصر» أو في غرفة ملاصقة للمنزل أو تعلوه ثم يقتطع منه نصيبا يحوله إلى زيت حسب الحاجيات المنزلية في معصرة محفورة أو منقورة. وفي كلتا الحالتين تتكون المعصرة من جزئين يضم الأول مسحقا يشغله بعير فيحول الزيتون إلى عجين ويحوي الثاني معصارا متركبا من جذع نخلة ومنظومة من حبال تشد الجذع إلى حجارة صخرية ثقيلة تمكن المعصار من الضغط على عجين الزيتون لكي يعطي زيتا. وتشير عملية عصر الزيتون إلى نوع من الإكتفاء الذاتي في ميدان التغذية، نتيجة للتكامل الإقتصادي الموجود بين السهل والجبل. وفي نطاق هذا التكامل كان لزوما على السكان المزارعين منهم ومربي الماشية خزن محاصيلهم وحمايتها من التلف والنهب خاصة في فترات التنقل والترحال، فبنوا على القمم ثم على السفوح وبالسهول قصورا هي أهراء جماعية محصنة يحفظ بها ما زاد عن الإستهلاك العادي وكل ما له قيمة كالوثائق العائلية وحجج التملك... ويتركب القصر من عديد الغرف المتراصّة التي تشبه

لحد بعيد تخاريب النحل وقد بنيت على مستويات تصل أحيانا الستة، حول فناء فسيح الأرجاء أو على جوانب ممرات متزاحمة تؤدي إليها بوابة ضخمة وسقيفة انتصب بها الإسكافي والحداد والنجار والحلاق... ويمثل القصر فضاء اجتماعيا يسمح بتواصل أفراد المجموعة وبالمبادلات بينهم، وهو رمزها وضامن تماسك أفرادها ولحمتهم. لكن بفضل ما تشهده تونس اليوم من تطور لم يعد للقصر وظيفة يؤديها، إذ تقلص دور تربية الماشية المتنقلة في اقتصاد الجهة، وعمّ الاستقرار السهل والجبل وأضحى الساكن يكتفي بخزن محصوله ببيته في غرفة خاصة أعدها للغرض أو في مطمور محاذ له، أو في أوعية من الحلفاء أو الفخار. كما أن بعض السكان هجروا قراهم الجبلية ذات المسالك المتوعرة واستقروا بمجموعات سكنية حديثة أنشئت بالسهول (الدويرات، زراوة...) والنية الآن متجهة نحو إعادة توظيف هذه المنشآت الشامخة في أغراض ثقافية وسياحية.

ويمكن القول ختاما أن الجنوب التونسي يمتاز برواسب حضارية لا تزال بعض أوجهها قائمة وهي تظم أنماط العيش والسلوكيات الإجتماعية ورغم تيار عصرنة الحياة الجارف، حاول الإنسان في هذه الربوع التأقلم مع معطيات الحداثة دون أن يفرط في ذاتيته. وقد أظهر في ذلك انسجاما كليا مع محيطه وتناغما بديعا مع الطبيعة.

تونس الحضرية

محمّد العزيز إبن عاشور

إن تفتّح تونس بأكملها على البحر الأبيض المتوسّط هيّأها لازدهار حضري كان قائما على شبكة واسعة من المدن في العهد الروماني، ثم تواصل ذلك الإزدهار على مرّ القرون بتكاثر عدد الحواضر الكبرى النشيطة وباتساع رقعة تأثيرها الإقتصادي والثقافي في أعماق البلاد.

وكانت القيروان أولى تلك الحواضر وأوّل عاصمة سياسية وفكرية في تونس الإسلاميّة (وكانت تسمّى إذ ذاك إفريقيّة)، تأسست في القرن السابع ميلادي وحافظت إلى اليوم، في قلب الفيافي ورغم تقلّبات الزمن، على تقاليدها وقيمتها الحضريّة. وخلفتها في القرن العاشر مدينة المهدية لمّا أصبحت عاصمة للخلافة الفاطميّة فحافظت هي الأخرى على ثقافتها الحضريّة. ثم أصبحت تونس عاصمة منذ القرن الثالث عشر فازدهرت بها حضارة راقية جعلتها من أهمّ حواضر العالم الإسلامي وذلك بفضل السلاطين الحفصيين (من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر) ثمّ بفضل العثمانيين (في القرنين السادس عشر والسابع عشر) وخصوصا بفضل البايات الحسينيين (من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين). وبحكم موقعها في ملتقى بلدان المشرق وسائر بلدان المغرب كانت مدينة تونس باتصال وثيق مع أوروبا المتوسطية فاستفادت كثيرا من كلّ الإسهامات وخاصّة الإسهام الأندلسي. ولقد احتضنت، إلى فترة الإنقلابات الإقتصادية والسياسية في القرن التاسع عشر، حضارة مزدهرة قائمة على ضروب من الصناعات والتجارات الرابحة، أبرزها وأرقاها في مستوى الجودة صناعة «الشواشي» التي اشتهرت في كامل العالم الإسلامي.

وبالتوازي مع ازدهار الأسواق وثراء التجار بلغت الثقافة الإجتماعية درجة عليا من التفنّن كما بلغت الحياة السياسية والدينية حدّا كبيرا من النشاط. ولقد حافظت مدينة تونس أشدّ المحافظة على طابعها الإسلامي وأولت عناية قصوى للعلوم الدينية ولعبت دورا

كبيرا في نشر الإسلام واللغة العربيّة الفصحى انطلاقا من جامع الزيتونة ومن مراكز علمية أخرى. ثم إنّها استطاعت أيضا أن تستفيد من جمعها لأجناس مختلفة من السّكان مثل طوائف يهود تونس وقرنة والمسيحيين والإيطاليين والمالطيين والفرنسيّين وغيرهم.



تونس
صحن جامع
الزيتونة المعمور

ولئن تجمّعت أغلب الحواضر في المناطق الساحلية مثل بنزرت وتونس وسوسة والمنستير والمهديّة وصفاقس فلقد احتوى داخل البلاد التونسية على مدن شديدة التأثر بالبوادي المحيطة بها، لكنّها مع ذلك ذات ثقافة حضريّة متميّزة مثل باجة في الشمال وتوزر وقفصة في الجنوب.

وفي الوقت الراهن، ورغم عاديات الزمن وحدوث انقلابات تاريخية واقتصادية وثقافية وديموغرافية، فإنّ الحضارة العمرانية التونسية مازالت تحافظ على أهميّة كبرى، في عدّة مجالات، بالنسبة إلى تراث البشرية : ففي المستوى المعماري والفنّي يمثّل النسيج الحضري في تونس والقيروان والمهدية وصفاقس وسوسة كما تمثّل المعالم الموجودة بها ثروة عظيمة القدر.

تونس
دار الاصرم



أمّا قرية سيدي بوسعيد فهي في حدّ ذاتها تحفة حضرية ومعمارية ذات طابع اصطيافي فريدة من نوعها في البلدان الإسلاميّة.

وتتضمّن فنون الزخرفة عيّنات رائعة تشهد على مهارة الصنّاع القدامى وقدرتهم الفائقة على استيعاب التأثيرات الخارجيّة مع احترام مقوّمات الأصالة المحليّة.

وفي مستوى الثقافات، يعتبر جامع الزيتونة رمزا للتعليم الحضري التقليدي الذي كان منتشرا أيضا في المساكن الخاصّة والمدارس القرآنية والزوايا العديدة والذي أذاع صيت أعلام مشاهير في تونس والعالم العربي والإسلامي بدءا بأبي زيد القيرواني وانتهاءا إلى معاصرنا محمّد الطاهر إبن عاشور.



تونس
المدرسة الشماعية

بيبليوغرافيا

- M. A. Ben Achour, Catégories de la société Tunisoise au XIXè siècle, Tunis, 1989.
- A. Bouhdiba, D. Chevallier et autres, La Ville Arabe dans l'Islam, Tunis, Paris, 1982.
- R. Brunschvig, La Berbèrie orientale sous les Hafsides, 2 Vol, Paris, 1938-1947.
- D. Chevalier et autres, L'espace social de la ville arabe, Paris, 1978.
- A. Daoulatli, Tunis sous les Hafsides, Tunis, 1977.
- Léon L'Africain, Description de l'Afrique, Paris, 1956.
- G. Marçais, Manuel d'Art Musulman, I et II, Paris, 1926-1927.
- R. Petit, M. de Epalza, Etudes sur les Moriscos-Andalous en Tunisie, Madrid, 1974.
- J. Revault, Palais et demeures de Tunis, XVIè - XVIIè siècles, Paris, 1967.
- Idem, Palais et demeures de Tunis, XVIIIè - XIXè siècles, Paris, 1971.
- Idem, Palais et Résidences d'Eté de la banlieue de Tunis, Paris, 1974.
- H. Saladin, Tunis et Kairouan, Paris, 1906.
- M. Talbi, L'émirat Aghlabide, Paris-Tunis, 1972.
- Zbiss, Epalza, Gafsi, Ben Ali, Etudes sur les Morisques andalous, Tunis, 1983.



العالم الزراعي القرطاجي ماجون

محمّد حسين فنطر

لقد أثبتت الأبحاث التاريخية والأثرية أن القرطاجيين كانوا يوجهون عناية كبرى نحو الأرض والزراعة، ولعل حذقهم للتجارة لا يفوق حذقهم للفلاحة التي تستوجب خبرة ومعرفة تقنيات مضبوطة، فلنا في كتب القدماء وفي العديد من الشهادات الأثرية ما لا يترك للشك مجالا في خصوص المستوى الرفيع الذي أدركته الفلاحة في بلادنا خلال العصور البونية. ولكن النصوص القديمة لم تحتفظ الا باسمين وهما عبد ملقرت وماجون. عن عبد ملقرت لا نعرف عنه الا اسمه وقد اندثرت مؤلفاته وانقرضت، وأما عن ماجون فالحظ شاء أن يكون أقل قساوة حيث بلغتنا بعض أخباره كما بلغتنا بعض الفقرات من مؤلفاته، كان القدماء حريصين على نقلها والاستفادة منها.

قضية الاسم

إنه لمن المفيد أن نتعرض الى اسم الرجل وضبطه انطلاقا من معطيات موضوعية لا تترك المجال للاجتهاد الاعتباطي أو الاجتهاد المجاني فنرى بعضهم يكتب ماغون وصنف آخر يقول ماجون، فما هو الصحيح : ماغون أو ماجن أو ماجون ؟

إن الذين يقولون «ماغون» وهي الصيغة الأكثر استعمالا لكنها الأبعد عن الصواب. ينطلقون في تعريفهم الصوتي من المجموعة التي يتركب منها هذا العلم في اللغة الفرنسية حيث يقولون (Magon) وذلك استنادا إلى المصادر اللاتينية التي أدخلت الاسم في قوالبها الخاصة انطلاقا مما كانت تلتقطه الاذن اللاتينية حيث كان الفينيقيون ينطقون «مقن» مع العلم أن الجيم في أفواه الفينيقيين والبونيين كانت تخرج «ڨ» وهو نطق نجده اليوم في بعض الأقطار العربية كمصر ونجده في اللغة العبرية.

وهكذا احتفظ الرومان بالصوت «ف» واستخدموا لأدائه الحرف الذي عندهم يفي الحاجة.

وفي نقل هذا الاسم من اللغة اللاتينية الى اللغة الفرنسية لم تكن هناك أي صعوبة لما اللغتين من أواصر القرابة ومن تناظر أو تطابق فقالوا(Magon) باحترام قاعدة أساسية أساسية تقضي بالإنطلاق من المادة الأولية أي من العنصر.

فالذين ينطقون «ماغون» يعتبرون أن صوت «ق» في اللغة الفرنسية مثلا يكون تأديته بحرف «غ» في اللغة العربية. فيتحول الى صيغة «ماغون» وليس هناك ما يعلل تلك المعادلة الصوتية، بل هي طريقة اعتباطية كما فعلوا ليوقرطة فقالوا يوغرطة على أن قصة يوغرطة لها خصوصيتها.

أما في قضية اسم العالم الفلاحي فالامر أيسر وأوضح، فعوض أن ننطلق من الصيغة اللاتينية ينبغي أن نعود الى الاصل البوني لا سيما وأن الاسم كان منتشرا عند الفينيقيين والبونيين، فقد ورد مسطورا بالأحرف الفينيقية على عديد من الوثائق ورسم المعادلة الحرفية أمر بسيط. فإن يتركب من ثلاثة أحرف فينيقية وهي الميم والجيم والنون. فلماذا لا نستند إلى المعادلة الحرفية في تعريفنا ونقول ماجون أو ماجن أو مجن ونكون أكثر وفاء للواقع اللغوي ويعني اسم ماجن في اللغة الفينيقية الترس. وكان ينطق «مقن» وفي اللغة العربية نجد نفس الاحرف ولها مدلول واحد «مجن» ولكل هذه الاعتبارات الصوتية واللغوية أرسى اختيارنا على قاعدة سليمة وعلى معطيات موضوعية ثابتة. ثم باختيار صيغة ماجون أو ماجن أو مجن يمكن الوصول الى معرفة المعنى المقصود في المادة الحرفية. والثابت أن لكل اسم علم معنى ومدلولا لا يتيسر إدراكه إلا إذا تم تشخيص المادة الاولية أي «الكتلة الصوتية» التي استخدمت لسبك الاسم.

المصادر

كانت الموسوعة التي ألفها ماجون في شؤون الفلاحة في دار الكتب بقرطاج - ولعل نسخا منها كانت ملكا لبعض الخواص لا سيما إذا كانوا من الذين يتعاطون الفلاحة. ذلك أن موسوعة ماجون لم تكن من صنف الكتب التي يحتفظ بها على رفوف المكتبات، بل كانت وسيلة عمل يعود إليها صاحبها عند الحاجة. ولعل بعض فصولها كانت لتلصق في غرف المشرفين على الضيعات مهما اختلفت اختصاصاتهم. وبعد الحرب البونية الثالثة وسقوط قرطاج أمر شبيون الاملياني بنهبها وحرقها. وأهديت الكتب القرطاجية الى ملوك النوميديين وأمرائهم باستثناء الموسوعة التي ألفها ماجون في الفلاحة، فقد استأثر بها الرومان وكلف مجلس الشيوخ لجنة بترجمتها الى اللغة اللاتينية. وكان من بين أعضاء هذه اللجنة ديقيموس سيلانوس (Decimus Silanus) أحد أبناء عائلة شهيرة. وتذكر المصادر أنه الى جانب الترجمة اللاتينية الرسمية تناول النص (Cassius Dionysius) أحد الذين كانوا يكتبون باللغة اليونانية وكان يعيش خلال القرن الأول ق. م في مدينة أوتيكة عاصمة الولاية الرومانية بأفريقة آنذاك. وقد أهدى قسيوس ديونوسيوس (Cassius Dionysius) عمله الى والي أفريقة سكستليوس (Sextilius) سنة 88 ق. م. إلا أن قسيوس ديونوسيوس لم يترجم كل الموسوعة بل لخّصها وأضاف لها بعض الفقرات من كتب يونانية أخرى حتّي صار عمله هذا يحتوي على 20 جزءا.

والموسوعة ماجون ترجمة ثالثة انطلاقا من ترجمة قسيوس ديونوسيوس قام بها ديوفان النيقي (Diophane de Nicée) الذي عاش في القرن الأول ق.م. وهو لم يترجم بل لخّص الاجزاء العشرين التي صنّفها قسّيوس ديونوسيوس الى ستة أجزاء وأهدى عمله الى الملك ديوتارو (Deotaro) ويبدو أن التلخيص الذي وضعه ديوفان تم تلخيصه بدوره في

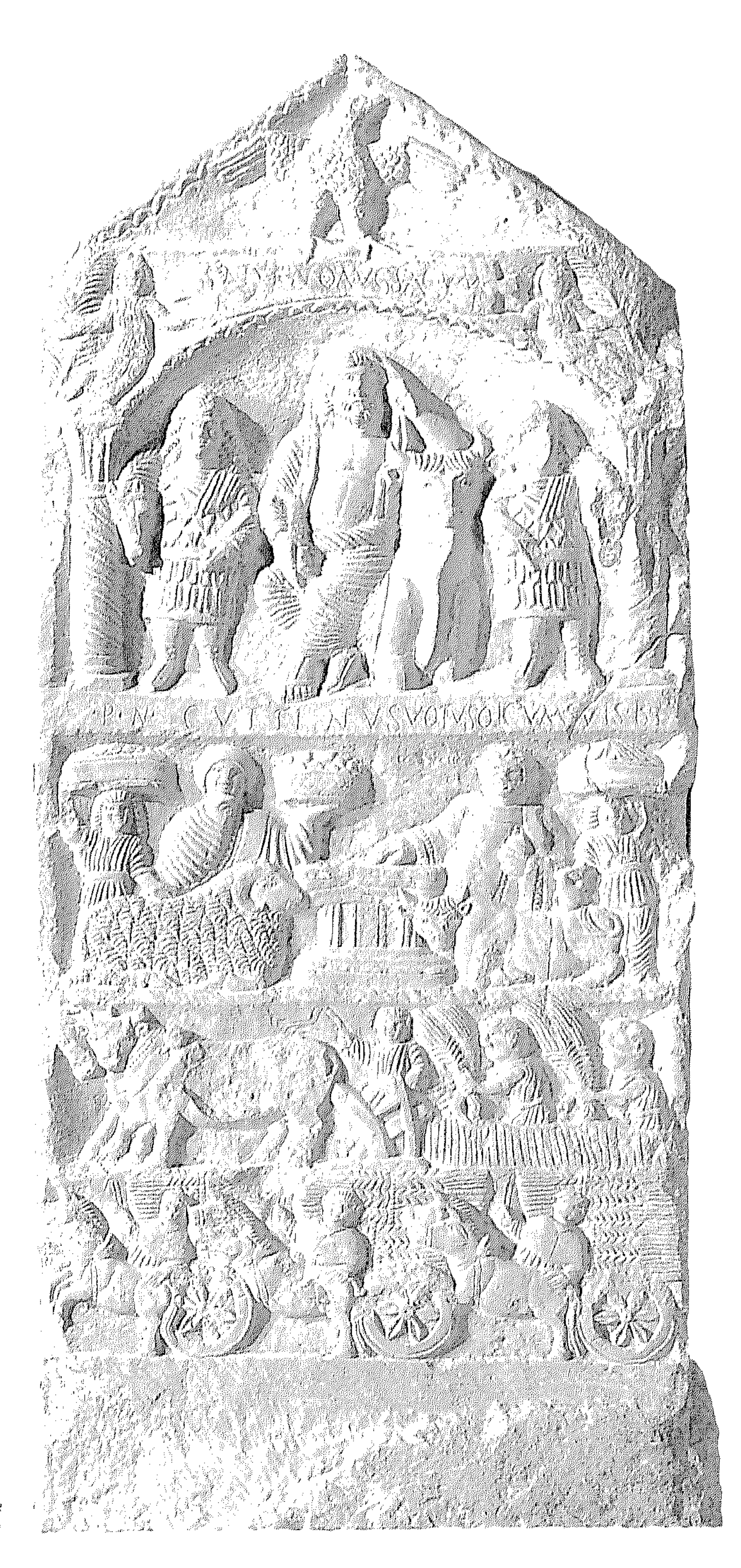
جزئين قام به الفيلسوف فلّيو، الذي كان يدرس بروما حوالي 48 ق. م. أثناء حكم بمبيوس.
وبالرغم من هذه العناية والاهتمام المتواصل لم يبق من موسوعة ماجون الا 66 فقرة وردت في كتب بعض علماء الفلاحة منهم ورون (Varron) وقولومال (Columelle) وجرجليوس (Gargilius) ومرسياليس الافريقي، وقد عاش في القرن الثالث بعد الميلاد وغيرهم، ومن بينهم من نوه بماجون ومؤلفاته منها قيقيرو (Ciceron).

ماجون وموسوعته

وقعت محاولات عديدة قام بها مؤرخون معاصرون في البحث عن هوية ماجون وعائلته ومسقط رأسه دون الحصول على نتائج مرضية. فقرطاج لم تكن مسقط رأس كل البونيين. أما الإطار الزمني الذي عاش فيه والمحيط الثقافي الذي ينتمي إليه والفئة الاجتماعية التي إليها ينتسب فقد يمكن استنتاجه من الفقرات التي وصلتنا ضمن المصنّفات القديمة ومنها ما جاء في كتاب إبلينوس الاكبر وقد أثبت أنّ ماجون من قادة الجيش ولايعني ذلك أنه كان من العسكرين المحترفين.
وفيما يتعلق بإطاره الزمني فقد تعددت الروايات والإقتراحات. فلقد اختفت النظرية التي كانت ترى في ماجون صاحب الموسوعة مؤسس الامبراطورية القرطاجية خلال القرن السادس ق.م. إذ بالفقرات التي وصلتنا ضمن مؤلفات يونانية لا تتجاوز القرن الرابع ق. م. ومعلوم أن الحضارة البونية تفتحت على عناصر الحضارة اليونانية خلال القرن الرابع ق.م. وكان من بين القرطاجيين من يحسن اللغة اليونانية محيطا بفلسفة أصحابها، على أن ذلك لا يفيد قطعا أن ماجون صاحب الموسوعة قد عاش خلال القرن الرابع ق. م. بل يحق إثبات القرن الرابع ق. م. كحدّ أقصى بالنسبة للحقبة الزمنية التي عاش فيها ماجون. أما الحد الأدنى وهو ما يراه بعض المؤرخين لا يتعدى فترة الحروب البونيّة، أي قد يكون ماجون عاش في ما بين القرن الرابع والقرن الثاني ق. م. على أن جلبار بيكار ينسبه إلى عصر الحروب البونية. ولم يتردد أحد الباحثين الإيطاليين في أن ينسب الموسوعة الى ماجون أخي القائد حنبعل، وقد شاركه في الحرب البونية الثانية ورافقه الى إيطاليا، إذ يرى سبيرنزا (Sperenza) في هذا القائد الشروط الملائمة لصاحب الموسوعة. ومعلوم أن الأبارقة معجبون بالحضارة اليونانية ومغرمون بالفلاحة، فلهم ضيعات في الساحل التونسي وليس من الغريب أن تنجب هذه العائلة عالما في الفلاحة. ثم لا ننسى أن حنبعل قد كلف جنوده بغراسة الزيتون بالساحل حتى لا تستهويهم البطالة. فنظرية سبيرنزا مغرية ولكنها ليست قادرة على فرض كيانها. فالوثائق تعوزنا وليس في تلك التي بين أيدينا ما يثبت ذلك قطعيا. لأن ما قام به ماجون هو حصيلة عمل نظري وتطبيقي أساسه دقة الملاحظة والتجربة. ولقد بيّن القدماء أن توجيهات ماجون لا تصلح إلا لمن يعمل في أرض تشبه في تربتها ومناخها الأرض الافريقية.

محصول الموسوعة

لقد تجاوزت أصداء الموسوعة العهد الروماني إلى العهد البيزنطي ثم العالم الاسلامي. ويبدو أن ابن العوام تأثر بها عن غير وعي وذلك من خلال موسوعة فلاحية بيزنطية صنفها قسّيانوس بسّوس.
أما الفقرات 66 لموسوعة ماجون التي وصلتنا فهي تتعلق بزراعة القموح وغراسة الأشجار المثمرة كالكروم والزيتون واللوز والرمان والتين وكذلك بعض النباتات البرية التي لها قواعد صيدلية وعلاجية لبعض الأمراض. ثم إن هناك قسما تناول بالدرس تربية الماشية وتربية النحل لإنتاج العسل وبها نجد فصولا تخص التصرّف في الضيعة وتلحّ على ضرورة الإقامة فيها اذا أراد صاحبها تحسين الإنتاج.
ففي ضوء ما وصلنا من هذه الموسوعة نتبين أن القرطاجيين كانوا يوجهون عناية فائقة الى الفلاحة وكانوا حريصين على ضمان وازدهار فلاحتهم، فسخروا لها العقول ووضعوها على أسس علمية.



مسلة جنائزية
مهداة إلى الآلهة
الافريقية ساتورنوس
نهاية القرن الثالث -
بداية القرن الرابع
بعد الميلاد
عثرعليها
بمنطقة سليانة
(متحف باردو)

تونس موفّرة القوت لرومة

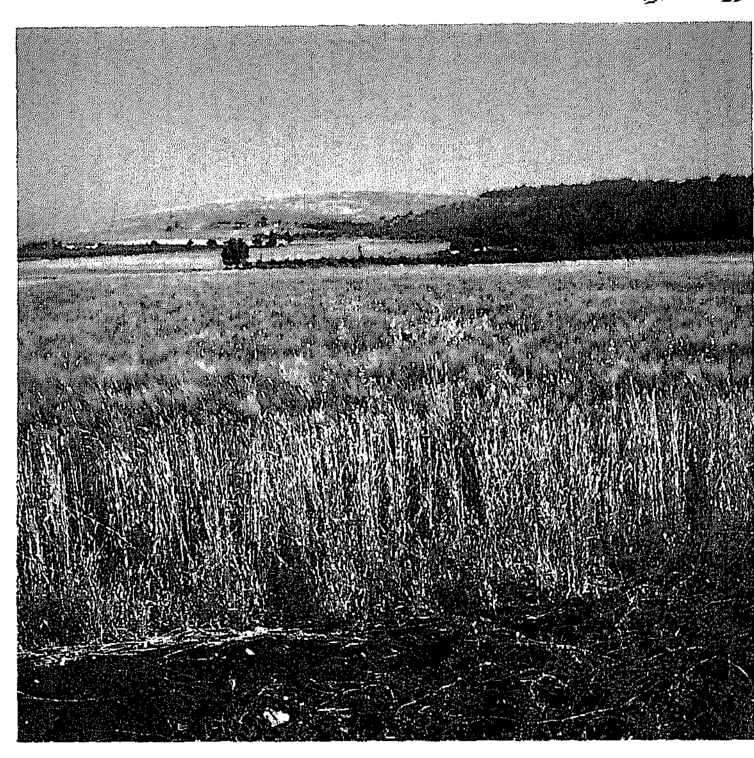
الهادي سليم

نحن نعلم المكانة الفائقة التي كانت الزراعة تحتلّها في الإقتصاد أثناء العهود القديمة. وقد كانت تونس -وهي موطن ماجون أشهر المختصين القدامى في شؤون الزراعة- تحظى بمكانة مرموقة على الصعيد الزراعي، بفضل عمل القرطاجيين الذي استمر قرونا عديدة. وفي العهد الروماني ازدادت شهرة قرطاج في هذا المجال تعاظما حتى أصبحت تشبه الأسطورة. وهذه الشهرة تقوم على أساس ازدهار قد يكتسي شيئا من التناقض لأوّل وهلة. وفعلا، وعلى خلاف بلدان المنطقة الشمالية من البحر المتوسط المتميزة بشيء من التّجانس من حيث المناخ والموارد المائية، فإن تونس تخضع، رغم صغر رقعتها الترابية (164 000 كلم مربع)، لتأثير ثلاثة أنواع من المناخ تزداد جفافا بقدر ما نتقدّم نحو الجنوب. وبحكم التحامها بالصحراء الكبرى -وهي أوسع منطقة من هذا النوع في العالم- فهي تنتمي في ثلاثة أرباع مساحتها إمّا إلى المناطق القاحلة تماما، أو إلى المناطق شبه القاحلة. وفي الحقيقة فإن قيام سلاسل جبال الأطلس الشمالية كحاجز في وجه الرياح الشمالية الغربية المحملة بالعوامل المناخية المتوسطية يجعل الربع الشمالي للبلاد هو الذي يحظى وحده بكمّيات من الأمطار طيبة نسبيا. أما بقية الأراضي المتميزة بالجفاف إلى أقصى حدّ فإنه ينطبق عليها تماما عبارة «سالوست» (Salluste) المشهورة : "*Caelo terra-que penuria aquarum*". فمهما كانت الفترة التاريخية التي نختارها لدراسة الزراعة التونسية، نرى الإزدهار هو دوما وليد مهارة الأشخاص وجهودهم أكثر مما هو ناتج عن نعم الطبيعة وهباتها.

وفي العهد الروماني استغلّ الرومان التقاليد الثريّة المتطورة التي تركها القرطاجيون، فوجهوا الفلاحة وجهة جديدة تتماشى ومصالحهم الذاتية. وهكذا فقد بقيت الكروم والزياتين التي خربها وأتلفها الغزو الروماني مهملة لتجنب أية مزاحمة للإنتاج الإيطالي الذي كان يسود آنذاك سوق الزيوت

والخمور. وبالإضافة إلى هذه الإعتبارات الإقتصادية كانت توجد متطلبات سياسية فرضت تخصص البلاد في صنف زراعة وحيدة هي زراعة القمح، حتى أنّ «بلين» (Pline) كتب في تاريخه الطبيعي: «إن أرض إفريقية قد منحتها الطبيعة بأكملها إلى «سيراس» (Cérès) آلهة الحبوب، في حين أنها تكاد تكون حرمتها من الزيوت والخمور. فعظمة البلاد تكمن كلها في حصادها من الحبوب» وفي الحقيقة فإن هذا التركيز على زراعة القموح بمفردها ناتج عمّا كان يوجد بروما من جماهير العاطلين عن العمل -وقد كانوا أكثر من 000 200 في عهد أغسطس (Auguste)- والذين كانوا يحظون بكميات من القمح توزع مجانا، في حين كانت إيطاليا وسائر الإمبراطورية تشكو نقصا يتسبّب في كثير من الأحيان في المجاعات والإنتفاضات. وقد اضطرت تونس إلى تقديم 000 260 1 قنطار من القمح، مغطية بذلك ثلثي احتياجات رومة ومغذية عامة جماهيرها لمدة ثمانية أشهر من السنة -تاركة الباقي في عهدة مصر- وكان في ذلك وقاية من مخاطر الثورات الكامنة المترتبة عن المجاعات. هذا الإستثمار المكثف لزراعة الحبوب وهذه المساهمة الفائقة في تموين رومة أضفيا على البلاد شهرة بالخصب والإزدهار جعلتها مضرب الأمثال. وكان «فلافيوس جوزاف» (Flavius Joseph) يكتب قائلا إن تونس هي «مخزن حبوب رومة»، في حين لا ينفك الكتاب اللاتينيون يثنون دائم الثناء على الخصوبة الكبرى للتربة التونسية. أما بلين (Pline) فهو يتحدث عن حبوب يبلغ مردودها 150 ضعفا، وعن نباتات تتألف من 400 ساق نابتة من نفس الحبّة الواحدة. ويتحدث سترابون (Strabon) من جهته عن صابتين من الحبوب في السنة الواحدة، وهو أمر مبالغ فيه، فيما يبدو، نظرا إلى أن أصناف البذور العاجلة الإنتاج لم تكن معروفة في ذلك العهد. وعلى عكس ذلك فإن المحاصيل التي يبلغ فيها المردود 100 ضعف مقابل واحد -بل حتى أكثر من ذلك- لم تكن فيما يبدو من قبيل «النوادر الزراعية» بل كانت من النتائج الإستثنائية الباهرة المرتبطة بسنوات شديدة الخصوبة بالفحوص أو بمناطق زراعية محدودة المساحة.

أراضي مخصصة لزراعة الحبوب



ولكن هذه الفلاحة المتسمة بالوحدة الزراعية المفروضة شهدت تطوّرات عميقة بفضل عدة عوامل حدثت خلال مختلف عقود القرن الأوّل بعد الميلاد: من ذلك التوسع في زراعة القموح إلى أراض جديدة بإفريقيا الشمالية، مما أدّى إلى تخفيف الإلتزامات الموضوعة على كاهل البلاد التونسية؛ ومن ذلك أيضا الأزمة الإقتصادية والإجتماعية التي أدت إلى تناقص الإنتاج الإيطالي من الخمور وخاصة الزيوت؛ وكذلك ارتقاء أباطرة من أصل آفاقي إلى الحكم، وهم أكثر ميلا إلى التحرر الإقتصادي، وحرص أكبر على النجاعة أدى إلى تخصيص الأراضي التي لا تصلح لزراعة الحبوب -أو الضئيلة المحصول- لزراعة الأشجار واستثمارها. ورغبة في توسيع مساحة الزراعات لشمل مناطق لا تزال مهملة. وبعبارة

أوجز فقد تظافرت مختلف العوامل لتحدث بوادر تحول عام في الإتجاه ولتفتح الطريق بالخصوص في وجه زراعة الكروم والزياتين ابتداء من القرن الثاني بعد الميلاد.

وبفضل التحرر واللامركزية أصبح نصيب سكان مختلف مقاطعات الإمبراطورية أوفر من ذي قبل، وتمكن الفلاحون في نسبة هامة، من اختيار الزراعات الأكثر جدوى. وعاد شيئا فشيئا التوازن المفقود بين الثلاثية الزراعية المميزة لبلدان البحر المتوسط والمعتمدة على أسس القمح والعنب والزيتون. وقد كان شجر الزيتون بالخصوص يتلاءم بصفة ممتازة مع الظروف الطبيعية والمناخية السائدة في قسم كبير من مناطق البلاد. وسوف تطبع هذه الشجرة لمدة قرون ميزة المشاهد الريفية طابع التطور الإقتصادي والإجتماعي للبلاد التونسية. وأصبح الكثير من الأراضي الواقعة بالمناطق الجبلية أو وسط السباسب مكسوّا بأشجار الزياتين. وقد كان الزيت يوزع على الشعب مجانا من قبل الأباطرة كما كان يوزع القمح. وأمكن لهذا الزيت أن يقتحم العديد من الأسواق لأنه كان في ذلك العهد الوقود الوحيد للإنارة، والمادة الشحمية الغذائية الأساسيّة، والمنتوج الوحيد المستعمل كأساس للعطور. وكان بلين (Pline) لا يتردد في أن يكتب قائلا: «ميزة الزيت أنه يدخل الدفء على الجسم ويحمي من البرد ويهدئ من حرارة الرأس. وقد اتخذ منه اليونانيون -وهم السباقون إلى كل العيوب والعادات الفاسدة- مادة للترف بإشاعته في كل مضاميرهم الرياضية». وفي القرن الرابع كان القديس أغسطينوس (St. Augustin)- المتعود بوفرة الزيوت بإفريقية وبالإقبال على استهلاكها بغير حساب وترك المسارج موقدة كامل الليل- يستغرب التضييقات التي فرضتها قلة الزيوت بإيطاليا. وقد بقي في نفسه أثناء إقامته بمدينة «ميلانو» (Milan) أثر تلك الليالي الكاملة التي تقضى بدون إنارة. وقد كتب يقول: «كنّا في الظلام، وهو أمر يكاد يكون حتميا بإيطاليا حتى بالنسبة إلى الأثرياء» فما أبعد ذلك إذن عن العهد السّابق الذي كان فيه جوفينال (Juvenal) الكاتب الساخر اللاتيني الذي عاش بين آخر القرن الأوّل وأوائل القرن الثاني من الميلاد يثني على الزيت الرقيق المصنوع بإيطاليا الوسطى والذي يستأثر به صاحب المحلّ، ويقابله زيت إفريقية المقدم للحريف. يقول الكاتب: «اما هو فإنه يسقي سمكته بكمية وافرة من زيت «فينافر» (Venafre) وهي بمنطقة «كامباني» (Campanie). وأما أنت، أيها المسكين فإن الكرنب الذابل الذي يقدم إليك تفوح منه رائحة زيت القنديل: ذلك أن الزيت المسكوب في أواني مرقكم هو من الزيوت التي يأتي بها أحفاد «ميسبسا» (Micipsa) في زوارقهم ذات الجؤجؤ الحادّ المصنوعة من القصب. وبما أن «بوكار» (Boccar) يستعمل هذا الزيت فإنه لا يوجد برومة أحد يقبل أن يدخل معه الحمّام. وهذا الزيت يوفّر الوقاية والحصانة من نهش الحيات السّود». ويمكن أن تكون طرق وتقنيات تصفية الزيت الإفريقي في أوّل الأمر لا تزال بحاجة إلى مزيد من الإتقان، غير أنه من الأقرب إلى الإحتمال والأغلب على الظنّ أن هذا الكاتب السّاخر كان يشيد بزيت منطقته ويرفع من شأنه بالغض من قيمة الزيت المنافس الذي كان يخشى من مزاحمته. وعلى كل فإن الزيت الذي ذمّه جوفينال (Juvenal) قد فرض نفسه في نهاية الأمر بكل أسواق البحر الأبيض المتوسط، وأصبح من أهمّ مصادر ثروة المقاطعة الإفريقية. وقد بقيت آثار ازدهارها غابات الزياتين العتيقة في كل مكان. وإنا نجد اليوم بقايا معاصر الزيت من العهد الروماني منتشرة بتراب البلاد التونسية. فقد كانت تشكل أحيانا مصانع بأتم معنى الكلمة مما يدلّ على إنتاج مكثف من الزيوت يبلغ الحجم الصناعي الحقيقي. والسر في هذا الإزدهار يعود بالخصوص، كما كنّا ذكرنا، إلى مهارة أهل البلاد وإرادتهم الراسخة في تحقيق أفضل استثمار للموارد الضئيلة المستمدّة من طبيعة قاسية شحيحة.

وفعلا فإنّ هذه الموارد وخاصّة منها الموارد المائية، لا تتسم فقط بالنقص وسوء التوزيع، بل إنها تتميّز في الغالب بالعنف المدمّر. فبعد فترات طويلة من الجفاف تتهاطل أحيانا أمطار غزيرة جدّا تحدث فيضانات تتخذ شكل الكارثة وتجرف معها كل ما يعترض طريقها قبل أن تصبّ في البحر وفي البحيرات



سنابل قمح

المالحة والسّباخ. وبذلك فلئن كان فقدان الماء يعتبر دوما من الأمور الرهيبة فإن الإفراط في نزول الأمطار يمكن أن يتخذ كذلك مظهر الكارثة. ومن أجل التحكم في هذه الوضعية المحرجة توخى القدامى من سكان البلاد سياسة حكيمة في تنظيم المياه. وسعيا إلى تجنب آثار الإنجراف، وقطع الإنسياب وتلافي الضياع واستصلاح ما تظهره الطبيعة من شدة وإفراط، تمّ اللجوء إلى طرق وأساليب بسيطة أو معقدة بحسب الحالات، لكنها طرق تستوجب يقظة دائمة وتعهّدا مستمرّا: من بناء سدود صغيرة وتهيئة مسطحات احتجاز معدّة لصدّ انطلاقة المياه وتثبيت التربة الزراعية مع إنشاء مسطّحات متدرجة للزراعة، ومن تركيز تجهيزات مختلفة تتمثل في قنوات وخزّانات ومصدّات للتيار، وجدران معدة لتنقيص سرعة المياه، ولتطويقها ولتوجيهها نحو أحواض تخزن فيها ريثما يحتاج إليها بالخصوص في زمن الجفاف، وكذلك إقامة شبكات كثيرة التفرع حول الأودية من القنوات والجداول والسواقي التي تتيح توزيع المياه بين أصحاب الأراضي المجاورة لمجاري الماء. ولا نزال نرى العديد من بقايا هذه التنظيمات المعدّة للتحكم في المياه ومنعها من تدمير الأرياف، وهي منتشرة بكل مكان من الأرض التونسية؛ لكنّه قد يكون من باب الظلم والإعتباط تماما أن ننسب كل هذه الأشغال إلى العهد الروماني وحده كما كانت تقتضيه النزعة السائدة سابقا.. فقد تمّ منذ زمان إجراء بحوث ميدانية مدققة، وأمكن بفضل ذلك إعطاء كلّ ذي حقّ حقه، والإعتراف للبربر والبونيقيين بما هو راجع إليهم، وللعرب من أهل القرون الثامن والتاسع والعاشر بما نحن مدينون لهم به. وبذلك تعلمنا أنه لا ينبغي أن ننسب بصفة آلية وشاملة -كما كان يجري في الماضي- إلى مهارة رومانية معجزة كل التنظيمات والتهيئات الناشئة بالبلاد ذاتها وبالإعتماد على تجربة سكانها طوال القرون.

ومهما يكن من أمر فلابدّ من التأكيد على أهمية المجهود البشري في مكافحة الجفاف بواسطة تطوير الجهاز المائي الخاص بالزراعة الذي أتاح تمديد رقعة الزراعات إلى حدود من الجنوب يصعب بلوغها. ونتيجة لهذه الجهود اتخذت البلاد في العهد الروماني شكل ضيعة كبرى مستثمرة بشكل منظم وشامل. وقد أمكن لتونس بفضل هذا الإقتصاد المزدهر أن تقدم للنخبة الإجتماعية بها إمكانات عجيبة في التطوّر الثقافي والسياسي. وقد عمدت هذه النخبة فعلا إلى احتلال أعلى الخطط في نطاق الإمبراطورية بصورة منظمة ومنهجية ؛ وفي نهاية القرن الثاني وأوائل القرن الثالث، كانت نسبة 15٪ من أعضاء مجلس شيوخ رومة ومن «فرسانها» تنتمي في الأصل إلى المقاطعة الإفريقية. وقد آلت هذه المساهمة المتزايدة في تسيير شؤون الإمبراطورية إلى النتيجة الحتمية التي كانت بمثابة تتويج لها منذ نهاية القرن الثاني : فقد أصبح باستطاعة «الأفارقة»، بحكم إشرافهم على أعلى مراتب القيادة وإمساكهم بالخطط الأساسية بالإدارة، أن يضمنوا تسمية الأباطرة أو خلعهم. من ذلك أن ايميلوس ليتوس» (Aemilius Laetus)، متولي بيت الحكم -وهو نوع من الوزير الأوّل- وأصيل بلدة «تينة» (Thaenae) الواقعة بجوار صفاقس، لم يكلفه الأمر سوى تنظيم أزمة تموين برومة، وجعلها تؤول إلى أزمة سياسية، لكي يفتح في وجه أحد مواطنيه طريق الإمساك بمقاليد الدولة. فقد استطاع «سبتيموس سيفيريوس (Septime Sévère) المنتمي إلى أسرة ثرية من أسر «لبدة»، أن يرتقي إلى مرتبة الإمبراطورية التي تقاسمها مع أحد أبناء مقاطعته وهو «كلوديوس البينوس» (Clodius Albinus) أصيل «هادرومات» (Hadrumète) وهي سوسة. وقد قيل برومة إن هذا هو ثأر حنّبعل. وفي ذلك تلميح إلى الأصل البونيقي لهذا الإمبراطور الذي كان الأوّل من أسرة أباطرة تحكمت في مصير العالم الروماني لفترة تناهز نصف القرن.

القوانين الزراعية في العهد الروماني
تشريع طلائعي

زينب بن عبد الله

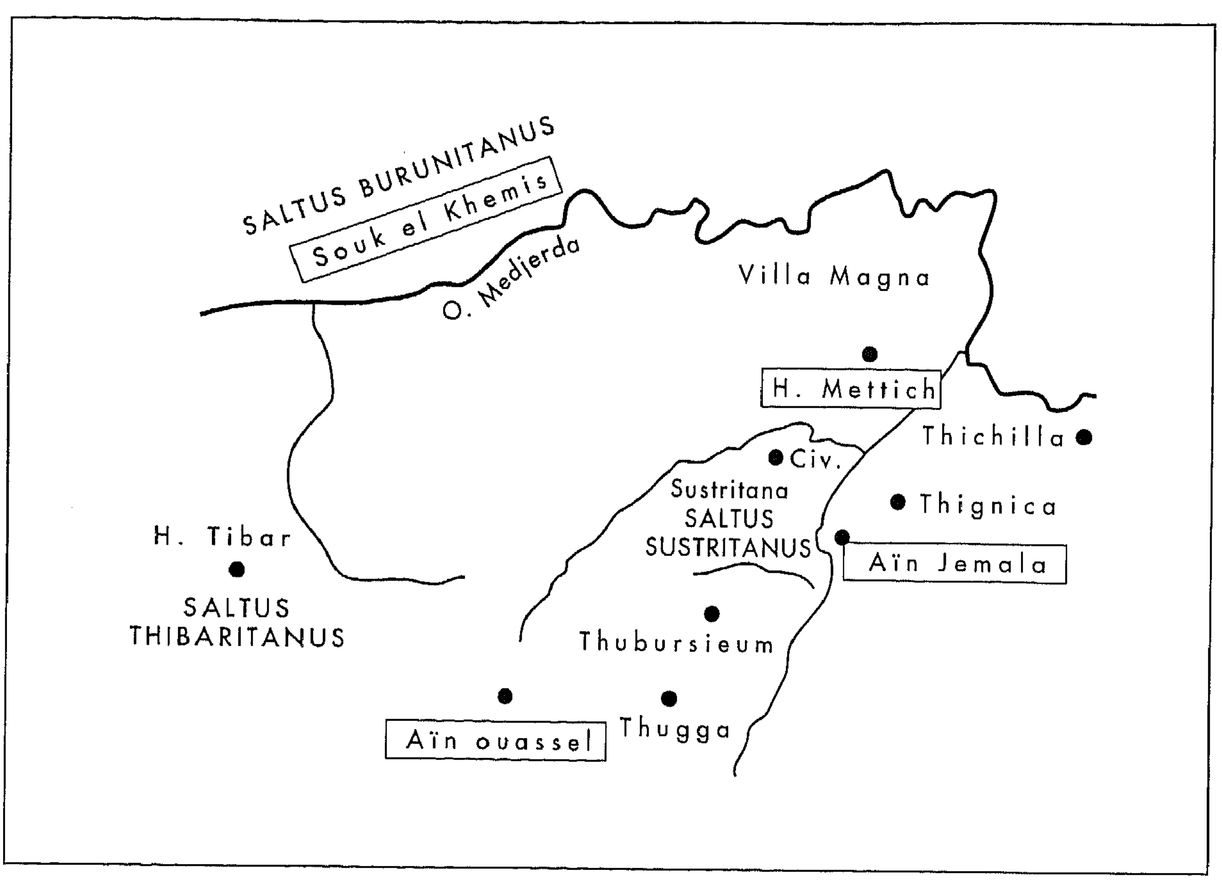
كانت لأباطرة روما عناية فائقة بتنمية الزراعة والفلاحة خلال القرن الأوّل وخاصّة القرن الثاني بعد الميلاد. فبعد فسبسيان (Vespasien) (69-79) وتراجان (Trajan) (98-117)، هادريان (Hadrien) (117-138) مصدر إدخال تجديدات وابتكارات كبرى في مجال التشريع الزراعي والترتيب العقاري وترتيب الأراضي الزراعية التابعة للدولة. وقد كانت المقاطعات التابعة للإمبراطورية، وخاصة منها المقاطعات الإفريقية (أي ببلاد المغرب العربي حاليا) هي أكبر مستفيد من هذه السياسة.

ونحن الآن على معرفة كاملة بهذا التنظيم الجديد بفضل اكتشاف مجموعة هامة من النقوش التي سمحت بتكوين ملف شامل عن وضعية الأراضي التي يملكها الإمبراطور بحوض وادي مجردة خلال القرنين الثاني والثالث. والأمر يتعلّق بثلاث نقائش كبيرة (أصبحت اليوم معروفة على الصعيد العالمي) تمّ اكتشافها بهنشير متيش وبعين جمالة وبعين وسّال، وتنطبق أحكامها سواء فيما يخص ضيعات الإمبراطورية (التي كانت تسمّى Saltus) أو الضيعات التي بقيت بيد الخواص.

وهذه الوثائق ذات المدى العام تشكل ذخيرة من المعلومات لمعرفة ملفّ الزراعة الإفريقية في العهد الروماني. ومن ناحية أخرى فإنّها تشكّل من وراء طابعها القانوني باعتبارها نصوصا قانونية بالمعنى الصحيح، دليلا واضحا ملموسا على ثراء الأرض الإفريقية وحجة على ما كان يبذل من الجهود :

أوّلا، قصد الإستثمار المكثف لهذه الممتلكات العقارية الترابية بواسطة إحياء شامل ومنظم للأراضي الموات.

ثانيا، قصد تكوين طبقة جديدة من المستغلين الزراعيين المتوسطين والمستقرين، المتمتعين بالحماية ضدّ عمليات الإبتزاز (وهو نظام الإستثمار الإستيطاني المقسّم إلى قطع



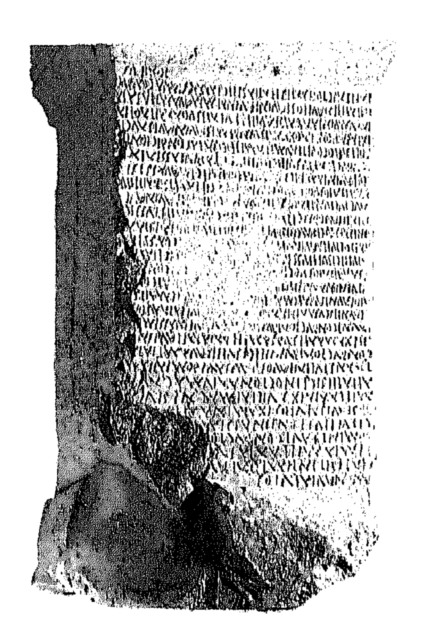
خارطة لتوزيع التشريعات الامبراطورية المتعلقة بالقوانين الزراعية

صغيرة) وقد أحرز المعمّرون المؤهلون الذين يتعاطون زراعة الحبوب والأشجار المثمرة والكروم على الوسيلة التي سوف تتيح لهم حيازة القطع الزراعية، والتي تكاد تجعل منهم مالكين لهذه الأراضي. ويمكن أن نحدد التطوّر الحاصل -كما تصفه التراتيب الزراعية المحفورة في النقائش- على الصورة التالية :

أ) أحكام التشريع المانسياني (Lex Manciana) - المختلف حول تسميته بين كونه من التقاليد المحلية أو من التدابير التي اتخذها موظف يدعى مانسيا (Mancia) - تحدّد واجبات المعمّرين (المستثمرين)، وهي واجبات كثيرا ما يزيد في ثقلها «القوّاد» (Conductores) (أي كبار المزارعين) سواء كانوا الخواص أو من الموظفين الإمبراطوريين : فأجر الأرض الذي يدفعه المعمّر لا يجوز أن يتجاوز ثلث المحصول الذي يحرز عليه، كما أنه لا يطالب بأن يقدّم على كامل الضيعة التي يوجد بها أكثر من ستة أيام من عمل السخرة. ومن ناحية أخرى فإن هذا «القانون (أو التقليد) المانسياني» يعطي حقا في التصرف (Usus proprius) قابلا للوراثة بشرط عدم التخلّي عن عمل الزراعة أكثر من سنتين.

فهذا التشريع كان يساعد حينئذ على ظهور طبقة من المستثمرين الزراعيين الذين يحظون بالحماية والواثقين من التمتع في كامل الطمأنينة بنتيجة عملهم. وبالتالي فإن هذا التشريع قد فتح المجال لاستثمار الأرض بصفة أفضل من ذي قبل.

ب) وقد تمّ بعد ذلك توسيع مجال الإستفادة بمزايا هذا القانون لتشمل الأراضي الموات أو المهملة. وقد تمّ تنظيم هذا التوسيع بواسطة قوانين تراجان وهادريان (Trajan و Hadrien)



نقيشة هنشير متيش (الوجه الثاني والثالث)

التي تمّ التعرّف عليها بفضل نقائش هنشير متيش (بتاريخ سنة 116-117 أي في عهد تراجان) ونقيشة عين جمالة (بتاريخ سنة 117-118، أي في عهد هادريان)؛ أما نص عين وسال (198-211) فهو ليس سوى صورة من أصل نص عين جمالة (Exemplum legis hadrianae) وقد أصبح متاحا في المستقبل للمعمرين المرتكزين بالضيعات الإمبراطورية وكذلك للخواص أن يقوموا بإحياء وزراعة الأراضي الموات (المستنقعية منها والغابية)، والأراضي المهمّشة (أي الأجزاء التي لم تشملها عمليات القيس والتسجيل الرسمية)، والأراضي البور التي أهملت منذ عشر سنوات، وذلك بشروط مناسبة جدّا مثل الحق في التصرف والإستثمار مع إمكانية توريث هذا الحقّ، وإعفاءات مختلفة من أداء الضرائب أثناء السنوات اللازمة لنموّ الزراعة التي شرع فيها (خصوصا الكروم والزياتين والأشجار المثمرة)، والتي لا يكون مردودها فوريا، بطبيعة الحال.

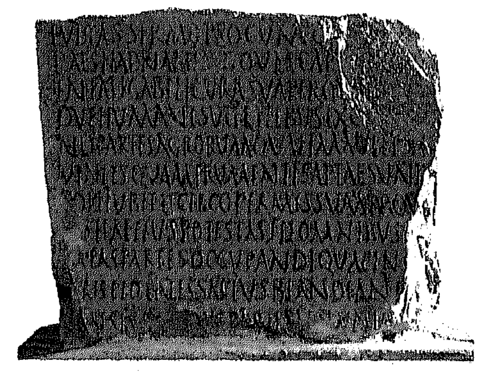
وهذا التشريع هو السبب بدون شك في التطور العظيم الذي تمتاز به إفريقيا الشمالية في مجال زراعة الأشجار المثمرة. وهو من ناحية ثانية، تشريع يفتح السبيل أمام تغيير هام سوف يطبع الحياة الريفية على الدوام: وهو ظهور أراضي الإستثمار الصغرى والمتوسطة المتمتعة بحماية الدولة، مقابل أراضي الملكية الكبرى (مثال: «حصّاد مكثر»).

وقد حفزت كل هذه المزايا والفوائد التي تمّ تقنينها بشكل نهائي، همم الفلاحين الأفارقة فأنجزوا عملا جبارا وقاموا بتنمية طرق تقنية جديدة.

وعلى كلّ فإنّ الدليل على نجاح هذه السياسة الزراعية يتضح لنا من دوامها العجيب على مدى طويل، ذلك أننا نجد نصوصا من العهد الوندالي (أي القرن الخامس) تعرف باسم لوح البرتيني (Tablettes Albertini) وتمّ اكتشافها بمنطقة تبسة، لا تزال تشير إلى هذه التراتيب الزراعية كمرجع لها.

وللإقتناع بقيمة تلك النهضة العجيبة التي شهدتها الزراعة بإفريقية في القرنين الثاني والثالث أن نبدي إعجابنا بلوحات الفسيفساء الإفريقية التي تعكس لنا تماما صورة هذه الثروة.





نقيشة عين جمالة (الوجه الثاني والثالث)

وإنّ مدى ما يشعر به الأفارقة من الفخر والإعتزاز بها قد حدا بصانعي الفسيفساء إلى أن يستلهموا من الزراعة عددا من المواضيع الأكثر طرافة وأصالة في لوحاتهم : مثل تصوير الضياع الزراعية الكبرى التي تستمد منها المقاطعة الإفريقية مواردها، بما فيها من حقول وبساتين تكسو وجه الأرض.

ولنذكر على سبيل المثال في هذا المجال لوحات فسيفساء طبرقة الثلاث (A، 25، 26، 27) التي تكفي بمفردها كدليل على مدى ما بلغته أرض إفريقيا الرومانية من ثراء وخصب وازدهار. فبجانب ما نجده فيها من مباني فخمة نرى صورا لبستان زيتون وحقل كروم وأشجار مثمرة... كما يمكننا أن نذكر لوحة فيسيفساء أوتيك (جرد : 2984) التي تمثل ضيعة فلاحية، وكثيرا من اللوحات الأخرى (أوذنة - اللاس...) التي تجسّم تماما هذه القوانين والتراتيب الشهيرة.

هوامش وتعاليق

1) حول هذا الموضوع، راجع بالخصوص (G.Ch. Picard) . كتاب (La civilisation romaine d'Afrique du Nord) ، باريس 1959 ، ص. 59 وما بعدها ؛ وراجع أيضا (A. Piganiol) ، كتاب (L'Histoire de Rome) ، مجموعة (Clio, P.V.F.) ، الطبعة الخامسة ؛ وراجع كذلك (P. Petit) في كتاب (Histoire générale de l'Empire Romain) ، الجلّد I ، (Le Haut Empire (27 av. J.C - 161 ap. J.C.) ، باريس 1974 ، ص. 227 وما بعدها.

2) (La politique agraire d'Hadrien, A. Piganiol) في كتاب (Les Empereurs romains d'Espagne) ، باريس 1965 ص. 135-143.

3) هنشير متيش (Villa Magna, Mappalia Siga) في (Atlas arch. Tun.) الورقة 28 (Oued Zarga) ، رقم 118 ؛ راجع (Corpus Inscriptionum Latinarum) ، (VIII) = CIL رقم 25902.

4) عين جمّالة ، (Atlas Arch. Tun.) ، الورقة 35 (Teboursouk) رقم 37 ؛ راجع (CIL) ، رقم 25943.

5) عين وسّال ؛ (Atlas Arch. Tun.) ، الورقة 35 (Teboursouk) ، رقم 112 ؛ راجع (CIL) رقم 26416.

وهذه النصوص الثلاثة محفوظة حاليا بالمتحف الوطني بباردو ؛ راجع (Z. Benzina Ben Abdallah) ، كتاب (Catalogue des inscriptions latines, païennes du Musée du Bardo, l'Ec. Fr. de Rome 92) سنة 1986 ، ص 62 رقم 163 ؛ ص 64 رقم 165 ؛ ص 151 رقم 388 . وتوجد في صفحة 154 قائمة كاملة بالمراجع المتعلقة بهذه الوثائق.



نقيشة
عين وسّال
(الوجه الثاني)

6) نشير إلى نصّ رابع يرجع إلى عهد الإمبراطور(Commode) (176-192) يوجد حاليا بمتحف اللوفر وصدر عن منطقة سوق الخميس (Saltus Burunitanus) التي تسمّى حاليا بوسالم، راجع (CIL) رقم 10570 (14464 =). وهذا النص يشير إلى قانون (Hadrien) الذي أمكن التعرّف عليه عن طريق وثائق عين جمالة وعين وسّال (انظر أعلاه).

7) (E. Albertini) ، مقال بعنوان (Actes de vente du Ve. Siècle trouvés à Tebessa) ، بمجلّة (Journal des savants) ، جانفي 1930.

8) (M. Yacoub) ، كتاب (Le Musée du Bardo) ، نشر المعهد القومي للآثار والفنون، تونس 1970 ، ص. 51 ، الصور 51-52-53.

9) نفس المصدر، ص. 121 ، الصورة 131.

ابن الشباط

618 - 681 هـ / 1221 - 1282 م

محمّد الشابي

هو محمد بن علي بن محمّد بن علي بن عمر المعروف بابن الشباط التوزري روى عن نفسه أن أصله من روم توزر الذين اسلموا. ولد سنة 618 هـ (1221م) بمدينة قسنطينة بالجزائر، ثم رجع به ابوه إلى توزر وعمره اربع سنوات.

تعلّم بتوزر، وتبحر في جميع العلوم بها. ولم يأخذ العلم إلا من علمائها ثم قعد للتدريس بها، كما انتقل للتدريس بمدينة تونس لمدة وجيزة رجع بعدها إلى توزر.

له عدة مؤلفات في الأدب واللغة، كما يذكر بعض الذين ترجموا له أنه ألّف كتابا في الهندسة، بدون تعيين الموضوع الهندسي الذي ألف فيه.

ينسب إليه توزيع شبكة المياه بغابة توزر ومدينتها، وهو موضوع يلفه غلاف سميك من الشك، حيث ان تقسيم الماء في توزر قديم من عهود ما قبل الإسلام ثم ذكره أبو عبيد البكري بتفصيل كبير في مسالكه قبل ابن الشباط بحوالي قرنين، لكن يبدو أن عمل ابن الشباط ربما كان إضافة أو توسيعا لشبكة المجاري والسواقي، خاصة إذا علمنا أن هذه يتحتم تعهدها بالجهر والتوسعة والزيادة كلما اتسعت مساحة المزروعات، أو النسيج العمراني.

وصف ابن الشباط لشبكة المياه بتوزر[1]

«... وأما توزر فإن نهرها (يخرج من رمال كالدرمك رقة وبياضا، البكري ص 48) ينقسم إلى ثلاثة أنهار كبار. ينقسم كل نهر منها (بعد اجتماع مياه تلك الرمال بموضع يسمى

وادي الجمال، يكون قعر النهر هناك نحو مائتي ذراع، البكري ص 48) على ستة جداول (... تتشعب من تلك الجداول سواقي لا تحصى كثرة في قنوات مبنية بالحجر على قسمة عدل لا يزيد بعضها على بعض شيئا، كلّ ساقية سعة شبر في ارتفاع فتر، يلزم كل من يسقي منها اربعة أقداس مثقال في العام. وهو أن يعمد الذي تكون له دولة السقي إلى قدس في أسفله ثقبة بمقدار ما يسدها وتر النداف فيملؤه بالماء، ويعلقه، ويسقي حائطه أو بستانه حتى ينفذ ماء القدس. ثم يملأه ثانيا. وهم قد علموا أن سقي اليوم الكامل هو مائة واثنان وتسعون قدسا. (البكري ص 48 - 49) أحد أنهارها يدخل المدينة، ويجري في مواضع منها، فيدخل أولا في ربع من أرباع المدينة إلى القصبة. ثم يخرج منها إلى سقاية للرجال ثم إلى سقاية للنساء، ثم يخرج فيدخل القصبة أيضا من موضع ثان، ثم يدخل في دار من دور المدينة متصلة بالقصبة، ثم يخرج فيجري تحت سور المدينة إلى أن يأتي إلى باب من أبوابها في ربع ثان. فيدخل أيضا إلى سقاية للرجال ثم إلى سقاية للنساء. ثم يخرج فيجري تحت السور إلى أن ينتهي إلى موضع ينقسم فيه على قسمين، قسم يجري في جنات وغيرها. وقسم يجري تحت السور إلى أن ينتهي إلى ربع ثالث فيدخل إلى سقايتين أيضا، ثم يخرج فينبعث في فضاء واسع إلى أن ينتهي إلى الربع الرابع فيدخل أيضا إلى سقايتين، ثم يخرج فينبعث إلى موضع ثان فيجتمع فيه مع القسم الآخر، ثم يقسم منه ذلك النهر فيسقي ذلك جنات تلك الجهة. »


عرجون دقلة

(1) من كتاب : شرح ابن الشباط على الشقراطيسية، مخطوط المكتبة الوطنية، ورقة 106

البحر تحديات وملاحم

دستور قرطاج ينوّه به أرسطو

محمّد حسين فنطر

«عرف عن القرطاجنيّين أن نظام الحكم عندهم جيّد، إذ يمتاز دستورهم على غيره من الدساتير لعدّة اعتبارات. لقد كان دستورهم قبل كل شيء شبيها بدستور اللاكونيين من بعض النواحي. والواقع أنّ هذه النّظم الثلاثة، نظام اقريتش (Crète) ونظام لاكونيا (Laconie) والثالث، أي نظام القرطاجنيين، نظم متقاربة فيما بينها وكثيرة الإختلاف عن غيرها. ولقد كانت عدّة مؤسسات في قرطاج تسير كما ينبغي وهو ما يدلّ على إحكام تنظيماتها الدستورية، خاصة أنّ غلبة العنصر الشعبي لم تمنع قرطاج من الوفاء لتلك التنظيمات الدستورية ولم تجعلها عرضة أبدا -وهو أمر جدير بالملاحظة- لأيّ تمرّد أو لأيّ طاغية.

كانت لهذا النظام مؤسسات شبيهة بالدستور اللاكوني. من ذلك أنّ الجمعيات السياسية (السرية) يتناول أفرادها الطعام معا، شأنهم في ذلك شأن الفيديتيّين (Phidites) وأنّ مجلس المائة وأربعة يشبه مجلس الأفوريين (Ephores) (لكنّه ليس بأسوأ منه، ففي حين يختار هؤلاء من بين أيّ كان من الناس تختار هيئة الحكم الأخرى حسب الأفضليّة). ومن ذلك أخيرا أنّ الملوك ومجلس القدامى هم نظراء ملوك سبارتا (Sparte) وشيوخها، ولكنّ المزيّة هاهنا هو أنّ الملوك لا ينتمون إلى نفس الأسرة ولا لأيّة أسرة. وحتّى إن وجدت أسرة شريفة فهم يختارون هناك بواسطة الإقتراع لا حسب السنّ، لأنهم إذا كانت بأيديهم سلطات مطلقة وكانوا حقيرين فإنّه يخشى أن يعيثوا فسادا كثيرا، وهو ما فعلوه بعد في حاضرة اللاسديمونيّين (Lacédémoniens).

إنّ أغلب النواحي التي قد تنتقد باعتبارها انحرافات نواح مشتركة بين كلّ الدساتير التي تحدثنا عنها. ولكن بخصوص المبدأ الأساسي للأرستقراطية أو «لطبقة الساسة» (Politie) فإنّ هذا الدستور يميل تارة إلى الديموقراطية وطورا إلى حكم الأقليّة. فمن المظاهر الديموقراطية أنّ الملوك لهم مع القدامى أن يعرضوا مسألة من المسائل أو ألاّ يعرضوها على الشعب عندما يحصل الإتفاق بينهم جميعا. وإن لم يحصل يبتّ الشعب أيضا في هذه المسائل أمّا بخصوص المسائل التي يقدّمها الملوك والشيوخ إلى الشعب، فإنهم لا يقتصرون على منحه حقّ الإستماع إلى قرارات الحكومة بل يمنحونه أيضا إمكانية إبداء رأيه دون أن ينازعه أحد في سيادته. ويمكن لكلّ مواطن، إن أراد، أن يعارض المقترح المعروض، وهو ما لا يوجد في الدّساتير الأخرى.

ومن ناحية أخرى، تتمثل مظاهر حكم الأقليّة في السماح للحكومات الخماسية التي لها سيادة القرار في خصوص عدّة مسائل هامّة بأن تتعيّن بالإختيار. كما تتمثّل في اختيار أعضاء المجلس الأعلى للمائة وفي ممارسة سلطتهم لفترة أطول من الفترة المخوّلة للحكّام الآخرين (بما أنّهم حتّى إذا تخلّوا عن وظائفهم أو كانوا على وشك مباشرتها يمارسون سلطتهم). ولكن ينبغي الإعتراف بالطابع الأرستقراطي لقاعدة عدم مكافأة أولي الأمر بمكافآت مالية أو تعيينهم بالقرعة أو ما شابه ذلك من التقاليد، وكذلك كفاءة مختلف هيئات الحكم للبتّ في جميع القضايا دون تقسيم للصّلاحيّات، كما في لاسيديمونة (Lacédémone).

ولكن بالخصوص ينحرف النظام السياسي للقرطاجنيين من الأرستقراطية إلى حكم الأقليّة بسبب رأي متعارف عموما يقتضي أنه يجب أن لا يعتبر الفضل فحسب في انتخاب هيئة الحكم بل وكذلك الثروة، لأنّ المواطن الفقير لا يمكن أن يكون حاكما جيّدا وأن يكون له التفرّغ اللازم. فإذا كان الإنتخاب حسب الثروة مبدأ من مبادىء حكم الأقليّة وكان الإختيار حسب الأفضليّة مبدأ من المبادىء الأرستقراطيّة، فقد يكوّن النظام الذي تقوم عليه -من جملة ما تقوم- القواعد الدستورية للقرطاجنين تشكيلة ثالثة إذ يؤخذ هذان الشرطان بعين الإعتبار في الإنتخابات، خصوصا بالنسبة إلى أعلى الحكام منصبا والملوك وقوّاد الجيش إلا أنه يجب أن نعدّ هذا الإنحراف عن المبدأ الأرستقراطي خطأ تشريعيا. ذلك أنّ من أعمال المشرّع الأولى والضرورية السهر على تمكين الأخيار من التفرّغ ومن اجتناب كلّ شغل غير لائق بهم، لا في ممارسة السلطة فحسب بل وفي الحياة الخاصة.

وعلى كلّ حتّى ولو وجب اعتبار الثراء لضمان التفرّغ، فإنّ شراء ذمم أعلى الحكام منصبا والملوك وقوّاد الجيش شرّ من الشرور. إنّ مثل هذا القانون يعطي للثروة قيمة أكثر من الفضيلة ويجعل المدينة كلّها متلهفة على المال. والأشياء التي تتعلّق بها مهمّة القادة هي التي يتّبعها حتما رأي بقية المواطنين. وحيثما لا تعدّ الفضيلة أسمى من كلّ القيم لا يمكن ضمان الطابع الأرستقراطي للدستور. وبديهيّ أنّ الذين يشترون وظائفهم يتعوّدون على الإنتفاع منها، لأنّهم مدينون بسلطتهم إلى مصاريفهم. فمن الغريب فعلا افتراض أنّ رجلا فقيرا لكنّه شريف يريد كسب المال، في حين أنّ رجلا أقلّ شرفا منه لا يريد ذلك لتعويض مصاريفه. لهذا يجب أن يتولّى الحكم من هم أقدر على الحكم. والأفضل أن يمكّنهم المشرّع من التفرّغ -حتّى ولو كان لا يهتمّ بثراء الشرفاء- على الأقلّ طيلة مباشرتهم للحكم.

وقد يعتبر عيبا أن يتولّى شخص واحد عدّة مناصب في الحكم، وهو أمر شائع كثيرا في قرطاج. ذلك أن العمل الواحد الذي يقوم به شخص واحد هو أنجح الأعمال. فينبغي للمشرّع إذن أن يسهر على إتمام الأمر على هذا النحو وأن لا يطلب من نفس الشخص التزمير بالمزمار وعمل الجلود. لذا، عندما لا تكون المدينة صغيرة جدّا، لا وجود لسياسة أحسن ولا أكثر ديموقراطية من أن يساهم أكثر عدد ممكن من الناس في شؤون الحكم، إذ يكون الإسهام المشترك على مدى أوسع -كما أسلفنا- وينجح كلّ عمل نجاحا أحسن وأسرع. هذا ما يبدو جليّا في الشؤون العسكرية والبحرية، إذ يمكن القول إنّ القيادة والطاعة مقتسمتان بين الجميع في هذين الميدانين.

ولئن كان حكم الأقلية هو نظام القرطاجنيين فإنّهم يجتنبون مخاطرة بأحسن الطرق إذ يمكّنون المواطنين من الإثراء فيرسلون بجانب من الشعب إلى المدن الخاضعة، على مقتضى نظام دوريّ، وبهذا العلاج يضمنون الإستقرار لدستورهم. لكنّه علاج رهين للصّدف، في حين يجب على المشرّع أن يجعل الخلافات مستحيلة. وفي الواقع، لو حلّت بعض النكبات وثار جمهور الشعب على أولي الأمر لما وفّرت القوانين أيّ علاج لإعادة الهدوء إلى نصابه.

هذه إذن خصائص دساتير اللاسيديمونيين والإقريتيين والقرطاجنيين وهي دساتير مشهورة عن جدارة.

رأينا من المفيد أن نورد هذا النصّ الطويل لأرسطو اعتمادا على الترجمة الفرنسية لجان أوبوني (Jean Aubonnet) لأنّها تتضمّن تحليلا كاملا للدستور القرطاجني وأهمّ مقوّماته التشريعية والتنفيذية والقضائية. ولئن لم يتّضح في هذا النص مفهوم انفصال السلط، فإننا نلاحظ وجود هيئات مختصة مثل مجلس المائة وأربعة الذي يبدو أنّ وظيفته كانت ترتكز أساسا على النظر في المسائل المتعلّقة بالقانون العمومي أي ما كان له صلة بالقطاعات التي تتورّط فيها الدولة وخاصّة حالات الضرر أو الأذى.

استهلّ الفيلسوف اليوناني الكبير -أصيل ستاجيرا (Stagire) - كلامه منوّها بالدستور القرطاجني فقال: «عرف عن القرطاجنيين أنّ نظام الحكم عندهم جيّد، إذ يمتاز دستورهم على غيره من الدساتير، لعدّة اعتبارات. لقد كان دستورهم قبل كلّ شيء شبيها بدستور اللاكونيّين... وكانت عدّة مؤسسات في قرطاج تسير كما ينبغي.» ولقد أبدى مؤرّخون وجغرافيّون آخرون في العصور اليونانية القديمة تقديرهم لأساليب الحكم عند القرطاجنيّين. فبادر إيزوكرات (Isocrat) إلى مقارنتهم بمن كانوا من اليونانيين يتمتّعون بأفضل الحكومات. كما امتدح إيراتستان (Eratosthène) - أحد علماء مدرسة الإسكندرية، المولود بسيران (Cyrène) في بداية القرن الثالث ق. م. - المؤسسات السياسية بقرطاج ووصفها بكونها «جديرة بالإعتبار»، وهي شهادة أوردها سترابون (Strabon).

وفي القرن الثاني ق. م. تحدث بوليب (Polybe) عن قرطاج التي كان حسن الإطّلاع على أحوالها وسياستها ومؤسساتها، فكتب في هذا الصدد: «إنّ أغلب المؤلفين يروون لنا ما اشتهرت به هذه النظم من قيمة وقدر، نظم لاسيدمونة وإقرتش ومانتيني (Mantinée)، وكذلك قرطاج. وكتب في موضع آخر: وفي خصوص نظام قرطاج في البداية، يبدو لي أنّه كان محكما جيّد الإحكام في أهمّ خصائصه المميّزة. فقد كان هناك ملوك وسلطة أرستقراطيّة

كان يمارسها مجلس الشيوخ كما كانت للشعب صلاحيات يمارس فيها سيادته. وفي الجملة فقد كان ائتلاف مجموع هذه السلط شبيها بائتلافها عند رومة ولاسيدمونة. ولكن عندما خاضت قرطاج حرب حنّبعل كان نظامها قد انحطّ. وفي فترة لاحقة وبعد مضيّ عهد طويل على تدمير قرطاج ذكر شيشرون (Cicéron) دستور حاضرة العالم البونيقي فنوّه به أيّما تنويه.

ويبدو إذن من المؤكّد أنّ الفكر اليوناني اللاتيني اعتبر قرطاج في عداد الحواضر التي كانت لها «طبقة من الساسة» خوّلت للمواطن أن يكون موجودا وأن يتمتّع «بالحضور» والمشاركة. كما خوّلت له التصرّف في الشؤون العمومية والخاصّة - مهما كانت طبيعتها- بمقتضى قوانين وفي صلب هياكل تابعة للمجموعة، من حيث تركيزها وتطبيقها وتطوّرها. ففي هذه المدينة، انبنى مفهوم الفرد على مفهوم للحرّية أتاح له العمل وكذلك الطاعة أو بالأحرى الإمتثال لسياسة الدولة واحترام ما كان شريكا في وضعه -إن صحّ التعبير- أعني القوانين والنظم والقرارات. وبالنسبة إلى اليونانيين واللاتينيين القدامى كانت قرطاج تتسم بهذا الطابع الحضري. ولنذكّر في هذا السياق بأنّ الفينيقيّين أدركوا -على ما يبدو- منذ فجر العهد الحديدي ذلك المفهوم للفرد القادر على العيش خارج كلّ هيكل قبليّ أو أبويّ وعلى تكوين شخصيّته بعيدا عن أهله، دون أن يقطع صلته بوطن أجداده. وفي هذا الميدان كما في غيره من الميادين، كان الفينيقيون أنموذجا لليونانيين الذين عاشوا طويلا مكبّلين بقيود القبيلة أو العشيرة أو الأسرة، لا يستطيعون تصوّر الحياة خارج هذه القيود. وأخيرا جاء كادموس (Cadmos)، أي كلّ القادمين من فينيقيا (Phénicie) إلى أعماق اليونان وإلى الجزر النائية ليقدّموا لليوناني الخاضع أحسن مثال للإستقلال والحرّية والمساهمة. وهو لقاء اتّضح أنّه كان مثمرا.

اكتشاف حنّون (Hanon) لعالم جديد

محمّد حسين فنطر

يبدو أن القرطاجنيين، بحكم ولعهم بالأسفار وتقاليدهم فيها، كانوا معجبين برواية الرحلات. ولا شكّ أنّه وجدت كتابات تناولت الحديث عن الصحراء وأنّ رحّالين شجعانا تجرّؤوا على شقّ الصحراء رغم مخاطرها، مثل الحرارة والعطش والعواصف الرّملية والزّواحف وغير ذلك من المخاطر. ولقد روى أثيني (Athénée)، أحد علماء النحو والبلاغة اليونانيين في القرن الثالث ميلادي قصّة ماجون (Magon) القرطاجي الذي زعم أنّه شقّ الصحراء ثلاث مرّات دون أن يشرب أيّ شراب، مقتصرا على تناول طعام جافّ. ورغم بعض الجزئيات التي تدعو إلى الإرتياب، فإنّ هذا الخبر المأثور عن أثيني يبدو مستندا إلى روايات بونية الأصل، إذ كوّنت الصحراء وما وراء الصحراء جانبا من شواغل القرطاجيين. ولئن لم يتسنّ للأدب البوني أن يغفل هذه الشواغل فما بالك بالبحر وكلّ ما يتعلّق به، مع العلم أنّ حنّون وهيملك (Himilk) قد قام كلّ منهما برحلته في القرن الخامس ق.م.

أمّا رحلة هيملك فلم يبق عنها إلاّ القليل. لكنّ بلينوس الأكبر (Pline l'Ancien) أكّد على وجود روايته لهذه الرحلة في اتّجاه الشمال نحو بلاد الكرنواي (Cornouailles)، بلاد القصدير فقال: «لمّا كانت قرطاج في أوج قوّتها قام حنّون بجولته من قادش (Gadès) إلى جزيرة العرب ونشر رواية رحلته مثلما فعل هيملك الذي أوفد في نفس الوقت لاستكشاف المناطق الخارجيّة لأروبا».

وكان الغرض من هذه الرحلة الوصول إلى سوق القصدير الذي كانت بلاد الكرنواي مصدره. وكان المزوّدون يسبكونه سبائك ويحملونه في مراكب من الصفصاف مغلّفة بالجلد إلى جزر الاورسترمنيد (Oestrymnides) حيث يأتي تجّار أجانب، وفي قضيّة الحال فينيقيّون، لشرائه.

وفي القرن الرابع ميلادي استلهم فستوس أفيانوس (Festus Avienus) على ما يبدو، رحلة هيملك لينظم «منظومته البحرية» (Ora maritima). ولقد تمكّن هيملك -حسب هذا النحوي والناظم الروماني-من بلوغ جزر الأستريمنيد بعد أن استغرقت رحلته البحريّة أربعة أشهر وبعد أن واجه عدّة عقبات: بحر ساكن يحبس السفن، وطحالب عملاقة تعرقل مثل خيوط العنكبوت ومساحات شاسعة لا تكاد المياه تغمر رمالها وضباب كثيف يحجب السماء والبحر وحيوانات ضخمة ضارية تهيم على وجهها باحثة عن فريسة تفترسها. وزعم فستوس أفيانوس أنّه استقى كلّ هذه التفاصيل من الحوليات البونية القديمة. ومهما تفاوتت ثقتنا به، ومهما اعترانا من شكّ في مزاعمه وما قد نرميه به من مبالغة، فلا مانع من اعتبار رحلته حدثا تاريخيّا ثابتا. ومن المفروض أن هيملك سلّم إلى السلط في نهاية جولته الإستكشافيّة تقريرا مفصّلا ودقيقا جدّا، بحيث تصلح المعلومات التي أوردها فيه لإنجاز مشاريع أخرى على أسس متينة. وعلى كلّ لا يستبعد أن تكون هذه الرحلة قد قدّمت في قالب قصصيّ وأن تكون ابتكارات الخيال والأحداث الجذّابة والخارقة للعادة قد احتلّت فيها مكانا أوسع. فهي إذن رواية معدّة لجمهور عريض من الناس دون اعتبار للحدود، وهي تتغنّى بعظمة قرطاج وبطولات شعبها. ويبدو أن الكاتب أراد أن يفتن قرّاءه وأن يروّعهم فقدّم بذلك أدبا حقيقيّا.

أمّا بخصوص رحلة حنّون، فالأحداث فيها أوضح نسبيّا والقارىء يرتاح إليها أكثر، إذ أشار إليها العديد من المؤلّفين اليونانيّين واللاتينيّين. ولقد علّق حنّون روايته البطوليّة في معبد بعل (Baal) حيث كان للقرطاجنيين أنفسهم ولجميع الزائرين أن يطّلعوا عليها. وكان الناس في قرطاج يتلهّفون على كلّ ما يجدّ، وكان البونيون يعتنون بنشر ما يخصّهم من أخبار، فلم يجد حنّون طريقة أفضل من تعليق إعلان.

ومن هذه الرواية الجميلة بقيت لنا ترجمة يونانية مازال تاريخها محلّ أخذ وردّ. فقد اقترح ستيفان قزال (Stephane Gsell) تحديده فيما بين القرنين الرابع والثالث ق.م. وفي المدّة الأخيرة، فضّل جهان ديزانج (Jehan Desanges) تحديده في حوالي سنة 200 ق.م. استنادا إلى معايير تتعلّق باللغة والأغراض. والمخطوط الموجود حاليا هو نسخة ترجع إلى القرن التاسع الميلادي، كانت قد اكتشفت بهيد لبرق (Heidelberg). وفيما يلي ترجمة قام بها جهان ديزانج تبتعد في بعض النقط المهمّة نسبيا عن الترجمة التي نشرها ستيفان قزال: «جولة حنّون، ملك القرطاجنيين في عرض البحر، على امتداد أراضي ليبيا الواقعة شماليّ أعمدة هركلس (Héraklès). ولقد علّق حنّون بمعبد كرونوس (Kronos) رواية جولته هذه التي تتضمّن ما يلي:

1) رأى القرطاجنيون من الأفضل أن يقوم حنّون بجولته البحرية بعيدا عن أعمدة هركلس وأن يؤسّس مدنا يكون أهلها لوبيّين وفينيقيّين. فركب البحر ومعه 60 قاربا بخمسين مجذافا وجمع غفير من الرجال والنساء عددهم حوالي 3000 نسمة ومؤن كثيرة وكلّ التجهيزات اللازمة.

2) بقينا على ظهر السفينة عندما بلغنا الأعمدة وتجاوزناها بعد يومين من السفر ثم أسّسنا مدينة أولى سمّيناها ثيمياتيريون (Thymiatérion) وكان تحتها سهل شاسع.

3) ثم عند الغروب، تقدّمنا في البحر فأدركنا سولويس (Soloeis) وهو شناخ في ليبيا تكسوه الأشجار.

4) أقمنا في هذا المكان مقدسا لبوسيّدون (Poseidon) وعكسنا وجهتنا فسرنا في اتجاه الشمس مدّة نصف يوم حتّى بلغنا بحيرة غير بعيدة عن شاطىء البحر، يكسوها قصب غزير ومرتفع. وكانت هناك فيلة وحيوانات أخرى ترعى بعدد وفير.

5) بعد أن تجاوزنا هذه البحيرة سائرين يوما كاملا، أسّسنا على البحر مستعمرات هي حائط كارين (Le Mur Carin) وقوتة (Gutte) وأكرا (Akra) وملّيته (Melitta) وأرمبوس (Arambus).

6) ثم غادرنا المكان وبلغنا النهر الكبير ليكسوس (Liksos) الجاري بليبيا، والذي كان قوم من البدو هم الليكسيون (Lixites) يرعون مواشيهم على ضفافه. وبقينا مدّة مع هؤلاء الناس الذين أصبحوا أصدقاء لنا.

7) وفوق هؤلاء، كان يقيم الأثيوبيّون الجفاة الذين كانوا يحتلّون أرضا مليئة بالحيوانات المتوحشة، تخترقها جبال عظيمة ينبع منها نهر الليكسوس، على ما قيل لنا. كما قيل لنا إنّ أناسا يسكنون حول هذه الجبال مظهرهم مغاير تماما وهم أهل الكهوف (Troglodytes). وذكر لنا الليكسيون عنهم أنهم أسرع من الخيل في عدوهم.

8) واستصحبنا جماعة من المترجمين من بين الليكسيّين وحاذينا الصحراء في اتجاه الجنوب مدّة يومين ثمّ في اتجاه مشرق الشمس من جديد، فكانت مسيرة يوم واحد. إذ ذاك وقعنا في عمق أحد الخلجان على جزيرة صغيرة دائرتها خمس غلوات، فتركنا فيها بعض المعمّرين بعد أن سميّناها كرني (Kerné). وقدّرنا حسب ملاحتنا الساحلية أنها تقع عموديّ قرطاج، لأنه كان لابدّ أن نتقدّم في البحر بنفس الطريقة للذهاب من قرطاج إلى الأعمدة ومنها إلى كرني.

9) من هذا المكان، مررنا مع سفننا بنهر كبير يدعى كراتاس (Chrétès) فوصلنا إلى بحيرة كانت بها ثلاث جزر أكبر من كرني. وانطلاقا من هذه الجزر وبعد ملاحة دامت يوما كاملا بلغنا قعر البحيرة التي كانت تشرف عليها سلسلة من الجبال العظيمة جدّا، مليئة بأناس متوحشين يلبسون جلود الحيوانات. فهجموا علينا بوابل من الحجارة ومنعونا من النزول.

10) ومن هناك، دخلنا في نهر آخر على متن سفننا، وكان كبيرا، واسعا، مليئا بالتماسيح وجواميس البحر. ثمّ عدنا أدراجنا ورجعنا إلى كرني.

11) ومنها اتجهنا نحو الجنوب طيلة اثني عشر يوما، محاذين السواحل التي يحتلّها بأكملها أثيوبيّون كانوا يفرّون منّا ولا ينتظروننا. وكانوا يتكلّمون لغة غريبة لم يفهمها حتّى اللكسيّون الذين كانوا معنا.

12) ثمّ اقتربنا في اليوم الأخير من جبال شاهقة مكسوّة بأشجار كان خشبها شذيّ الرائحة، مختلف الألوان.

13) وعلى متن سفننا طفنا يومين حول هذه الجبال إلى أن وصلنا إلى مناطق فارغة لا حدّ لفراغها. وكان قبالتنا سهل من جهة الأرض، فكانت أنظارنا تقع طيلة الليل ومن جميع الجهات، على نار كانت تتلألأ من وقت لآخر، تارة قوية وتارة ضعيفة.

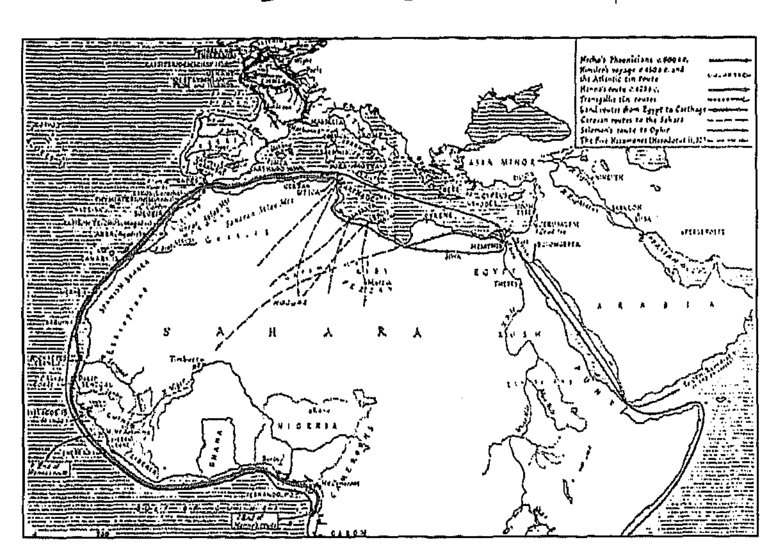
14) وبعد أن تزوّدنا ماء، تقدمنا في البحر محاذين الأرض خمسة أيّام إلى أن وصلنا إلى خليج كبير، ذكر لنا المترجمون أنّه يسمّى قرن الغرب. وكانت بوسط هذا الخليج جزيرة كبيرة كانت فيها بحيرة تحتوي على جزيرة أخرى. فنزلنا بها ولم تقع أنظارنا كامل النهار إلاّ على الغابة. أمّا في الليل، فقد رأينا عدّة نيران موقدة، وسمعنا أنغام مزامير وجلبة صنوج وطبلات وآلاف الأصوات تصيح. فتملّكنا الخوف وحرّضنا الكهّان على مغادرة تلك الجزيرة.

15) وسرعان ما هيّأنا القلوع نحاذي أرضا تضطرم بدخان شذيّ الرائحة وتتفجّر منها جداول كبيرة حامية تنصبّ مياهها في البحر. ولم نستطع النزول بهذه الأرض لشدّة الحرارة.

16) وابتعدنا على عجل من هذا المكان أيضا، بوطأة الخوف. وطيلة أربعة أيام من الملاحة، رأينا تلك الأرض في الليل مغشّاة باللّهب، وفي وسطها نارلا يمكن لأحد بلوغها، وكانت أكبر مما حولها من نيران، فخيّل إلينا أنّها تلامس النجوم. أمّا في النهار، فقد بدت لنا جبلا عظيما جدّا. وكان يسمّى سناد الآلهة.

17) وانطلاقا من هذا المكان بقينا طيلة ثلاثة أيّام نحاذي الجداول الحامية حتّى بلغنا الخليج المسمّى قرن الجنوب.

18) وفي عمق ذلك الخليج كانت توجد جزيرة شبيهة بالجزيرة السابقة، تحتوي على بحيرة وفي وسطها جزيرة أخرى ملأى بأناس متوحّشين. وكان عدد النساء فيهم أكثر وأجسادهن شعراء، وكان المترجمون يسمّينهن الغورلّي. وعند ملاحقتهم لم نتمكّن من القبض على الذكور، إذ أفلتوا منّا جميعا، لأنهم كانوا يصعدون إلى أماكن وعرة ويدافعون في نفس الوقت عن أنفسهم (بالحجارة ؟). أمّا النساء فقد قبضنا على ثلاثة منهنّ فأخذن يعضهن ويخبشن من يجرهنّ، وكنّ يمتنعن عن اتّباعهم. لذلك قتلناهنّ وسلخناهنّ وعدنا بجلودهنّ إلى قرطاج، لأننا لم نتقدم أكثر من ذلك في رحلتنا البحرية، بسبب نفاذ مؤونتنا. »



خارطة تبيّن الطريق البحرية التي سلكها حنّون في رحلته

ولئن كان لنا أن نناقش مدى صحّة هذه الرواية البديعة من الوجهة التاريخية وأن ننفي عن مؤلّفها كلّ مصداقية، فلا يمكن أن ننكر قيمتها الأدبية. وهي رواية لمغامرات بطولية في أقطار غريبة كلّ الغرابة، ويتجلّى فيها حنّون -رغم فروق لا شكّ فيها- مثل أولائك الأبطال في الأساطير الشرقية الذين يسعون إلى غزو العالم والفوز بشجرة الحياة. ويبدو أن فنّ الرحلة ورواية الأسفار النائية إلى أصقاع مجهولة تقع في آخر الدنيا كان يحظى، في الآداب السّاميّة، بإعجاب القرّاء وتقديرهم.

قـــرطاج والبحر

عبد المجيد النابلي

قرطاج ! من لا يعرفها ؟

إنّ تاريخها مسجّل في كتب التاريخ القديم لجميع البلدان. وقصتها هي قصّة أميرة فرّت من شرقها المتحضّر وقامت برحلة طويلة عبر البحر الأبيض المتوسط ثمّ أسست في شبه جزيرة مقفرة، شمالـيّ قارّة مازالت مجهولة، مدينة جديدة هي كرطادشت.

ولم يكتب لهذا التأسيس الخرافي البقاء إلاّ لأنّ هذه المدينة كان لها مستقبل حافل بالأمجاد والمآسي في ذات الوقت. فقد كبرت ونمت وسيطرت على جزء من العالم المعروف حول البحر الأبيض المتوسّط، ثم حاربت مدينة أخرى ونشأت وكبرت على ضفّة البحر الأخرى، في شبه الجزيرة الإيطاليّة.

ولقد مرت المجابهة بينهما بثلاث مراحل وكانت المعارك طويلة دامية أضرمت النّار في كامل البحر الأبيض المتوسط وآلت إلى تدخّل القوات في العالم القديم وتقابل فيها وجها لوجه شعبان مختلفان أشدّ الإختلاف بقوّادهما وجيوشهما وأساطيلهما وطباعهما، فكانت مصارعة رهيبة بين الفيل والحوت.

كان حنّبعل القائد الأعظم في الحرب الثانية وكذا كان شيبيون (Scipion) في الحرب الأخيرة التي انتهت بسقوط قرطاج وانتصار رومة التي سيطرت عند ذلك على العالم.

وتاريخ قرطاج هذه هو فصل من تاريخ حافل بالمآسي وبالأمجاد أيضا لمدينة استطاعت أن تسجّل اسمها بالدخول في الأسطورة. وبفضل شعبها ومسيّريها تسنّى لها أن تشيد دولة قويّة ومزدهرة أقامتها بعد جهاد مرير ضدّ العناصر والخصوم وحافظت عليها بجهد متجدّد لم ينقطع. هذا التاريخ الذي تتجلّى فيه الشجاعة والبسالة والثبات هو الذي يتعلّمه جميع تلاميذ المدارس وينتقش في ذاكرة جميع الناس.

وبصرف النظر عن الاسم والشهرة، ماذا بقي فعلا من قرطاج على الميدان، أي في الموقع ذاته؟ لم يبق في الواقع إلاّ القليل لأنّ قرطاج البونية جاثمة في أعماق سحيقة، تغطّيها آثار كلّ الإحتلالات اللاحقة. ولقد اضطلع علم الآثار في أواخر القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين بدور التنقيب عنها واكتشاف بعض العيّنات منها، كانت متوارية فنجت من تدمير الإنسان وعاديات الزمان. وماهي إلاّ جوانب قليلة ومتواضعة إذا قورنت بما كان لها في الماضي من شهرة، وتتمثّل في بعض القبور مع ساكنيها، وبعض الأثاث المأتمي، وبعض الآثار لمساكن مدفونة، وبقايا أحواض مرفئيّة ومرمدات مقدس وأنصابه.

ولكن ها قد انقرض إلى الأبد الشعب الذي كان يبعث الحياة في هذه الأماكن بتجّارها وصنّاعها وبحارتها وكهّانها وقوّادها وأعضاء مجلس شيوخها وكذلك أساطيلها وجيوشها وبناءاتها وآلهتها. ومع ذلك فإنّ هذه الوثائق القليلة المحسوسة التي نجت من التدمير الشامل قد كشفتها الحفريّات وحلّلها العلم وأوّلها التاريخ فسمحت بتسليط بعض الأضواء على ماضي هذا الشعب العظيم !

ويساعد موقع قرطاج على تحرير الخيال وكذلك الخصائص الجغرافيّة للجهة ورحابة آفاق الخليج الذي كان في وقت ما مسرحا للملحمة. ومازالت السفن تمخر دائما عباب البحر وينزل منها ركّابها محمّلين بالسلع فوق الأرض المضيافة لا بقرطاج وشاطئها، بل بميناء حلق الوادي المقام على مضيق تربطه قناة بمدينة تونس.

ولئن كانت رومة هي التي حطّمت قرطاج فهي التي أعادت بناءها. ولقد تصوّر مؤسسها الجديد أوغسطس (Auguste) مدينة كبرى منظمة على مقتضى مخطط تعتدل فيه جميع المباني واتخذ لها أخلافه الانطونان (Antonins) حلية معمارية بديعة، فأصبحت تنعت بالشرقة (Splendissima) وأتيح لها أن تلعب دورا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا داخل الإمبراطورية الشاسعة التي كان يسودها الأمن الروماني (Pax romana). وستظلّ عاصمة أفريكا التي تعتبر من أكثر مقاطعات الإمبراطورية ازدهارا، كما ستظلّ خاضعة لرومة - صاحبة السلطة بلا منازع- التي تجمع لها ثروات بلاد غنية وخصبة وتتاجر معها بالخصوص ومع سائر بلدان البحر الأبيض المتوسّط. وسترسل قموح أراضيها في قوافل مثقّلة إلى أوستيا (Ostie) وهو ما اشتهر باسم المحصول الحولي المعدّ لإطعام العامّة، عامّة الشعب المنتصر!

وحتّى لو بدت الآثار العمرانيّة لقرطاج في طورها الثاني أكثر أبّهة وجلالا فإنّ تاريخها في السّجل الأكبر، سجلّ تاريخ العالم، لن يكون فصلا مجيدا بل فقرة بسيطة تتحدّث عن مدينة كبيرة وجميلة ولكنّها تحتلّ دائما المرتبة الثانية بعد رومة.

أمّا قرطاج الأولى، فقد خلّفت لسكّانها -بعد تدميرها الشامل- جملة من المكاسب المبثوثة والنافذة. فهم مدينون لها بدخولهم في التاريخ ولمّ شتات شعبهم الذي كوّن ملكا، وبإدماج اقتصادهم في حركة الإقتصاد المتوسطيّة. وبعد زوالها بقي تأثيرها متواصلا في مستوى اللغة والمؤسسات والعقائد والعادات. ولقد كان لها فضل المساهمة في تكوينهم وتغييرهم دون الإلتجاء إلى إخضاعهم أو السيطرة عليهم. وظلّت العقليات لمدّة طويلة، تحت النفوذ الروماني، مطبوعة بتأثير قرطاج الذي لم ينقرض تماما.

ولا شكّ أنّ تفوّق قرطاج في البحار سمح بتفتّح إفريقيا على البحر الأبيض المتوسط وعلى العالم الخارجي وتيّارات الشرق والغرب وجعلها بفضل هذا التفتّح تحتلّ مكانها في العالم.

أمّا قرطاج الثانية، فقد خلّفت معالم رائعة العظمة من حجارة ورخام، قائمة على مآثر تقنية أو معماريّة تصدّت للطبيعة وحاربت عناصرها، فهي مدن كاملة بمعالمها وطرقاتها وقنواتها وموانئها وخزّاناتها ومدرّجاتها ومسارحها وحمّاماتها ومعابدها وكنائسها وأضرحتها. وما كانت هذه المظاهر التقنية والمآثر المعمارية إلاّ نتيجة للرخاء المتأتي من تحسين الإنتاج الفلاحي للأراضي.

وبعد الإضطهاد الذي لحقها، أصبحت قرطاج مسيحيّة وتحوّلت مبانيها إلى استعمالات جديدة، ثم خضعت لسيطرة الوندال طيلة قرن كامل. ولئن استعادت بيزنطا غزوها فإنّها لم تستطع أن تبثّ فيها نفسا جديدا. ثم فتحها حسّان بن النعمان وتركها لشأنها البائس، إذ هرب جانب من سكّانها وضعفت بعد حيويّتها.

ولمّا استقر المسلمون بإفريقية لم تكن لهم حاجة إلى مدينة يستخدمها البيزنطيون فجعلوها غير مجدية -وهي التي أنهكها الدهر وضعضعها- وأسّسوا عاصمتهم الجديدة تونس. لكنّ قرطاج كان لها في الواقع بعض الجدوى إذ استخدمت مقلعا تقتلع منها الحجارة على مرّ القرون. لكنّ آثارها مازالت دائما تستهوي القادمين إليها وتثير إعجابهم.

قال البكري : «من دخل إلى قرطاج في كلّ أيّام حياته ولم يشتغل فيها إلاّ بالنظر، وجد كلّ يوم جديدا يروقه، لم يكن لاحظه من قبل».

وفي الفترة التي كان البكري يدلي فيها بهذه الشهادة أي في القرن الحادي عشر، «كانت آثار قرطاج مغطاة بقرى جميلة ظاهرة النعمة منتشرة العمران، تجتنى فيها ثمار جيّدة منقطعة النظير».

وتركت تلك الأراضي للزراعة إلى بداية القرن العشرين حيث بدأ العمران ينتشر انطلاقا من محطّات الخط الرابط بين تونس وحلق الوادي والمرسى. وكان لعلم الآثار في قرننا الحالي شرف الحدّ من غزو البناءات الجديدة بتنظيم حفريات أثرية أتاحت اكتشاف تاريخ المدينة من جديد. ولقد تجسّمت صيانة الموقع هذه بإنشاء المنتزه القومي بقرطاج.

وهكذا كتب للعيّنات الأثرية الأخيرة لتلك المدينة العظيمة أن تسلم من أيّ تدمير جديد.

كما كتب لها أن تتجلّى لكلّ تلك القوافل من حجّاج العصر الحديث الذين يقصدون البلاد التونسيّة للبحث عن ذكريات ما حفظوا من دروس في المدارس أو لاكتشافها مجدّدا.

الملاحة والسفن بتونس في القديم

عبد الحميد البركاوي

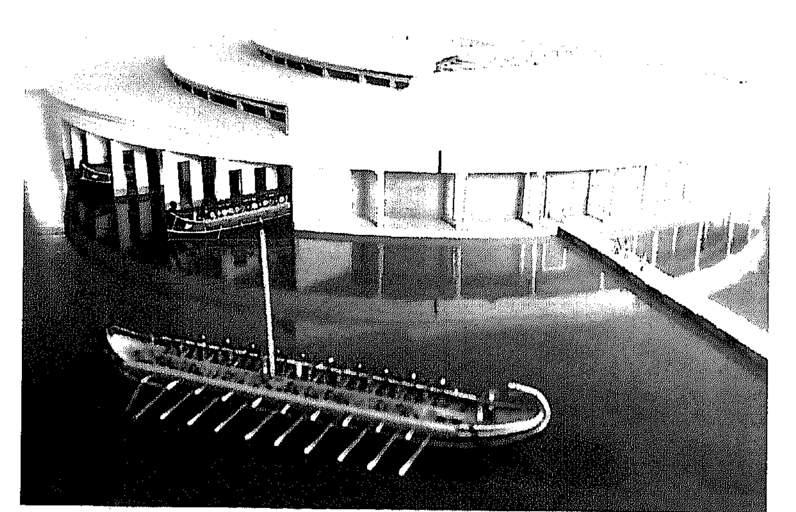
تمتاز السواحل التونسية الممتدة على قرابة 1200 كلم بكونها رملية في أغلبها وهادئة بالمقارنة مع بقية سواحل شمال إفريقيا التي يغلب عليها الطابع الصخري والمنفتحة على الرياح الشمالية والشمالية الغربية العاتية والتي تمثل عائقا في سبيل الملاحة من ابحار وإرساء، خاصة وإذا علمنا أن الملاحة في القديم كانت تمثل مهمة صعبة وهي مراهنة، والقاعدة البحرية تشترط عدم الإبتعاد كثيرا عن السواحل كي يتمكن الملاحون من جر سفنهم على اليابسة أو الإرساء ليلا كلما دعت الحاجة، وعليه فالبلاد التونسية توفر، منذ القديم، القاعدة البرية الملائمة للإرساء والملاحة أكثر من غيرها في شمال إفريقيا، فلا نستغرب اليوم عندما نرى أن السواحل الشمالية والشرقية التونسية تضم أكثر المواقع الفينيقية في الحوض الغربي وهو ما يعني أنها قد أجمع من حولها الملاحون الفينيقيون وهم المختصون أكثر من غيرهم في فنون الملاحة.

ولعل موقعها الجغرافي المشرف على حوضي البحر الأبيض المتوسط زاد في الإجماع من حولها وهي المحطة الوسطى بين بلاد طرشيش (1) الغنية بالمعادن والواقعة في أقصى غرب حوض البحر الأبيض المتوسط، وسواحل فينيقيا الممولة لأسواق الإمبراطوريات الكبرى في شرقي المتوسط مثل مصر وبلاد اليونان وبلاد آشور.. يقول بوليبيوس (2) «أن القرطاجيين استطاعوا أن يبنوا امبراطورية بحرية كبرى في المتوسط الغربي بفضل ما ورثوه عن أجدادهم الفينيقيين من تحكم في فنون الملاحة. كيف لا، وهؤلاء الأجداد هم الذين أدخلوا ثورة في

بناء السفن باختراعهم للسفينة ذات العمود الفقري والأضلع، وهم الذين استنبطوا الطلاء الواقي من تسرب الماء إلى قاع السفينة وهما اختراعان أهّلا الملاحين إلى التعمق في البحار والترفيع في الحمولة ونقلها إلى مسافات طويلة». ولقد وصف هومروس (3) السفن الفينيقية بـ «السفن السوداء» وهي السفن الكبرى التي كانت تعبر مياه المتوسط محملة ببضائع متعددة ومتنوعة رابطة ضفتيه الشرقية والغربية.

إن الملاحة بالبلاد التونسية قديمة بقدم متساكنيها ويمكن لنا أن نعاين هذا النشاط الهام عبر عدة مظاهر. نذكر منها بالخصوص ما يمكن أن نقف عليه اليوم من رسوم ونقوش على جدران القبور والغيران وغرف القصور، وهي رسوم السفن التي هي القاعدة الرئيسية للملاحة. ومما يشد الإنتباه هو أن هذه الرسوم والنقوش تتواجد بالمرتفعات الداخلية التونسية سواء بالشمال الغربي : كاف البليدة (4) أو منطقة دمر (مطماطة، سقدل والقصر القديم) (5) وهي رسوم تمثل سفنا حربية وتجارية تعكس في الآن نفسه علاقة سكان تونس الأعماق بالبحر وتغلغل هذا النشاط في الحياة اليومية لهؤلاء المتساكنين. ولعل تطور وازدهار هذا النشاط البحري على السواحل في الفترة البونية وما بعدها يؤكد هذا التوجه لدى الشعب التونسي.

إن من مظاهر تحكم تونس القديمة في فنون بناء السفن ما تنقله لنا النصوص الأدبية (6) حول صدى هذه الصناعة في الحوض الغربي للمتوسط مثل نقل الرومان فن صناعة السفن الحربية عن القرطاجيين. ولعل مظاهر تطور صناعة السفن في تونس البونية ما نلحظه من تعدد الموانئ والمرافئ على طول السواحل الشمالية والشرقية والتي نذكر من بينها بنزرت وقليبية وحضرموت وجربة وخاصة تونس وقرطاج، كيف لا وهذه الأخيرة كانت تحتوي على ميناء حربي وتجاري من اكبر الموانئ المتوسطية وقد كان مجهزا تجهيزا متطورا من أحواض لإصلاح السفن وورشات لبنائها ومخازن للسلع والبضائع والمواد الأولية ومركز إداري وبحري أين يقيم أميرال البحر!


مثال للموانيء البونية بقرطاج

وتلتقي النصوص الأدبية والمصادر الأثرية لتبرز أهمية هذا الميناء ودور ورشاته المتطورة في عملية محاولة فك الحصار الذي ضربته القوى الرومانية على مدينة قرطاج في آخر عهدها وبقيادة سبيون ايمليان، ذلك أن ابينوس (7) يذكر أن القرطاجيين تمكنوا من تصنيع وتعويم قرابة الخمسين سفينة وهم في حالة حصار تام ! وهذه العملية توحي بمدى تحكم البونيين في فنون صناعة السفن والذي جاءت الحفريات لتؤكده سواء من خلال السفينتين





على اليسار: قمقم مركب حربي بوني القرن الثالث، القرن الثاني قبل الميلاد
على اليمين: سفينة تجارية بونية القرن الثالث، القرن الثاني قبل الميلاد

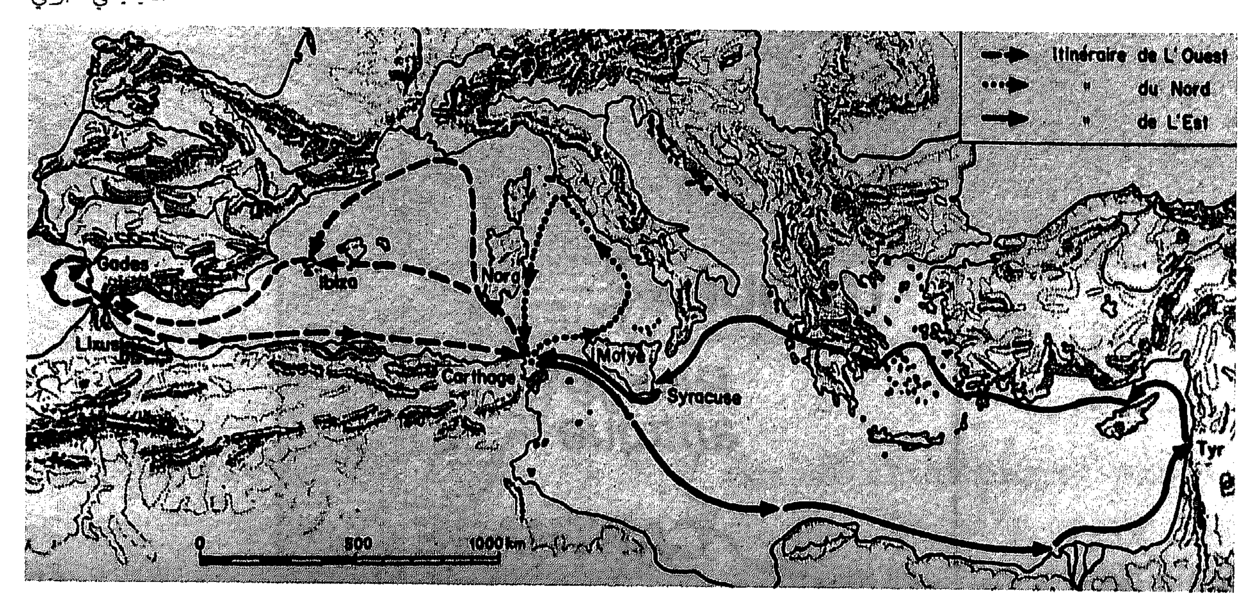
الحربيتين البونيتين اللتين وقع العثور عليهما بعرض سواحل ليليبايوم بصقلية (8) وأيضا تعدد رسوم السفن الحربية والتجارية أو أجزاء منها والتي يمكن معاينتها على الانصاب النذرية والجنائزية وكذلك على النقود (9).

ان التعرض إلى صناعة السفن من شأنه أن يبين أهمية الملاحة بتونس في الفترة البونية وما بعدها خاصة وإذا علمنا أن قاعدة الامبراطورية البحرية القرطاجية وانتشار إشعاعها التجاري بحوض البحر الأبيض المتوسط، وخاصة في جزئه الغربي، تبقى السفينة التي تمثل الآلة الرئيسية في بناء هذه الحضارة وكذلك في إدراكنا محتوى هذه الحضارة !

لقد مكنت سيطرة فن صناعة السفن، القرطاجيين من الإنتشار عبر سواحل البحر الأبيض المتوسط سواء بالربط مع فينيقيا وصور عبر الرحلات السنوية التي تحمل فيها السفن القرطاجية الهدايا والاموال إلى صور والتي تواصلت إلى سقوط مدينة صور في نهاية القرن الرابع، أو مراقبة الطرق التجارية المؤدية إلى معادن إسبانيا عبر خلق محطات ودفاعات

انطلاقا من صقلية الغربية وسردينيا وجزر البليار أو أيضا عبر المرافئ المنتشرة على طول السواحل الشمالية للقارة الإفريقية، وهي محطات متقاربة تمكن السفن من العودة إليها في حالة مخاطر تعترضها. ومعرفة القرطاجيين بفنون الملاحة تستعرضه لنا النصوص الأدبية وخاصة التي تتحدث عن رحلة حنون إلى السواحل الغربية للقارة الإفريقية أو كذلك رحلة خملك إلى عرض السواحل البريطانية الجنوبية ! وهي رحلات أقل ما يقال عنها أنها تتطلب وقتا طويلا وإمكانيات ضخمة وخاصة معرفة جيدة للطرق البحرية ! ولعل الحادثة التي نقلها لنا بوليبيوس (10) في وصفه لبعض معارك الحرب الأولى بين قرطاج وروما ما يوحي بمهارة القرطاجيين في فنون الملاحة والتمثلة في تمكن القائد البوني من العبور إلى مدينة ليليبايوم المحاصرة، والتي يصعب الدخول إليها أيضا نظرا لنقص عمق المياه ! ولعل أيضا ما يضيف إلى معرفة البونيين بفنون الملاحة والتحكم في سفنهم ما نستقيه عند تقييمنا سواء للتكتيك الحربي الذي اعتمدته قرطاج في المعارك التي خاضتها أساطيلها البحرية والتي تعتمد أساسا على آلة السفينة وحركيتها، أو كذلك من خلال الخسائر التي أصابت أساطيل القوى التي التقتها في وقائع طيلة القرون الأخيرة أي نزاعاتها مع الأسطول الروماني الذي خسر العديد من سفنه نتيجة العوامل الطبيعية التي تمكنت السفن القرطاجية من تجاوزها.

خارطة المسالك البحرية العالم الفينيقي-البوني



إن الديناميكية البحرية التي شهدتها تونس في العصر البوني لم تتوقف بسقوط مدينة قرطاج رمز الملاحة ولكن تواصلت واستمرت، ولعل ترك فناني الفسيفساء الرومانية بتونس لمساحات بلوحاتهم لرسم أنواع مختلفة من السفن سواء منها الصغرى أو الكبرى، الحربية أو التجارية (11) من شأنه أن يجعلنا نتأكد من رسوخ فن الملاحة في هذه الربوع وانتشاره في الأوساط الإجتماعية المختلفة والتجارية منها والفلاحية والعسكرية !

بيبليوغرافيا

1 - Gsell, Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, II

2 - Polybe, Histoires, I, 20

3 - Homère, Odyssée, XV, 415 et 55

4 - M. Fantar, Escathologie phénicienne punique, Tunis 1970, 30

5 - A. Louis, Tunisie du Sud, ed. CNRS, Paris 1975

6 - Polybe, op. cit, 46

7 - Appien, Lib. 121

8 - A. Barkaoui, recherche sur le navire militaire punique, thèse de 3è cycle, Paris Sorbonne, Paris IV, 1989, p. 10

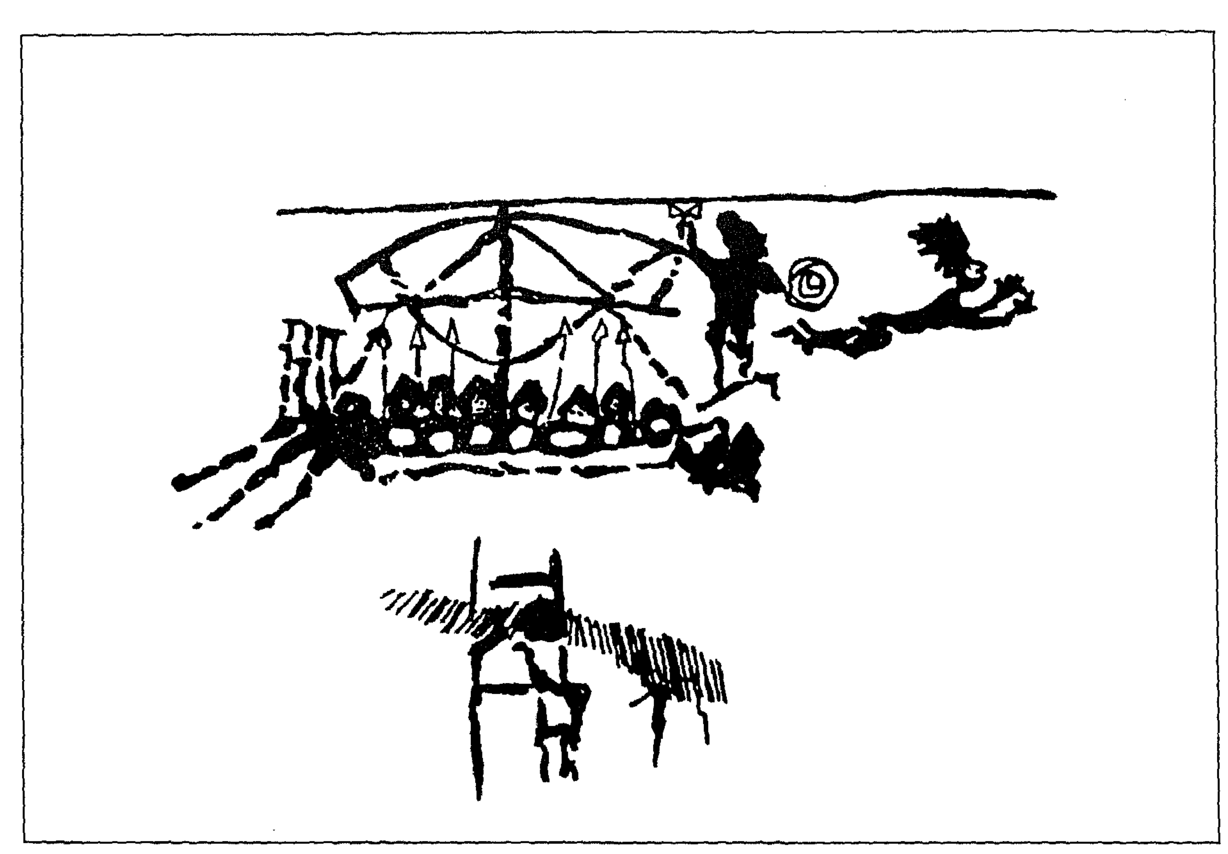
9 - Idem, p. 11

10 - Polybe, I, 47

11 - L. Foucher, Navires et barques figurés sur des mosaïques découvertes à Sousse et aux environs, Notes et Documents, XV, Tunis, 1957. Aussi on peut constater ces mosaïques où figurent des navires au Musée de Sfax.

سفينة تجارية
(كتاسكيبيكوس)
على فسيفساء
من التيبيروس





مركب حربي
رسم على جدار بكاف البليدة
(اعادة تشكيل)

الطرق التقليدية للصيد البحري الساحلي بخليج قابس

الناصر البقلوطي

يمتاز خليج قابس باتساع جرفه القاري الذي يمتد من رأس كبوديا جنوب مدينة الشابة مارا بالصخيرة إلى أن يصل إلى منطقة جرجيس. ويعلو هذا الجرف أرخبيل قرقنة شمالا وجزيرة جربة جنوبا، وتختص هذه المناطق باعتدال حرارة المياه بها وقوة ملوحتها وبقلة عمقها، حيث لا يتخطى الخمسة أمتار عند المد. وتنتج عن قصر البحر حركة قوية للمد والجزر يصل الفارق بينهما إلى حد المترين. كما أنها تشتمل على حقول كثيفة من الطحالب والنباتات البحرية المختلفة فتمثل حوضا طبيعيا تتوالد وتتربى به الأسماك وغيرها من الكائنات البحرية وهو ما يفسر تنوع هذه الاسماك ووفرتها. فخليج قابس يشكل منطقة بحرية تتصف بتوازن بيئي من الضروري المحافظة عليه من مخاطر الصناعات الملوثة التي تهدده.

وقد دأب الإنسان منذ قرون على الاستفادة من هذه الثروة الطبيعية مستغلا العوامل المناخية الملائمة ومستنبطا طرقا للصيد تتكيف مع معطيات الطبيعة. ومن يتأمل في عديد الفسيفساء الرومانية المعروضة بمتاحفنا يتيقن من اهمية صيد السمك بالسواحل التونسية. ويعتمد الصيادون للتنقل في المياه القصيرة على نوعين من المراكب الشراعية الصغيرة : «الفلوكة» وهو قارب ذو شراع مثلث الشكل يبلغ طوله سبعة أو ثمانية أمتار، ومقدمته مذببة بينما مؤخرته مطروحة ويستعمل لمختلف أنواع الصيد. وقد مثل «اللود» في ماض غير بعيد المركب الأكثر رواجا عند أهالي قرقنة وجربة. ويبلغ طوله من تسعة إلى اثنتي عشر مترا

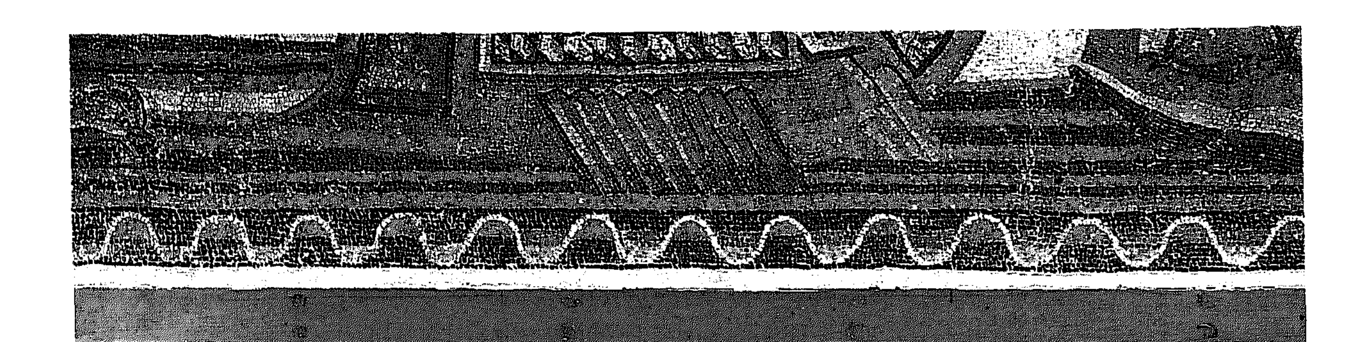
وله مقدمة ومؤخرة مذببتان ويمتاز بقاعه المطروح الذي يساعده على شق أقصر المياه وكذلك بجسره المتسع الذي يصل إلى اصل الصاري ويستغله الصيادون للقيام بأعمالهم بكثير من المرونة. واللود مجهز بصار مائل إلى الوراء، وبشراع مربع الشكل، وقد يردفه الصيادون بشراع ثان مثلث الشكل وصغير الحجم يقع تركيبه على خشبة تتعامد مع الصاري، ويستعمل هذا الشراع الإضافي عندما يطيب الجو وتسكن الرياح. ولكن على إثر التطور الذي شهده قطاعا النقل البحري والصيد اندثر هذا النوع من المراكب بعد أن ضل قرونا يجوب سواحل قرقنة وصفاقس وجربة وجرجيس ناقلا المسافرين والبضائع أو حاملا معدات الصيد البحري. وقد اوجد قصر المياه طرقا خاصة للصيد، تستعمل فيها المصيدات القارة أو المتنقلة. لكن «الدرينة» هي العمود الفقري لجل تلك الطرق. وهي عبارة عن سلة شكلها مخروط وتضفر من اعواد عراجين البلح واخرى مستخرجة من سيقان العراجين وهي مفتوحة من جهة على شكل قمع يسهل دخول السمك ويمنعه من الخروج. أما قعرها فبه سدادة منسوجة يقع جذبها بحبل لفتح المصيدة واخراج السمك. والدرينة جهاز متنوع الاستعمال اذ تستعمل مستقلة او تدخل في تركيب مصائد أكثر تعقيدا كالشرفية والجمة.

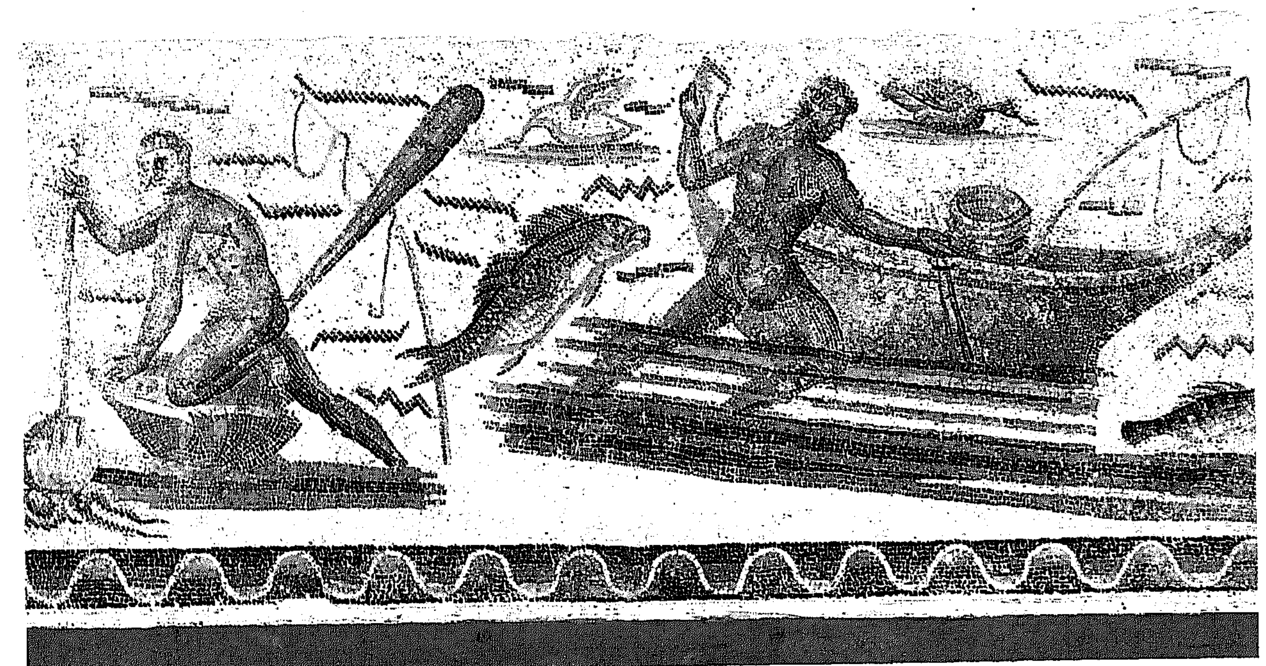
والشرفية هي مصيدة قارة يحدد مكانها ويشكلها جهاز من جريد النخل يغرس في الأرض ويجبر السمك الذي يأتي به مد البحر، على ان يدخل عند الجزر إلى حجرات الصيد المؤسسة من الحصر المصنوعة من سيقان الجريد والمجهزة ببعض الدراين. ويلج السمك الدرينة وقد استهواه الضوء المنبعث منها. وخلافا للشباك من نوع الغزل المتداول اليوم بكثرة والتي تخنق السمك، تمكّن الدرينة السّمك من البقاء حيا، صائما ونظيف المصارين إلى حين رفعها من طرف الصيادين. ولذلك يميل المستهلك إلى هذا النوع من سمك الشرفية. ومن انواعه الصبارص والكحلاية، والشلبة واصناف البوري والتريلية وغيرها. وقد وجدت الشرافي بعدد كبير حول جزيرة قرقنة وجربة وعلى سواحل جرجيس وصفاقس واللوزة والشابة.

وخلافا للشرافي (جمع شرفية) التي تعمل طوال اشهر لا تقام مصائد الزروب الا في فصل الصيف. وهي مصيدة متنقلة، تبنى على شاكلة الشرفية لكن جدرانها من حصر مصنوعة من الجريد وأعواد عراجين البلح. وعندما يستقر بها المكان يأخذ الصيادون في ضرب الماء لارهاب السمك وتوجيهه نحو الدراين المثبة بتلك الحصر. وسمك الصبارص الذي يستخرج من الزروب (صبارص الزروب) هو من ألذ الاسماك طعما ويتهافت عليه سكان صفاقس تهافتا لا مثيل له.

والجمة أيضا يتم تجهيزها بالحصر ولكن بطريقة مغايرة. فهنا يحيط عدد من السفن رويدا رويدا بسرب من الاسماك قد وقع التفطن الى اتجاهه مسبقا بسياج من الحصر المجهزة بعدد من الدراين، فلما ينحسر البحر مع حركة الجزر يأخذ السمك طريقه نحو الضوء المنبعث من الدراين، اما على الشواطئ فيكتفي الصيادون باقامة الجمة على شكل نصف دائرة وهكذا يتحصلون على عدة أنواع من السمك وخاصة السمك الابيض مثل البوري والميلة.

وتوجد طريقة تقليدية اخرى لصيد مختلف اسماك البوري غير بعيد عن الشاطئ وتعتمد على استغلال طبيعة هذه الاسماك في القفز، وتعرف هذه الطريقة «بدماسة





فسيفساء الصيد
(متحف باردو)

البحر» وتتمثل في تخويف السمك ومطاردته الى ان يقفز على دوح من الحصر العائمة وقد هيئت على شكل زاوية حادة ينغلق جناحها رويدا رويدا. وفي اكثر عمق يستعمل الصيادون جهازا اخر يسمى «دماسة القد» وتتمثل هذه الطريقة في احاطة سرب البوري بواسطة شبكة لها جزءان الاول افقي والثاني عمودي. وبعد ذلك يأخذ الصيادون في ضرب الماء داخل الدائرة التي تحيط بها الشباك العمودية ويجبرون السمك على القفز فوق الشباك الافقية.

قلنا ان البحر في خليج قابس يزخر بالمواد السمكية، منها الانواع المتعددة من السمك التي ذكرنا بعضها ومنها كذلك القوقعيات كالمحار ومختلف الاصداف كتلك التي يطلق عليها اسم «القرن الاحرش» والتي تفرز كتلا من خيوط ناعمة تعينه على الانغراس في الارض. ويبدو أن الرحالة العرب كانوا يقصدون هذا النوع من الكائنات البحرية حينما ذكروا ان هذه

الخيوط كانت تجمع وتصنع منها الثياب الفاخرة للخلفاء الفاطميين. ويقول محمود مقديش في نزهة الانظار (القرن الثامن عشر) ان هذه الصناعة قد اندثرت ولم يعد لها أي صدى في الأذهان.

ومن بين الموارد البحرية ايضا القشريات كالسرطان والجمبري، وكذلك الرخويات كأصناف الحبار (المطيق والشوابي أو السوبية) والاخطبوط. ومن طبيعة هذا الاخير الانكماش على نفسه والإختفاء في أي مكان ضيق يجده. وقد استغل الصيادون هذه الظاهرة لصيده فعلاوة على التقاطه دون عناء في الاماكن العالية من البحر برشقه برماح مسننة، يمكن صيده بتهيئة مخابئ متنوعة وجعلها في طريقه، ومنها حجرات صغيرة تبنى من أصول جريد النخل (كرناف) وهي طريقة كانت مستعملة في جزر قرقنة حيث يكثر النخيل. ولكن المخابئ الاكثر رواجا ونجاعة تتمثل في الحجارة المحفورة والاوعية الفخارية. فبعد جلبها من المقاطع تجوف الحجارة وتاخذ مكانها بالبحر على عمق ثلاثة أو أربعة أمتار وعلى بعد ثمانية أو عشرة أمتار الواحدة عن الأخرى. وعلى هذا النحو يستعمل الصيادون سلسلة من عشرات بل مئات الأوعية الفخارية يشدها لبعضها البعض حبل طويل، ثم بعد مدة من وضعها يرفعها الصياد ويلتقط منها الأخطبوط التي اختبأ داخلها.

وما من شك أن تقنيات الصيد البحري تتطور باستمرار ولم يعد الصياد يترقب أن يقع السمك في الفخاخ التي يضعها، بل صارت مراكبه مجهزة بآليات تمكنه من ملاحقة السمك وصيده حيثما وجد. وبذلك يحصل على إنتاج وفير. غير أننا لا ننكر كذلك أن للطرق التقليدية فضل المحافظة على مراعي السمك الطبيعية وعلى إنتاج سمك يجمع المستهلكون على أنه ألذها.

المعلم الديني الهرمايون (Hermaïon) بالقطار

منيرة الرياحي

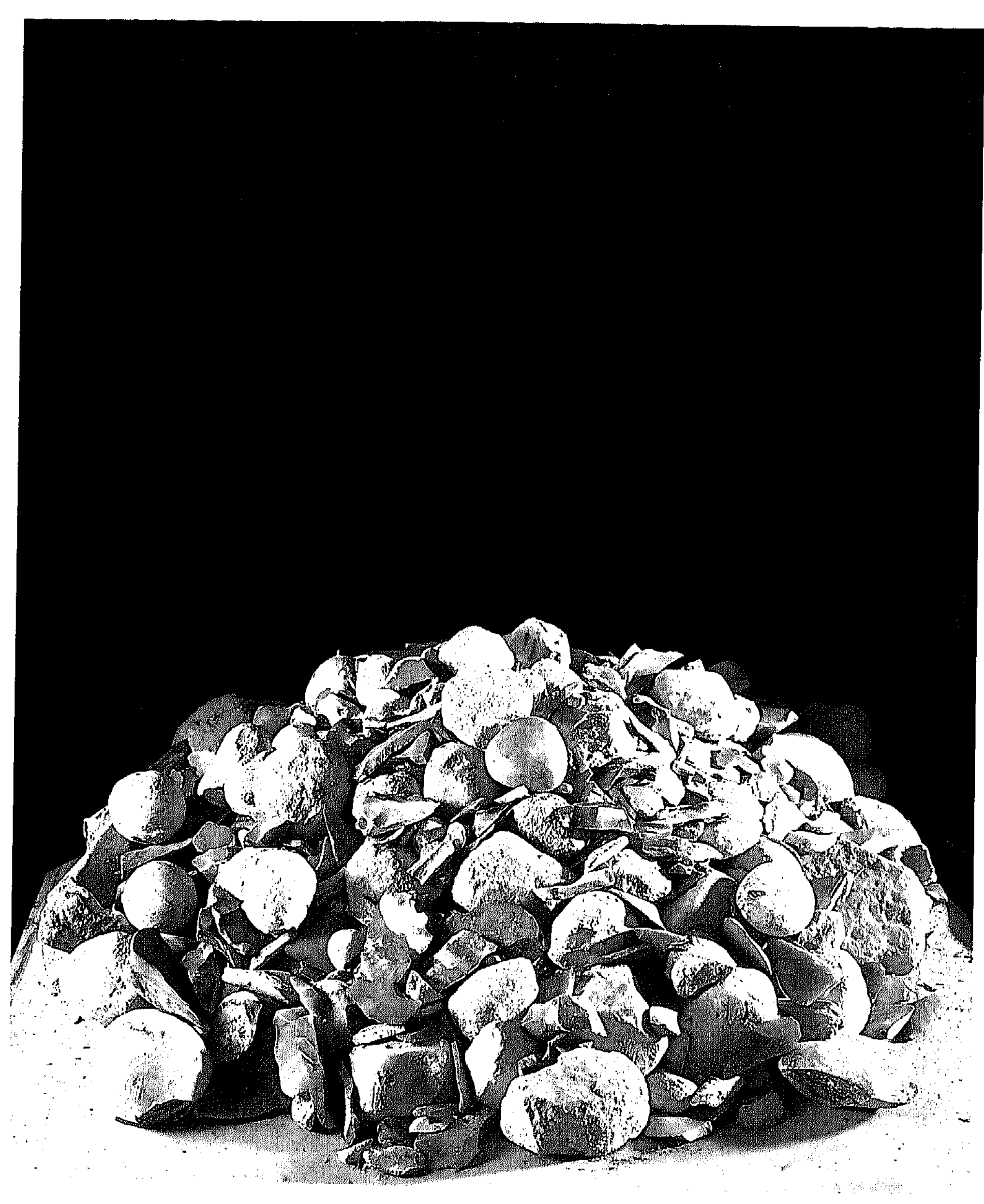
قام السيد «غرووي» (Gruet) في سنة 1951 باستكشاف ودراسة معلم تاريخي هام يعود إلى العصر الحجري الأوسط (الموستيري)، تمّ العثور عليه في جنوب البلاد التونسية بـ«القطار»، (على مسافة 15 كيلومتر جنوب شرقي قفصة). ففي أسفل الواحة التي تمتدّ بين جبل عرباطة القائم كأنّه سور بارتفاعه البالغ 1192 مترا وبين «شط القطار» يوجد الموقع «الموستيري» الذي احتفظت فيه الطبقات الأثرية العديدة ببقايا تجمّع سكني يتصف بقدر كبير من التجانس ويعود إلى فترة ما قبل التاريخ. وفي الجوار المباشر لأحد الينابيع الفوّارة عاش هؤلاء الناس من الصنف «الموستيري» المنسوبين إلى بلدة القطار، حول صناعة الشّظايا جميلة وثريّة لا تزال آثارها موجودة بالموقع، مع شواهد من مآكلهم وممّا كانوا يصطادونه من الحيوان وما يحيط بعيشهم وتنقلهم من النباتات والأشجار.

وقد أقام هؤلاء الناس في ردب فسيح من المنبع الفوّار معلما نذريّا تقرّبا لروح ذلك النبع. وهو بناء مخروطي الشكل قطره 1,30 مترا، وارتفاعه 0,75 مترا، يتكون من مئات من كويرات من صخر الصّوّان ومن شبه كرات من حجر الكلس. وأكمل هذه الكويرات شكلا وضعت بقمّة البناء. وقد حشي داخل البناء بأسنان حيوانات لبونة (250) وبعظام مكسورة في أغلبها. ويوجد مع ذلك 4000 قطعة من حجر الصّوّان خصص أجملها للجانب الأعلى من هذه التركيبة الهرمية. وقد وضع عظم كامل لحيوان من فصيلة الثيران على أحد جوانب

الرّكيمة الحجرية، في حين تمّ العثور على لوحين صغيرين من حجر الكلس في وسط المبنى. وعند اكتشافهما كانت هذه الركيمة غارقة فيما كان يوجد بذلك المنبع من رمال دقيقة ناعمة. وتتفق الإعتبارات الفيزيائية والبيولوجية على إرجاع هذا المعلم إلى مرحلة تاريخية توافق تراجع فترة كثيرة الأمطار، مع ازدياد في الجفاف والبرد.

ويشكل معلم «القطار» الذي أقيم جزئيا في الماء شاهدا نادر المثيل على تطوّر الإنسانية.

معبد «الهرمايون»
(متحف باردو)



"الغريبة" أو 2600 سنة
من تاريخ الديانة اليهودية بتونس

عزيزة بن تنفوس

لا يمكن ذكر «الغريبة» دون التعرض لعراقة الديانة اليهودية وبالتالي الحديث عن الجالية اليهودية الجربية وخصوصيات معتقداتها.

إن استمرار الديانة اليهودية بجربة على مرّ العصور تعد من المعطيات المميزة لجربة إذ أنها كانت الجزيرة الملجأ لعدة فرق دينية بدأ بالجالية اليهودية التي بقيت متمسكة بماضيها البعيد محافظة على تراثها الديني الذي يتصل بأسباب هجرتها من الشرق وحط رحالها نهائيا بالجزيرة التي أمنت لها الحياة بكل مكوناتها وخاصة الروحية منها.

إن مابقي من الجالية اليهودية حاليا لا يزال متصلا بذلك الماضي الذي بقي راسخا في ذاكرة أفرادها يتوارثونه مشافهة أبا عن جد. إن سرد قصة وفود الجالية على جربة واستيطانها بها يعد من الثوابت وإن اختلفت الروايات شيئا ما عن بعضها إلا أنه من المتفق عليه بينهم أن هذا الحدث الهام وقع منذ حوالي الألفين وست مائة سنة أي منذ أول هدم لمعبد ببيت المقدس. ونحن في غياب المصادر المكتوبة حول ظروف هجرة الجالية اليهودية إلى جربة لا نملك إلا أن نتساءل هل وقعت فعلا وفي أي تاريخ وهل حصلت دفعة واحدة أو على كرّات ؟ كلها تبقى مجرد نقط استفهام.

تتوزع الجالية اليهودية على مجموعتين تقطن الأولى منهما بالحارة الكبيرة -وهي السواني- الآن، قرب السوق الكبيرة. أمّا المجموعة الثانية فقد استقرت على بعد بعض

الأميال منها «بالحارة الصغيرة» وهي «ديغت» القديمة و«الرياض» حاليا -ويسود اعتقاد الجميع أن هذه الأخيرة تنحدر من مجموعة الكهّان الذين هاجروا من بيت المقدس حاملين معهم النصوص المقدّسة وبتلك الصفة يعدون من الأشراف لانتسابهم لرجال الدّين الأوائل.

وكانت الجالية بحارتيها تعد في أوج ازدهارها 4500 ساكن وقد تميزت بوفرة إنتاجها العلمي مما بوّأها مرتبة عالية بين المراكز العلمية اليهودية، إذ كانت تصدر مئات المؤلفات الدينية التي تنشر التعاليم التي كانت معتمدة في الحفاظ على أصول الديانة اليهودية. فكانت بذلك تفوق كل الجاليات اليهودية المعروفة في العالم من حيث نسبة إنتاجها العلمي.

إن لغزارة هذا الانتاج العلمي وأهمّيته لها علاقة متينة بوفرة البيعات التي تم انشاؤها على مر السنين من طرف أبناء الجالية وخاصة ميسوري الحال منهم إذ أن عددها يقرب من العشرين يؤمها الذكور منهم يوميا للتعبد وكذلك في فترات الأعياد وهي كثيرة فيتلقى فيها الأطفال تعاليم دينهم ويقصدها الكهول ثلاث مرات في اليوم للصلاة. ويجتمعون فيها أيام الأعياد. وبها كذلك يقع النظر في شؤون الجالية. ورغم أن البعض منها فقد صفته الدينية حاليا إلا أن أغلبها لا يزال محافظا على وظيفته الاساسية وهي تسمى «صلا» بالحارة الكبيرة. أما بالحارة الصغيرة فهي تسمى «يشووت» اي المدرسة وذلك للدّور العلمي والتعليمي الذي تقوم به.

يسود البيعات اليهودية التقليدية بجربة نمط معماري موحد، وزخرفتها تكاد تكون واحدة من جربة إلى بن قردان وهي المنطقة التي انتشرت فيها الجالية الجربية جنوبا انطلاقا من الجزيرة. وتشتمل البيعة الجربية على قاعتين متوازيتين واحدة مكشوفة والاخرى مغطاة متجهة كلّ منها إلى بيت المقدس وتقوم كلّ منها كذلك بوظيفة الصلاة. وكان من المفروض أن القاعة الأولى تستعمل في فصل الصيف وفي عيد الخصر والثانية في فصل الشتاء -ولكن الحاجة أدت بأبناء الجالية إلى استعمال القاعتين للصلاة الجماعية في نفس الوقت. أما «الهيكل» وهو الخزانة التي تحفظ فيها التوراة فإنّه يوجد داخل القاعة المغطاة. وقد زينت أبواب الخزانة بأشكال اقتطعت منْ صفائح الفضة نذكر من بينها شكل «السمكة» واليد «الخمسة» وكذلك ألواح الوصايا العشر.

أما الحيطان فهي عادة مغطاة بالخزف الأزرق وتشتمل على طاقة لوضع الكتب. وحول الجدران وضعت مصطبات للجلوس سواء للراحة أو لقراءة الكتب الدينية. والبيعة عبارة عن سجل يخلد ذكرى كل الموتى الذين وهبوها شيئا ما. إذ أن أسماء الواهبين تسجل على ألواح وتعلق على الجدران مذكرة بما قدموه من هبات. إضافة لكل ما ذكر، هناك ثلاثة صناديق حاوية للصدقات. الأوّل توضع به المقادير المالية الموجهة لرجال الدين بالأرض المقدسة. والثاني تجمع فيه الصدقات لجمعية العناية بالمدارس. والثالث يحوي المساعدات للفرقة المختصة باقتناص العقارب.

وبجانب كل ذلك يوضع قنديلا «الربي شمعون» و«الربي مايير» وقناديل أخرى لإنارة أولياء محليين. وتعلو أغلب البيعات شبابيك تفتح على الجهات الأربع زينت بالبلور الملون.

ويكون عددها إثني عشر: ثلاثة في كل ناحية. وهي ترمز إلى الإثني عشر قبيلة التي تنحدر منها أمّة إسرائيل وتكتب أسماؤها عادة على الجدران.

كل هذا يبرز ببساطة بيعات جربة وخاصة بعد أهلها عن الإسراف في الزخرف وتمسكهم بأصول ديانتهم التي ترعرعت في أوساط متواضعة.

وتحتل «الغريبة» المرتبة الأولى بين تلك البيعات وذلك بالنسبة للجالية اليهودية قاطبة وقد تخطت شهرتها حدود الجزيرة لأنها اصبحت قبلة الزوار كامل السنة يأتونها من كل ناحية ويقصدونها خاصة في مناسبة الزيارة السنوية المعروفة بـ «لع باعمر». ويزورها السواح لانها تدخل في برنامج اكتشافهم للجزيرة. وهي تختلف عن بقية البيعات بحكم تطور وظائفها طيلة تاريخها العريق. لقد وقع إدخال عدة توسعات عليها نتيجة الدور الذي تقوم

بيعة الغريبة
منظر داخلي



به كمركز استقطاب ليهود العالم مدة الزيارة الدينية الموسمية وكمحطة استطلاع للسواح طيلة أيام السنة. والمبنى الحالي للغريبة وقع توسيعه منذ أواسط القرن الماضي، حيث كان يشتمل آنذاك على قاعة مربعة دون أي زخرف. اما الآن فإنها تتكون من قاعة مربعة وبجانبها قاعة ثانية مستطيلة مغطاة وهي بذلك تختلف عن بقية البيعات التقليدية الجربيّة بافتقارها للقاعة المكشوفة التي تميزها. وبها كهف تحت خزانة التوراة يحكى أنه بنيت فيه الحجارة المجلوبة من المعبد الأول ببيت المقدس. أما عدد الشبابيك التي تعلوها فهي ستة عشر شباكا، أربعة من كل ناحية غير أن أسماء القبائل الإثني عشر سجلت كالعادة : ثلاثة على كل جدار من الجدران الأربعة وهي كبقية البيعات الأخرى مزخرفة بالخزف الأزرق وتشتمل كذلك على فندقين تقليديين لإيواء الزوار. وتجدر الإشارة إلى أنه هناك عدة بيعات تحمل اسم الغريبة توجد بشمال إفريقيا وقع إحصاء ستة منها بليبيا وتونس والجزائر.

وتحفّ باسم الغريبة وموقعها أساطير يرويها يهود جربة وقع تدوين أهمّها، منها أنّ الجزيرة بدت غريبة وعجيبة أمام أوّل المهاجرين اليهود ومن فرقة الكهان الذين أتوا حاملين معهم قطعة من المعبد الذي وقع هدمه ببيت المقدس وهو ما يفسر العلاقة الكبيرة التي تربط الفرقة بأهم بيعه وقع إنشاؤها بالجزيرة وبالحارة الصغيرة بالذات وهي أقدم الحارتين.

أما الأسطورة الثانية فهي تهمّ اسم الغريبة وهي تتعلّق بفتاة فائقة الجمال شديدة التواضع والورع أتت في يوم من الايام وأقامت كوخها على تلة قريبة من الحارة الصغيرة. وكانت تعيش منعزلة محاطة بهالة من المهابة والقدسية مما جعل أهل القرية يتحاشون الاتصال بها لمعرفة سرّ وجودها هناك. وفي ليلة من الليالي لاحظ الناس نيرانا تشتعل بالكوخ ولكنهم لم يحركوا ساكنا مخافة أن تكون الفتاة منشغلة بأعمال السحر.

وعندما انطفأت النار ذهب البعض ليروا ما يحدث فوجدوا بقايا رماد مكان الكوخ والفتاة ميتة غير أنّ جسدها لم تمسسه النار. ففهموا عند ذاك أنّها كانت وليّة صالحة كان عليهم مساعدتها في وحدتها وانتهوا إلى بناء الكنيسة بالمكان لتخليد ذكرى تلك الفتاة العجيبة والغريبة.

تقع أيام الزّيارة بين تاريخي 14 و18 من شهر آيار وهو ما يوافق تاريخي وفاة الرّبي مايير والرّبي شمعون. وهي مناسبة يقصد فيها جموع الباعة والمتسولين والزوار ذلك المكان للاحتفال بتلك الذكرى وأهمّ ما يميّز كلّ ذلك هي المزادات التي تقام للحصول على حقّ الانتصاب التجاري بالمكان مدّة الزيارة ثم الخرجة التي تشارك فيها جماعات الزائرين وهي تتمثل في حمل «المنارة» وهي عبارة عن مصباح كبير مقدس من الغريبة إلى بيعات الحارة الصغيرة ويقع هذا الإحتفال يومي 17 و18 من آيار. وأما شكلها فهو على هيئة صومعة ذات طوابق ترمز إلى ترتيب الكائنات. وهي حسب اعتقاد اليهود الجرابة تمثل قاعدتها الامة اليهودية وفي قلبها الرّبي مايير والرّبي شمعون. والقمة يحتلها اسم الله مكتوب بالعبرية «شداي» في نجمة سيدنا داوود، وقد زينت بأغطية حريرية ملونة.

القديس أوغستين
رمز المسيحية الإفريقية

ليليان النابلي



ولد القديس أوغستين سنــة 354 بطاغست (Thagaste) (وهي اليوم مدينة سوق أهراس بالجزائر، قرب الحدود التونسيّة الجزائريّة).

كان والده باتريسيوس (Patricius) من أعيان المدينة وكان وثنيّا. أمّا أمّه مونيك (Monique) فقد كانت مسيحيّة ورعة.

عرف له أخ اسمه نافيجيوس (Navigius) وأخت كانت رئيسة دير للنساء بهيبون (Hipponne) (وهي عنّابة الحاليّة).

تكلّم أوغستين اللغة اللاتينية منذ طفولته وكانت لغته الأمّ ولم يحذق أبدا اليونانية جيّدا أمّا البونية فلم يكد يعرفها. وقد تسنّى لأبويه أن يلاحظا نبوغه المبكّر وذكائه الوقّاد، وقضّى بطاغست طفولة مضطربة ومرحة. بدأ تعلّمه بمادور(Madaure) حيث قضى أربع سنوات (365-369)، ثمّ ساعده صديق لأبيه يدعى رومانيوس (Romanius) على مواصلة دراساته بقرطاج ابتداءا من سنة 370.

وكان إلى ذلك الوقت شابا محروما من المتع الفنيّة فكرع من لذّات المدينة واهتزّ للعروض المسرحيّة بقرطاج متذوّقا التعابير الدراميّة وألوان الأزياء والحلي، كما أسكرته مباهج الحبّ وسرعان ما اتخذ له خليلة كان له منها ابن يدعى أديودات (Adéodat).

وسرعان ما اهتم بمختلف التيارات الفلسفية والدينية التي كانت محلّ جدال بين رجال الفكر في المدينة. ولقد استهواه أوّلا المذهب المانوي -الذي حاربه فيما بعد- قبل أن تستهويه المسيحيّة.

ومنذ سنة 373 ، نجده أستاذا بطاغست ثم بقرطاج سنة 374 حيث درّس البلاغة لكنّ عصيان التلاميذ في هذه المدينة الكبرى والثرية أخمد همته فطلب نقلته إلى رومة وتحصّل عليها سنة 383.

ثم درّس سنة 384 بميلانو حيث التحقت به أمّه وكذلك جماعة من أصدقائه الذين كوّنوا فيما بعد حلقة تفكير وتعبّد بكسّيسياكوم (Cassiciacum).

وفي سنة 387 عمّد بميلانو من قبل أسقفها أمبرواز (Ambroise).

وبعد وفاة والدته بأوستي (Ostie) في طريق العودة إلى إفريقيا مكث سنة أخرى بروما قبل الرجوع إلى طاغست حيث كوّن مع أصدقائه المخلصين طائفة دينية صغيرة.

ولقد صوّر في اعترافاته هذا الجزء الأوّل من حياته. وفي سنة 391 مرّ بهيبّون فاحتفى به جمع غفير من المؤمنين وأرادوه أن يكون مساعدا لأسقفهم فالير (Valère) فاضطرّ إلى أن يصبح قسّا.

وابتداءا من سنة 395 سمّي معاونا لفالير فقضّى بقية حياته مخلصا للكنيسة ولجمهور المؤمنين. وكوّن من جديد بهيبّون طائفته التي ستظلّ منبعا للأساقفة بالنسبة إلى كامل الجهة.

وبموت فالار سنة 396 أصبحت للقديس أوغستين صفة أسقف فتفرّغ بكلّ ما أوتي من قوّة إلى رعاياه يفضّ مشاكلهم اليومية. لكنّه كان يفلت بين الفينة والأخرى إلى قرطاج حيث يلتقي بأسقفها صديقه أوريليوس (Aurélius) فكان يستجمع أنفاسه بجواره ويستعيد قواه الفكريّة. ولقد أتيح لهما معا أن يقاوما الإنشقاقات والبدع التي كانت تهدّد إذ ذاك المسيحيّة الإفريقيّة بعد أن انتصرت على الوثنية. وتمثلت أهم بدعة في إفريقيا وقتئذ في الدونانية التي أقصيت رسميا سنة 411 عند التئام الإجتماع الحضوري بقرطاج، وفيه وحّد القدّيس أوغستين وصديقه أوريليوس جهودهما. كما قاوم في كتاباته البيلاجيوسية التي تمّ الحكم عليها في قرطاج سنة 418.

قضّى بقيّة حياته في الكتابة لترسيخ انتصار الأرثودكسية الدينية القويمة ولفرض فكرته القائلة بأنّ منّة الخالق هي الملاذ الوحيد للبشر الآثمين. وكان يعتبر أن التعميد في أصغر سنّ ممكنة، منذ المهد، هو السرّ المنجّي.

وفي 28 أوت 430، وفي مدينة هيبّون التي كان الوندال يحاصرونها، توفي هذا القدّيس العظيم الذي أنارت كتاباته القرون اللاحقة. والنهضة الكارولنجية مدينة له بالكثير عن طريق ألكوين (Alcuin) ورابان مور (Raban Maur). وستظلّ آراؤه -طيلة القرون الوسطى- عامل اختمار لمختلف التيّارات المذهبيّة أو الفلسفيّة، نذكر من أصحابها بونافنتير (Bonaventure) وتوما الأكويني (Thomas d'Aquin)، وقد كان مدينا لهما في تفكيره بالكثير. كما اعترف عدّة مصلحين في القرن السادس عشر أمثال لوثر وكلفان بتأثرهم بآرائه. أمّا في القرن السابع عشر، فقد أتاح اكتشاف فلسفته ثانية انطلاقا لأبحاث مسيحية جديدة. ولا يزال القدّيس أوغستين في عصرنا الحاضر منبعا فكريّا فيّاضا.

وبالإضافة إلى خطبه الوعظية ومصنّفاته المختلفة تتمثّل مؤلّفاته الأساسيّة في: الإعترافات، والثالوث، والعقيدة المسيحية (Confession, De trinitate, De doctrina christiana) والمدينة السماوية (De civitate Dei).

ونشير في الختام إلى أنّ أوّل صورة معروفة عن القديس أوغستين هي تلك التي رسمت في غضون القرن السادس فوق جدران اللتران (Latran) بروما.

بيبليوغرافيا

- H.I. Marrou, Saint Augustin et l'Augustinisme. Paris, Seuil, 1956, réédité en 1983.
- A. Mandouze, Saint Augustin, l'aventure de la raison et de la grâce, Etudes Augustiniennes, Paris, 1968.
- P. Brown, la vie de Saint Augustin, (traduction de Jeanne-Henri Marrou), Paris, Seuil, 1971.

الأدب المسيحي بإفريقية

عبد المجيد النابلي

كانت لغة المسيحية في بادىء الأمر هي اللغة اليونانية. فقد ترجمت التوراة إلى اللغة اليونانية بمدينة الإسكندرية، بأمر من بطليموس، منذ القرن الثالث قبل الميلاد، في حين كتب الإنجيل مباشرة بهذه اللغة أو ترجم إليها فورا. وقد نشأت المجموعة المسيحيّة بالمشرق قبل أن تنتشر بروما فيما بعد. وكان أوّل المدافعين عن الدين ضدّ الوثنية هم جماعة «المدافعين عن العقيدة النصرانية» الذين كانوا يكتبون دائما باليونانية.

وعندما امتدت المسيحية إلى قرطاج وإفريقية، فإنّها انتشرت بواسطة اللغة اللاتينية. وقد تكون هذه المقاطعة هي التي شهدت في القرن الثاني إنجاز أوّل نسخة لاتينية من «الكتاب المقدس» وقد تمّ نقل كتابات الدفاع عن الدين وإثبات العقيدة وصياغتها وفقا للروح اللاتينية، ونشأت بذلك لغة مسيحية بالغرب.

ويمكن أن نميّز بين ثلاث فترات تمتد على مدة 150 سنة فمع «ترتوليان» (Tertullien) و«مينوسيوس فليكس» (Minucius Félix) كانت العقيدة الجديدة تتدعم وتبرز وقد أصبحت بعد واثقة بقوّتها لكن في انتظار عمليات الإضطهاد والتعذيب. وفي أواسط القرن الثالث يبرز لنا «القديس سبريانوس» (Saint Cyprien) صورة الكنيسة منظمة وفريسة لأ شدّ مخاطر الإضطهاد والإنقسام على نفسها. (وذلك بنشأة مجموعات خارجة عن العقيدة المشتركة المتفق عليها) وقبل عملية اضطهاد «ديوكليسيان» (Dioclétien) (303-305)، وفي عهد قسطنطين، كانت المسيحية قد أصبحت أكثر اتساما بالسلم والهدوء وأكثر اختلاطا بشؤون العالم. وقد كانت تتحدث بشكل يزداد كلاسيكية لكنّه لا يقل صفاء، على لسان «أرنوب» (Arnobe)، وخصوصا «لاكتانس» (Lactance) اللذين كانا يشعران ببعض بوادر من ملامح الأدب المسيحي المتألّق. وقد كان هذا الشمال الإفريقي هو الذي تولّى مدّة ثلاثة قرون تقريبا امداد الأدب المسيحي بأهمّ من امتاز بهم من الكتاب.

وقد كانت إفريقيا الشمالية إلى حدود القرن الرابع مركز الفكر المسيحي الغربي. ونحن نعلم أن مساهمة إفريقيا خلال نفس الفترة في الأدب الدنيوي لم تكن قط من الأمور التي يستهان بها. ولنذكر هنا بالخصوص مثال أبوليوس.

ونحن نجهل أصول ومنطلقات الكنيسة الإفريقية. فهي تظهر فجأة إلى النور في سنة 180. ففي يوم 17 جويلية من سنة 180 تم تقديم اثني عشر مسيحيا من مدينة «سيليوم» (Cillium) (القصرين اليوم) (منهم سبعة رجال وخمس نساء) للمحاكمة أمام القنصل «فيجيليوس ساتورنينوس» (Vigellius Saturninus). وأصروا بإرادتهم في البقاء على الدين المسيحي فحكم عليهم بالموت بحدّ السيف. وقد تشكلت «وقائع» استشهادهم أوّل نصّ من الأدب المسيحي بإفريقية.

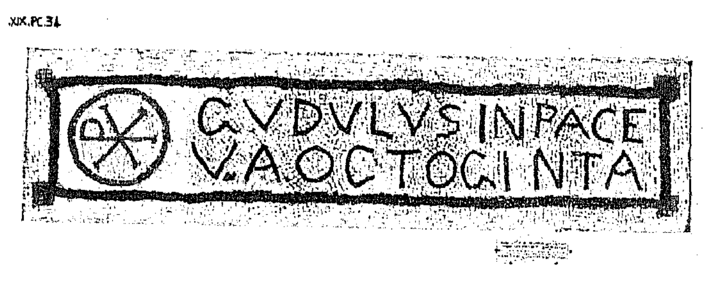
وهذا النص يمثّل مقطوعة متينة ومقتضبة جاءت في أسلوب مجرّد كأنه تقرير وقائع لم تفسد فيه الأساليب البلاغيّة صدق الأقوال والمواقف (ويقال أن ترتوليان» (Tertullien) هو الذي كتب هذه «الوقائع»). ولم يمنع هذا الإضطهاد الجاليات والمجموعات المسيحية بإفريقيا وخاصة بقرطاج من التوسع والتضخم بسرعة.

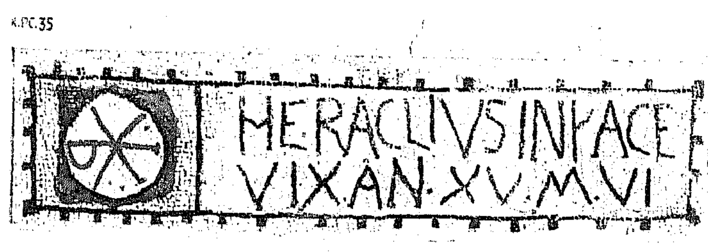
وسوف يتجه «ترتوليان» في سنة 212 إلى حاكم المقاطعة «سكابولا» (Scapula) قائلا : «ولو أردنا أن نلقي بأنفسنا إلى الموت، فماذا عساك تصنع بكلّ هذه الآلاف من الناس، بهؤلاء الرجال وبهذه النساء وبهذه الخلائق من كلّ جنس، ومن كلّ سنّ، ومن كلّ مستوى، وهم يأتون لتسليمك أنفسهم ؟ فإلى كم من محرقة سوف تحتاج ؟ وماذا سوف يكون مصير قرطاج -وقد أفنيت أهلها- عندما يتعرف كل واحد على أقربائه وعلى أجواره، وقد يكون من الناس يضاهيك منزلة، من كبار أهل البلاد ومن اقارب أو أصدقاء أصدقائك؟»

وجملة القول هي أنّ كنيسة قرطاج كانت تملك حوالي نهاية القرن الثاني كل الهياكل التي تضمن لها الحيوية، وكانت تعدّ عددا ضخما من تباع الدين المسيحي.

هذه هي البيئة التي ولد فيها أبو الأدب اللاتيني المسيحي «ترتوليان» (Quintus Septimus Florens Tertullianus) بين سنتي 150 و160.

وكان هذا الرجل يملك فكرا بنّاءا وعمليا في قرارته وموهبة من الطراز الرفيع استطاعت أن تحصر في أنظمة متينة كلاّ من اللاهوت والأخلاق والإنضباط، بصرف النظر عن اللغة اللاتينية ذاتها، التي طوّعها بكل حذق ومهارة لخدمة أغراض جديدة. هذه الشخصية الطريفة القوية هي التي فتحت الباب في ألمع صورة للأدب اللاتيني المسيحي في الغرب.





فسيفساء جنائزية مسيحية

وقد كان الرجل وثنيا ثمّ اعتنق المسيحية وأصبح قسّا، وانخرط في صفوف المذهب «المونطاني» (Montanisme)، وهي فرقة شرقية متطرفة.

وكان متضلّعا في المعارف تضلّعا عجيبا، يكتب باليونانية واللاتينية ويتقن الجدل اتقانا رهيبا. وألّف عدة كتب منها كتاب «الدفاع» (Apologéticum) وهو آية في الحماس والبلاغة. ويشكل هذا الكتاب دفاعا بارعا عن الدين ودعوة إليه، وقد عبّر فيه كاتبه بالإقتضاب اللاتيني القوي عمّا يطالب به بحرارة من مقتضيات لفائدة العدالة والتسامح وحقوق المتهم، كما ضمّنه أيضا تنديده الشديد بما في القوانين المجحفة والأبدية، في زعم أصحابها، من ظلم واستبداد وفيه دفاع بليغ عن المسيحية وأخلاقها السامية النبيلة.

أمّا «مونيسيوس فيلكس» (Municius Félix) فقد ألّف كتاب «الاوكتافيوس» (L'Octavius) وهي رسالة تمجّد المسيحية وتتضمن حوارا حسن الترتيب. وقد كتبت بلغة جميلة. وإننا نلمس فيها مجهودا طيبا لبلوغ الإقناع بدون إحراج لأحد. وقد وصف هذا التأليف بأنّه «جوهرة الأدب المدافع عن الدين النصراني».

القديس سبريانوس (Saint Cyprien)

يتميز هذا الرجل بصفات أخلاقية عالية وقد تحمّل بصفة مبكرة مسؤولية القيادة الروحية إذ أصبح بمجرد اعتناقه المسيحية رئيسا للمجموعة المسيحية بقرطاج، وألقى على كاهله عبء ممارسة هذه المهمة الشاقة في الوقت الذي امتحن فيه المسيحيون باضطهاد دوسيوس (Decius). وقد قام بمهمته في نطاق الحكمة والثبات. ودخل في نزاع مع البابا «اسطفانوس» (Etienne) (254-257) بخصوص صحة التعميد الذي يتولاه الهراطقة من أصحاب البدع والضلالات. وقد كان رجل قيادة أكثر مما كان رجل مذهب وعقيدة. وكتاباته التي هي دون ما كتبه ترتوليان من حيث القيمة، تتعلّق بخطته كأسقف.

وقد اشتغل بحلّ قضيّة «الزّالين» (Lapsi) المترتبة عن قرار الإمبراطور «دوسيوس» (Decius) في سنة 249-250. فكيف يغفر لمن زلّ من الناس ؟ ذلك ما يجيب عنه المصنف (Lapsi) بصفة رائعة. فتفرض عليهم فترة طويلة من التفكير والتوبة قبل حصولهم على الغفران والسماح لهم بالعودة إلى صلب المجموعة. وقد مارس سبريانوس هذا المبدأ متسما بنوع من الطيبة التي تجمع بين الشدة والعطف في آن واحد.

وهناك عدّة رسائل ومصنفات أخرى كانت تأتي كردّ على شواغل ذلك العصر ومجادلاته، وتورد جوابا حازما وصريحا في آن واحد من قبل رئيس الطائفة كلما قام مشكل من المشاكل الخطيرة.

وقد تسبب المرسوم الذي أصدره «فاليرين» (Valerien) في شهر أوت من سنة 257 في وقوف سبريانوس لأوّل مرة أمام محكمة والي القاطعة الذي قضى بنفيه إلى «كوروبيس» (Curubis). وبعد مرور سنة على ذلك، صدر إذن بإخراجه من هناك، وكان ذلك بغاية عملية التعذيب التي سلطت عليه يوم 14 سبتمبر من سنة 258.

وكانت شهرة القديس سبريانوس عظيمة في عهود المسيحية الأولى وكان كلّ من عرفه يكن له التقدير والإعجاب، بحكم ما تميّز به من حياة خصبة إلى أبعد حدّ، ومن فصاحة فائقة ومن تفان مطلق في سبيل مجموعته، وبسبب ما كان في ذلك الموت الذي توّج كل فضائله النادرة من آيات البطولة والتضحية. مما فرض على الأجيال اللاحقة صورة محفوفة بالعظمة والمجد.

وقد جرى التغنّي بمآثره وإحياء ذكراه بإفريقية على وجه الخصوص. وأقامت له قرطاج كنيستين كبيرتين، الأولى بموقع محنته وموته بالمكان المسمّى (Agger Sexti) الذي يتفق على تحديد موقعه ببئرفتوحة. والثانية حيث كان يوجد قبره بالمكان المعروف بـ«Arcas Macrobii, in via Mappliensi»، وهي الكنيسة المتمثلة فيما يسمى اليوم بكنيسة «سانت مونيك».

وقد كان اسمه وسمعته المجيدة يترددان في كامل العالم المسيحي ويشعّان عليه. وقد كانت مؤلفاته تقرأ بشغف واستمرار، وكان لها تأثير عميق في كافة الكتاب المسيحيين في العهود القديمة.

أرنوب (Arnobe) : (النصف الثاني من القرن الثالث)

بعد أن قضّى كامل حياته في تدريس البلاغة بمدينة «سيكافينريا» (Sicca Veneria) بمقاطعة إفريقية، حظي هذا الرجل بالهداية الربانية واعتنق المسيحية في عهد متأخر من حياته حوالي الستين من عمره.

ومنذ ذلك الحين سخّر مواهبه لخدمة القضية التي اعتنقها. وكان يملك سيلا متواصلا من الفصاحة وكتلة صماء من التضلع في المعارف وقدرا مكثفا من السخرية. فألّف كتاب «Adeversus Nationes» (ضدّ الوثنيين) الذي صدر حوالي سنة 300. وهو تهجّم على الميثولوجيا الوثنية ومحاماة للدفاع عن المسيحيين.

«لاكتانس» (Lactance)

هو «لاكتانس فرميانوس» (L. Caelilius Firmianus) كان وثنيا وتتلمذ على «أرنوب»، ودرّس البلاغة. وهو يعد ضمن أوائل الكتاب المدافعين عن العقيدة المسيحية.

واتخذه «قسطنطين» مؤدبا لابنه «كرسبيوس» (Crispius). وألّف كتبا عديدة، منها كتاب

وكتاب (De Opificios Dei) (De Mortibus Persecutorum) الذي أراد أن يبيّن فيه كيف أن عقاب الله ينزل بالأمراء الذين يؤذون المسيحيين في حين أن اللّه يحفظ ويساعد الذين يدركون ما في قضية هؤلاء النصاري من عدالة وصواب. وقد أدرك المشكلة الأخلاقيّة التي يثيرها تغيّر الزمان. وكان يعيش في عصر تسابق فيه الناس إلى الدخول في الكنيسة، واتجهت فيه الكنيسة نفسها إلى إبرام عهد تحالف مع الإمبراطورية سوف ترفع بفضله كلّ العراقيل المادية التي كانت تعطل انطلاقتها. وسوف يكون لاكتانس شاهدا على التصالح بين الكنيسة والإمبراطورية بظهور أوّل حكومة مسيحية.

على أن هذا الإعتراف الرسمي بالمسيحية من قبل الإمبراطور قسطنطين وما قدم كذلك للكنيسة من تخصيصات وأوقاف عديدة لم تكن لتضمن لها انتصارا نهائيا.

فقد كانت طبقة الأكابر والأشراف التي تشكل الأرستقراطية لا تزال على الوثنية في جوهرها وبصفة تقليديّة، وكانت مستمرة على القيام بنفس الطقوس والعبادات القديمة.

وسوف يتحتّم اقتلاع امتيازات هؤلاء الجماعة واحدا بعد واحد، ممّا سوف يتطلب قرونا عديدة أخرى.

وانطلاقا من القرن الرابع، ومع نهاية الإضطهاد والملاحقات، سوف يزدهر الأدب المسيحي. لكنه سوف يجابه الصراعات المذهبية بين آريين وبريسليانيين وأوريجينيين ومانيكيين ونوفاطيين و دوناتيين وكان المذهب الدوناتي (donatisme) خاصا بإفريقية. وقد أنتج أدبا غزيرا بما فيه من عرائض ونقائض، ولوائح اتهام ومقالات وعظ وتأنيب، وخطب قضائية ومكاتيب ورسائل.

وكان «دونات» (Donat) الأكبر هو زعيم هذه الكنيسة المنشقة. ويعد «تيكونيوس» (Tyconius) من أشهر كتاب تلك الفترة بكتابه (Liber Regularum) المؤلف حوالي سنة 382، وكذلك «أوباط» (Opat) أسقف مدينة «ميلاف» (Milev) ببلاد نوميديا. لكن زعيم المتصدّين لمذهب الدوناتيه وعدوهم الألدّ هو بدون منازع القديس أغسطونيوس (Saint Augustin).

مشكاة مسيحيّة

والأمر الذي يميّز الكتاب المسيحيين هو أن الأدب بالنسبة إليهم ليس مجرّد لهو فكري، أو «ترفيه» ممتع أو وسيلة لتشريف الأمراء وكبار القوم بإنتاج مواهبهم. بل إنهم كانوا يؤمنون صادق الإيمان بما يقولونه. وكانت روحهم هي التي تتحدث، وكان كامل كيانهم الأخلاقي والمعنوي مدرجا ضمن كتاباتهم وقد كان الأدب عندهم وسيلة عمل وفعل، ومحركا للتأثير في النفوس ودفعها في طريق الإيمان.

وقد أمكنهم بفضل دعوتهم المتحمسة للإيمان ودفاعهم الحارّ عن الدين أن يساهموا في إحياء الأدب اللاتيني وفي تجديد فنونه وأغراضه.

بيبليوغرافيا :

- Pierre de Labriolle, Histoire de la littérature latine Chrétienne, Coll. Guillaume Brudé, 1947.
- Paul Monceaux, Histoire littéraire de l'Afrique Chrétienne.

كنيسة القوسات
آية من آيات الفن المسيحي المبكر

فتحي البجـــاوي

انتشرت المسيحية في عهد مبكّر بالتراب التونسي الحاليّ وتطوّرت تطوّرا سريعا منذ نهاية القرن الثاني كما تدلّ على ذلك شهادات النصوص في تلك الفترة، وخاصة كتابات ترتوليان (Tertullien) (المتوفّى سنة 220) والقديس سيبريان (Saint Cyprien)، أسقف قرطاج الذي استشهد سنة 256 والقديس أوغستين (Saint Augustin) (354-430). ولقد انضافت إلى شهادات النصوص هذه شهادات علم الآثار. ذلك أنه تمّ التعرّف في مواضع مختلفة من البلاد على عدة بقايا من كنائس مسيحية مع توابعها أحيانا (بيوت عماد أو مواهف أو مصلّيات). ويمكن إلى الآن، زيارة خمس أو ستّ كنائس في موقع واحد (قرطاج، سبيطلة، تلابت، حيدرة...). كما تمّ العثور في هذه الكنائس على عشرات المبلّطات البديعة التزويق بالفسيفساء، منها ما اكتشف بكثرة حتّى السنوات الأخيرة -خاصّة في الوطن القبلي وساحل البلاد الشرقي- من مبلّطات الفسيفساء القبرية التي تغطي القبور وتحمل شواهد مزخرفة بأشكال طيور أو نباتات أو وجوه إنسانية (في طبرقة).

ومن الكنائس المكتشفة إلى حدّ الآن ما وصلنا في حالة من الحفظ جيّدة (حيدرة، سبيطلة، الكاف...). لكنّ أبدعها مشهدا كنيسة القوسات في جهة تلابت (بالوسط الغربي من البلاد التونسية) على حدود تونس والجزائر.

ولإسم هذا المكان دلالة وصفية إذ المقصود بالقوسات الأقواس، وسبب هذه التسمية تراصف أروقة في حالة جيّدة من الحفظ.

ولئن كانت هذه الكنيسة معروفة منذ أواخر القرن الماضي فإنها لم تكن تزار ولا تذكر في المؤلّفات المختصّة إلاّ نادرا. لكنّ الحفريات الحديثة التي أجريت غيّرت الأوضاع فتسنّى بذلك إخراج الموقع عموما والمعبد خصوصا- من العزلة التي كانت تغمرها.

الكنيسة

طول كنيسة القوسات 33 م وعرضها 11,40م ويبلغ عرض جناحها الأوسط عرض أروقتها الجانبية تقريبا (حوالي 3,10 م). وهي خاصيّة كنائس الجهة (بينما يكون الجناح الأوسط عادة أعرض في جهات أخرى). وكان الدخول إلى هذا المعلم يتمّ بواسطة كنّة تقع في الجنوب الغربي. أمّا صدر الكنيسة الذي يتمّ الوصول إليه بواسطة مدرج فهو يقع في الشمال الشرقي. ويحتلّ موقع الخورس الصفوف الثلاثة الأخيرة من الجناح الأوسط. وكانت هذه المسافة مخصصة في الأصل لرجال الدين، تفصلها عن بقية المعلم حواجز عثر على أعمدتها وركيزتها. أمّا بلاط المذبح فهو مفقود والمفروض أنه كان يوضع داخل هذا المكان المسيّج، كما يتجلّى ذلك من الآثار الباقية فوق الأرضيّة.

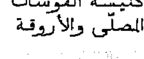
كنيسة القوسات
الرواق الأوسط



توابع الكنيسة

في كلّ جهة من جهتي صدر الكنيسة تمّت تهيئة غرفتين مستطيلتين تنفذان إلى الأروقة الجانبيّة. واتضح أن الغرفة الواقعة في الشمال الشرقي هي الأجدر بالإهتمام، ذلك أن الحفريات الحديثة كشفت عن حوض معمدية من النمط المستدير به مجموعتان من المدارج المحاطة بقواعد تحتية لأعمدة كانت بلا شك تحمل ظلّة المذبح (Ciborium). كما تمّت تهيئة ثقبة صغيرة في قعر الحوض كانت تصلح لتفريغ الماء. وإلى جانب حوض العمودية هذا اكتشف بلاط مذبح مستطيل الشكل قائم على ثلاثة أعمدة صغيرة وبه ستّ قويسات (1م على 0،75م) ولئن كانت الأمثلة على وجود بلاط مذبح قرب حوض العمودية ليست كثيرة جدّا، فإنّ هذا الجمع بينهما طريقة للتذكير بالخلاص الذي تمنحه العمودية.

ولقد اكتشفت مجموعة غرف أخرى تابعة للكنيسة على طول الرواق الجانبي في الجنوب الشرقي. وتنفذ هذه الغرف إلى ذلك الجزء من الكنيسة. وكان مدخل إحداها موسوما بقوس اكتشفت عناصره من الحجر الكلسيّ في الردم. ومن بين هذه العناصر حجارتان تحملان نقيشة لاتينية كتب عليها :


كنيسة القوسات
المصلّى والأروقة



(anno vicesimo vi domni)

أو (dom (i) ni regis Tasamundi)

عوضا عن (T (r) asamundi).

وهذه ترجمتها :

السنة السادسة والعشرون من عهد الملك تراسامند.

وتراسامند هذا ملك وندالي حكم إفريقيا القديمة مدّة 27 سنة (من 496 إلى 523). فالسنة السادسة والعشرون من عهده تناسب إذن سنة 521 م.

وهكذا فإنّ تاريخ هذه النقيشة هو تاريخ تهيئة غرفة واحدة على الأقلّ من هذه الغرف التابعة للكنيسة، وقد اتضح أنّها مصلّى إذ عثر فيها على مذخرين من الحجر الكلسي وضع أحدهما فوق الآخر، إلاّ أنّهما كانا مع الأسف فارغين عندما تمّ الإكتشاف.

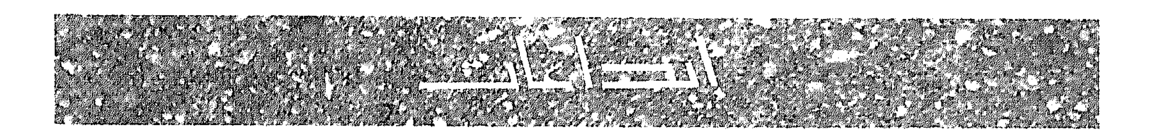
وهكذا فإننا بإزاء مجمّع تعبّدي مسيحيّ يحوي كنيسة وبيت تعميد فيه بلاط مذبح وأخيرا مصلّى لأحد الشهداء أو القدّيسين، وبالإضافة إلى ذلك نقيشة تبيّن تاريخه. ذلك أنه من النادر جدّا العثور على نقائش من العهد الوندالي ليست من النوع المأتمي.

ومن شأن هذا الإكتشاف لموقع القوسات وكنيستها أن يثري خريطة الكنائس المسيحية التي استخدمها الوندال. وهي خريطة مازالت فيها فراغات كثيرة.

ويعزى هذا النقص إلى سببين :

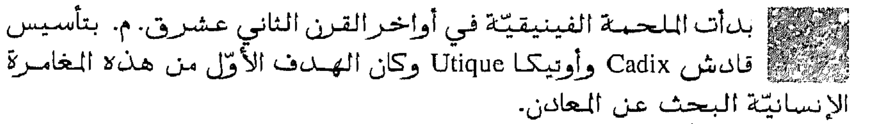
- قلّة الإكتشافات النقوشية من ذلك العهد.

- استخدام الوندال لكنائس كاثوليكية مبنية من قبل وخلوّ الهندسة المعمارية الوندالية من الطرافة. وهي طرافة كان يمكن أن تميّز المستخدمين : الأريون أم الكاثوليكيّون !



انتشار الألفباء في غربي البحر الأبيض المتوسط وفي تونس

منصور غــــاقي



بدأت الملحمة الفينيقيّة في أواخر القرن الثاني عشر ق. م. بتأسيس قادش Cadix وأوتيكا Utique وكان الهدف الأوّل من هذه المغامرة الإنسانيّة البحث عن المعادن.

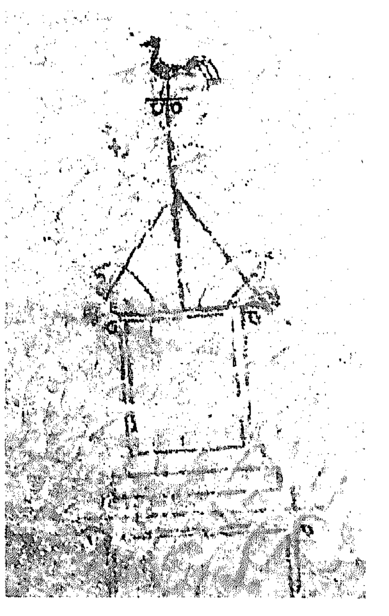
ولقد تمكّن الفينيقيّون عند محاذاتهم للسواحل المتوسطيّة من ربط الصلة بين الشرق المتمدّن بتنظيماته وثقافته المزدهرة وبين الغرب الذي لم يكد يخرج من العصر الحجري الأخير. ولا غرابة أن تحدث هذه الإتصالات انقلابا عظيما في الغرب المتوسطي، كان من أبرز مظاهره تأسيس مدن سرعان ما أصبحت مراكز تبثّ أساليب جديدة في العيش والثقافة والمعتقدات.

ويندرج انتشار الكتابة في هذا الإطار. ومن المؤكّد أن شعوب غربيّ البحر الأبيض المتوسّط كانت لها أساليبها الخاصّة في التعبير. ولا أدلّ على ذلك من تلك الرسوم المنحوتة في الصخور والتي نعثر عليها في أماكن عديدة، وماهي في الواقع إلاّ طريقة من طرق «الكتابة».

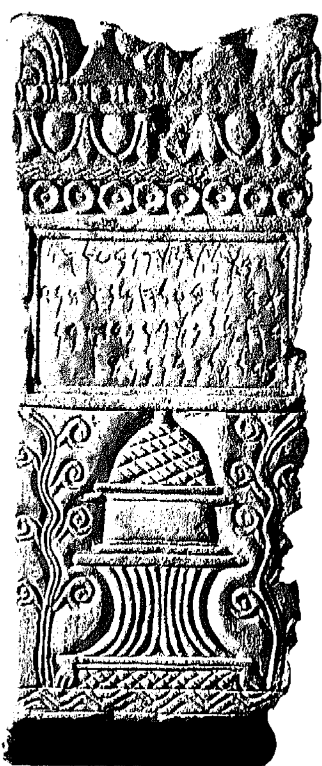
وتبدأ المغامرة الحقيقية في واقع الأمر، بتدخّل الكتابة. ومنذ فجر التاريخ كان الكائن البشري «يكتب». وما رسوم التاسيلي Tassili وغيرها إلاّ رسالة أو «كتابة».

والكتابة التي نعرفها اليوم حصيلة تطوّرات تمّت على مدى آلاف السنين.

رسم حائطي
جبل غابوس



ولهذه المغامرة مراحل كبرى هي :
أ - الكتابة التأليفيّة
ب - الكتابات التحليلية أو الرمزيّة :
- العلامة الصوريّة أو الكتابة الرمزيّة (مثل الحروف الهيروغليفية بمصر) مع بداية الألف الثالثة قبل المسيح.
ج - المقطعيّة :
- العلامة الصوتية أو الكتابة الصوتية (مثل المقطعي والمسماري بسومر Sumer) في الألف الثالثة قبل المسيح.
د - الكتابة الصوتية الساميّة (أوغاريت Ugarit، سوريا) مع أواسط الألف الثانية قبل المسيح.


مسلة بونية

وهي بداية الالفباء الذي عرّفه عالم كبير في الحضارات الساميّة ج.ج.. فيفري J.G. Février بقوله : «إنّ الألفباء كتابة تحليليّة تحلّل كلّ كلمة إلى عناصرها الصوتيّة التكوينية من صوامت ومصوّتات، بتخصيص علامة لكلّ عنصر من هذه العناصر، سواء في ذلك الصوامت أو المصوّتات، بما يسمح أخيرا لأيّ كان، أن لا يتعرّف على كلمة معروفة لديه فحسب وتفكيكها إلى أجزائها الأساسيّة، بل بما يسمح له حتّى إذا كان يجهل اللغة التي تنتمي إليها هذه الكلمة بالإهتداء تقريبا إلى التلفظ بها».


مسلة بونية

وينطبق مصطلح الألفباء بالضبط على اليونانية التي اشتقّت إلى حدّ كبير من الفينيقيّة -ذات الكتابة الصوتية الصرفة- والتي تخالفها في كونها تشتمل على مصوّتات متميّزة عن الصوامت. أمّا الكتابات الساميّة مثل العربيّة أو العبريّة فإنّها احتاجت إلى نظام تصويتي «خارجي» عن الألفباء نفسه.

وبفضل الفينيقيين واليونانين عرف الغرب المتوسّطي الكتابة، ذلك أنّ هذين الشعبين المشهورين بكثرة التنقل والترحال لم يقتصرا على نقل حضاريتهما إلى تلك الربوع بل نقلا أيضا لغتيهما وكتابتيهما.

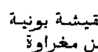
ويبرز الجدول الملحق مسيرة هذه المغامرة. وعن اليونانية نشأت بالخصوص الأترورية وبالأخصّ اللاتينية. أما الفينيقية التي آلت إلى البونية في العهد القرطاجي، فقد استقرّت في كامل الإمبراطوريّة القرطاجيّة، ومنها اشتقّت كتابات مثل اللوبية والايبيرية.

وفي تونس بدأت مغامرة الكتابة بمجيء الفينيقيين (تأسيس أوتيك سنة 1101 وقرطاج سنة 814 ق.م.). وقد عرفت تونس تقريبا أغلب الكتابات التي راجت في غربيّ البحر الأبيض المتوسّط :
- الكتابة الفينيقيّة-البونية :
أدخلت هذه الكتابة في بداية القرن العاشر قبل المسيح وستبقى إلى القرن الأوّل بعد المسيح. ولقد راجت عند السكان الأصليين وأصبحت الكتابة الرسمية للملوك النوميديين شأنها في ذلك شأن اللوبيّة.

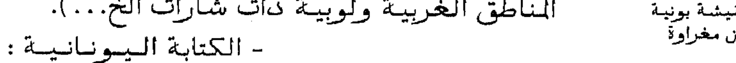
- الكتابة اللوبية :

بدأ استعمالها في القرن السادس ق.م. وهي باقية إلى يومنا الحاضر في منطقة محدودة جدّا (تيفيناغ الطوارق بالنيجر ومالي وكذلك جنوب الجزائر). هي كتابة السكان الأصليين ويبدو أنّها استعملت في المعالم وأساسا في الأنصاب المأتمية. ولا شك أنّ اللوبية مشتقّة من الفينيقية وأنها تعبّر عن اللغة البربرية العتيقة، لكنّ العديد من جوانبها مازال لغزا محيّرا. ويمكن تفسير هذه الجوانب الغامضة بطبيعة النصوص اللوبية التي وصلتنا، فهي قصيرة جدّا لا تتجاوز في الغالب كلمتين أو ثلاثا، كما يمكن تفسيرها بضياع اللغة البربرية القديمة واندثارها. ويبدو أنّ ما نلمسه منذ العصور القديمة من تفكّك إقليمي في عدّة ميادين قد أصاب اللغة أيضا، فلا نبالغ إذا قلنا إنّ لهجات بربرية كثيرة كانت رائجة وهو ما يفسّر كثرة الألفباءات اللوبية وتنوّعها (لوبية دقة والمناطق الشرقيّة، ولوبيّة المناطق الغربية ولوبية ذات شارات الخ...).

مسلة بونية

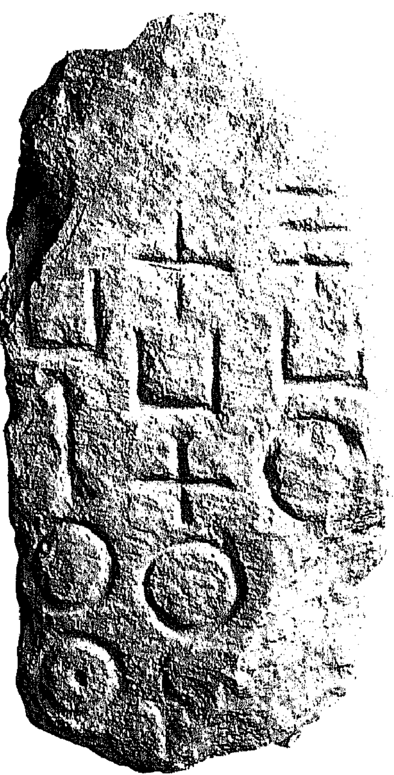


نقيشة بونية من مغراوة



- الكتابة اليونانية :

كانت العلاقات بين قرطاج واليونانيين مستمرّة وكانت جاليات من اليونانيين تعيش في مدن فينيقيّة بونية وخاصّة في قرطاج حيث نقل اليونانيون لغتهم وكتابتهم ولم يزل بزوال قرطاج سنة 146 ق.م. ذلك الحضور اليوناني وبقيت مستعملة إلى نهاية العصور القديمة.



- الكتابة العبرية :

حلّ اليهود بتونس، نتيجة تشردهم وتشتّتهم منذ القرون الأولى للعهد المسيحي ولذا ما فتئت اللغة والكتابة العبرية مستعملتين في بلادنا، ولا أدلّ على ذلك من مثال واحد : البيعة الغريبة بجربة التي مازالت مزارا للحجيج، ومازالت أنصاب مأتمية بالعبرية محفوظة في مدّخرات التراث التونسي.

- الكتابة الأترورية :

لم نحتفظ إلاّ بنصّ أو نصّين. ولكن من المعلوم أنّ علاقات ممتازة كانت قائمة منذ القرن السادس ق.م. بين قرطاج والأتروريين.

ولقد جرّت العلاقات المتواصلة على مدى قرون مبادلات اقتصاديّة وكذلك بشرية. وليست الغرابة في وجود الكتابة الأترورية بتونس بل الغرابة في احتفاظنا بهذا العدد القليل من النصوص الأترورية.

- الكتابة اللاتينية : .

بحلول اللاتينية أصبحت تونس أرض كتابة. ولقد وصلتها آلاف النصوص من أجناس مختلفة ومازلنا نكتشف منها باستمرار. ولا تعين



فسيفساء كتب عليها باليونانية اسم تيودول عثر عليها بسوسة (حضرموت سابقا). القرن السادس بعد المسيح

هذه الغزارة وهذا التنوّع على دراسة تاريخ تونس فحسب وتاريخ إفريقيا وقتئذ في تلك الفترة بل تسمح أيضا بفهم سياسة رومة تجاه السكان الأصليّين من إفريقيا أو من خارجها وتكشف القناع أحيانا عن بعض الأسرار الغامضة في التاريخ الروماني.

- الكتابة العربيّة :

دخلت اللغة العربيّة بدخول الإسلام بفضل الفاتحين المسلمين. وبدأ نشر الإسلام ونشر العربيّة في أواسط القرن السابع م. مع دخول الجيوش الإسلاميّة الأولى. وانتهت المقاومة البربريّة المسلّحة في أواخر ذلك القرن. والعربيّة هي اللّغة التي كتب بها القرآن وهي اليوم لغة التخاطب والكتابة الرّسمية في تونس.

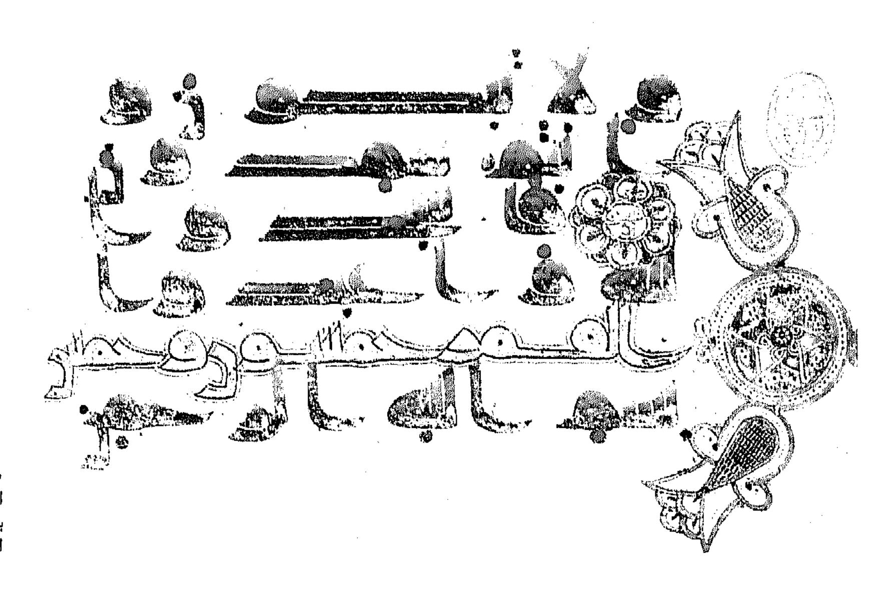
وبحكم موقعها الجغرافي المتفتّح على العالم المتوسطي كان لا بدّ لتونس أن تتفتح على مختلف المراحل الحضارية التي عرفتها هذه الجهة، والكتابة جزء منها لا يتجزّأ. ومع الأسف يوجد تفاوت كبير بين ما عرفته بلادنا وبين ما احتفظنا به من آثار. ولقد أدّت ظروف الإحتفاظ والتقلبات السياسية المذهبيّة إلى زوال الحضارات السابقة بمجيء الحضارات اللاحقة. والأمثلة

على ذلك كثيرة : فقد جرّ تدمير قرطاج تلف آدابها، وجرّ انتشار المسيحية في إفريقيا إقصاء كلّ ما هو وثني، وتجاهل المسلمون كلّ ما سبقهم، الخ...



نقيشة لاتينية

وعلى كلّ فما زلنا نحتفظ بعشرات الآلاف من الوثائق المكتوبة وخاصّة منها الأنصاب المنقوشة باللوبية والبونية والبونية المحدثة واللاتينية والعربيّة، والعديد منها بالعبرية والبعض باليونانية، ومازلنا نكتشف بانتظام وثائق جديدة. وما ذلك إلاّ دليل على أنّ المغامرة متواصلة وعلى أنّه يمكن لتونس أن تعتبر نفسها أرض كتابات.



صفحة من القرآن الكريم محفوظ بمتحف الفنون الاسلامية برقادة

حنبعل

محمّد حسين فنطر
و زهرة الشريف

إن الذين صنفوا كتبا حول شخصية حنبعل استقوا معلوماتهم من مصادر يونانية ورومانية من بينها بوليبيوس (POLYBUS) وتيت ليف (TITE LIVE) و(CORNELIUS NEPOS) الذي تحدث عن عبد ملقرط وابنه حنبعل في كتابه حول الشخصيات الجيدة فمصادرنا اذن أدبية لكنها لا تتصف بالموضوعية، وقد تجاوزت أحيانا الحقيقة التاريخية وشوهتها بإعطائها ألوانا مزيفة تختلف حسب الظروف السياسية والحضارية. وهذا لكره الرومان لقرطاج وقائدها الذي اقتحم ديارهم وجرّعهم كأس الهزيمة في وقائع عديدة من أشهرها واقعة كانة وواقعة ترازمان. ومن ذلك فعلينا استخدام هذه الوثائق القديمة بكل حذر واحتراز.

ولد حنبعل في المنتصف الثاني من القرن الثالث ق.م. أي حوالي 246 وكان أبوه عبد ملقرط يخوض معارك صقلية. وقد سجل انتصارات باهرة على الجيوش الرومانية. إننا نجهل كل شيء عن طفولة حنبعل خلال السنوات التسع الأولى من عمره ولكنه نشأ في مدينة جليلة وقوية رغم ما أصابها من خسائر وتقلص إمبراطوريتها بعد الحرب البونية الأولى وحرب المرتزقة وفراغ خزينة الدولة ومدخراتها.

ولا شكّ أنّ حنبعل قد فطر على الشجاعة وحبّ الوطن والجندية فكان قدوة الجند لما يتحلّى به من قوة وقناعة وصبر ومثابرة وشجاعة في ساحة الوغى ورمز الحكمة عند التبصر في الأمور والتفكير فيها. وقد بايعه الجيش سنة 221 ق.م. وهو لم يتجاوز سن الخامسة والعشرين من عمره.

حنبعل القائد العسكري

تسلّم حنبعل عصا القيادة خلفا لصهره عزربعل الذي مات بطعنة خنجر. وواصل حنبعل توسيع رقعة نفوذ قرطاجنة في إسبانيا مستخدما السيف تارة والحوار تارة أخرى لإخماد ثورة من لم يعترف بقرطاجنة أو يرفضوا حضورها وهذا مازاد في خوف الرومان من تلك السياسة التوسعية ودفعهم إلى العمل على إيجاد وسيلة للتصدي لها وجعل نهر الايبر حدّا لتوسع القرطاجيين في إسبانيا. وقد وجد مجلس الشيوخ في رومة ذريعة للتدخل في الشؤون البونية - الايبيرية لما استولى حنبعل على مدينة ساغنتة أو ساجنتوم (Sagonte) وحطم جدرانها انتقاما لاتباعه الذين قضى عليهم الرومان واعتبر ذلك عدوانا وتجاوزا للمعاهدة التي تحدد مناطق توسع القرطاجيين في إسبانيا. زد على ذلك أن الرومان لم يجدوا أذنا صاغية في قرطاج فكانت الأسباب التي حفت باندلاع الحرب البونية الثانية. وحول هذه الأسباب اختلف تأويل المؤرخين المعاصرين وكثر النقاش حولها تعصبا ومساندة لروما ضد قرطاج التي تنتمي إلى حضارة أخرى غير حضارتهم، واجدين بذور ذلك فيما نقلته الوثائق عن عبد ملقرط الذي أخذ من ابنه تعهدا لكره وعدوان روما طيلة حياته. وكان ذلك أمام مذبح بعل حمّون ولم يتعد حنبعل آنذاك التاسعة من عمره. واعتقد الجميع منذ القديم أنّ لذلك أثر عميق في نفس الطفل ونسوا تربية القرطاجيين لأولادهم وزرعهم في نفوسهم حبّ الوطن والتضحية من أجله بكلّ نفيس.

ويظهر أن هذا لا يكفي لاندلاع حرب. الواقع أن روما تريد تحطيم قرطاج وكسر شوكتها وفرض هيمنتها عليها، فرفض حنبعل الإهانة والتحدي وافتك المبادرة وكانت المسيرة عبر جبال البريني وجبال الآلب تلك المسيرة التي حيرت الجميع آنذاك ولا تزال تثير دهشة المعاصرين وإعجابهم وقد تحدّث عنها القدامى بإطناب واحتفظت بمكانتها ضمن مشاغل المؤرخين والأدباء.



صنم قد يكون يمثل حنبعل شابا عثر عليه بموقع فوليبوليس (المغرب الأقصى)

وقد انطلق حنبعل من قرطاجنة سنة 218 ق.م. على رأس جيش رهيب يعدّ ألف راجل واثنى عشر ألف فارس حسب ما أورده بولبيوس استنادا إلى نقيشة سطّرت بأمر من حنبعل على مذبح الالهة اليونانية هيرة عند زيارته لمعبدها الكائن على مقربة من المدينة الإيطالية قروطونة (Crotona) سنة 205ق.م. وقد عزز الجيش البوني بقطيع من الفيلة عددها سبعة وثلاثين عند عبور نهر الرون، ولكن الطقس البارد والثلوج عليها فلم يصمد من القطيع إلا واحد كان يمتطيه القائد لعبور المستنقعات. وعلى اختلاف عناصر الجيش من حيث الأصل واللغة والتقاليد لم تشر النصوص إلى تمرّد أو عصيان لأوامر القيادة وهذا يرجع إلى قوة الشخص وحسن مخاطبته لجنوده مهما كانت درجتهم ولم تكن له صعوبة في تعويض الخسائر من رجال وعتاد مستندا في ذلك على الكلمة الطيبة والموقف المشرف. لذلك وجد في إيطاليا أثناء المسيرة

الكبرى من انضم إلى وحداته وشارك في المعارك التي خاضها الجيش القرطاجي حتى النصر منها معركة تيسينو ومعركة تريبية وكانت كلتاهما سنة 218ق.م. ومن أشهر المعارك التي برزت فيها عبقرية حنبعل تلك التي ألقت بالجيش الروماني في مياه بحيرة ترازمانة سنة 217 ق.م. وأخرى كتبت الخلود لمدينة قانة. وقد تجلت قدرات حنبعل خاصة في معركة قانة التي كتب عنها الكثير ولا تزال تدرس في المدارس الحربية كنموذج في التقنية الحربية والانسجام بين القائد وجيوشه المنضبطة. وهي لدليل على ثقافة القائد وسعة علمه بفنون الحرب والقتال.

وكان له خبراء عديدون يمدّونه بالتقارير حول المحيط الجغرافي والتوبغرافي والظروف المناخية. هذه المعلومات التي تفيده في تحضير معاركه القادمة كما كان يسعى في الحصول على أخبار تخص الشعوب وعاداتها وتقاليدها ومختلف حساسيتها فقد تساعده على سبك مشاريعه والخطط الحربية وتطورها وتحويرها عند الإقتضاء الأمر الذي كان يحيّر الجيوش الرومانية وقوّادها مثل شيبون وفلامينوس (Scipion, Flaminus) ومنهم من وقع في فخ وضعه له حنبعل بكلّ حنكة وإتقان. وكانت له حيل حربية أدهشت القدامى والمؤلفين المعاصرين فلا يترددون في توشيح كتبهم ودراساتهم بها مثل حيلة «النيران الملتهبة على رؤوس الثيران الشاردة» وقد استعملها حنبعل لعبور ممر ضيق بين الجبال سيطر عليه الرومان فأمر بجمع أغصان أشجار يابسة وأضرم فيها النار وشدها على قرون ألفي رأس ثور ووجهها نحو معسكر الرومان ليلا فتركوا مواقعهم وتفشى فيهم الخوف والهلع وتركوا أماكنهم وتمكن الجيش البوني من عبور الممر بسلام وفك الحصار المضروب عليه.

ولحنبعل حيل أخرى عديدة تثبت عن حذقه وخصوبة الخيال عنده على أن الخطط الحربية وتصاميم المعارك كان يضعها بتشريك الضباط والمساعدين مهما كانت درجتهم. ومن ميزاته أنه كان يحسن طرح السؤال ويحسن الإستماع والإستفادة من آراء غيره. وكان يقبل على التعاون والتحالف مع الملوك الأجانب مثل ملك مقدونيا سنة 215ق.م. ونجد نصّ المعاهدة في كتاب بولوبيوس وتعرف باسم «قسم حنبعل».

تلك هي سلوك القائد القرطاجي ومواقفه فهي ذخيرة أسرار لانتصاراته التي سجلها أثناء إقامته في إيطاليا فيما بين 218 و 203 ق.م.

النص الثنائي اللوبي البوني في ضريح أتبان (Atban) بدقة

منصور غـــاقي

إنّ النّصب الموجود حاليا بالمتحف البريطاني بلندن قد اقتلع عمدا من الضريح سنة 1846 من قبل القنصل الإنقليزي بموافقة السلطات التونسية آنذاك. وفي مطلع القرن تمّ ترميم الضريح الذي تعرّض إلى ذلك التخريب، وهو يعتبر بحقّ رمز الحضارة اللوبية البونية.

يحتوي النص اللوبي على سبعة أسطر ويطابق تماما النصّ البونيّ الذي يحتوي هو أيضا على سبعة أسطر. والكلمات منفصلة بنقط، فمن أوّل نظرة نلمس بسهولة حرصا على «التصنيف» إذ يوجد «عنوان» وهو السطر الأوّل الذي يتميّز عن الباقي بفضاء صغير و«فقرتان» تحتوي كلّ واحدة منهما على ثلاثة أسطر.

ولقد سمح تجاور الكتابتين والتطابق التامّ بينهما بتدوين الألفباء اللوبي بدقة، وتمثّلت «الأحجية» في التعرّف على أسماء الأعلام وفي المطابقة بين العلامات اللوبية والحروف البونية والتثبّت أخيرا من صحّة عمليّة التدوين من أوّلها إلى آخرها.

ماذا يقول لنا النصّ ؟

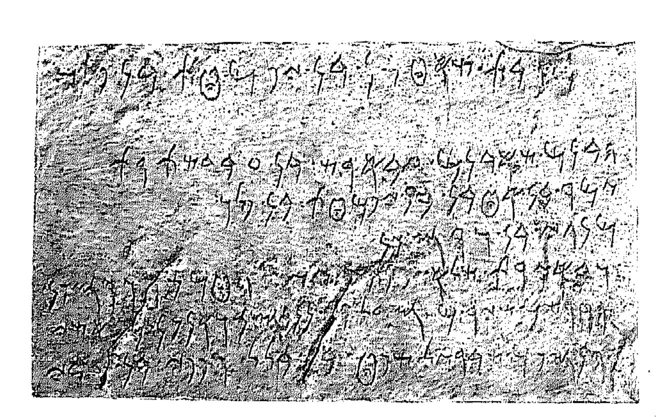
أوصى بالعمل كلّ من أبدريس ابن أبدسترت، ز م ر ابن أتبان ابن ي م ب ت ابن ب ل و و م ن ج ي ابن ورس ك ن.

قام بالعمل كلّ من ت ززي، ت م ن و و رس ك ن

النجّارون : م س د ل ابن ن ن ف س ن و ن ك ن ابن س ي

الحدّادون : س ب ت ابن ب ل ل و ب ب ي ابن ب ب ي



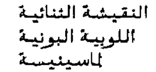


النقيشة الثنائية اللوبية البونية لضريح دقة (محفوظة بالبريتش ميوزيوم بلندن)

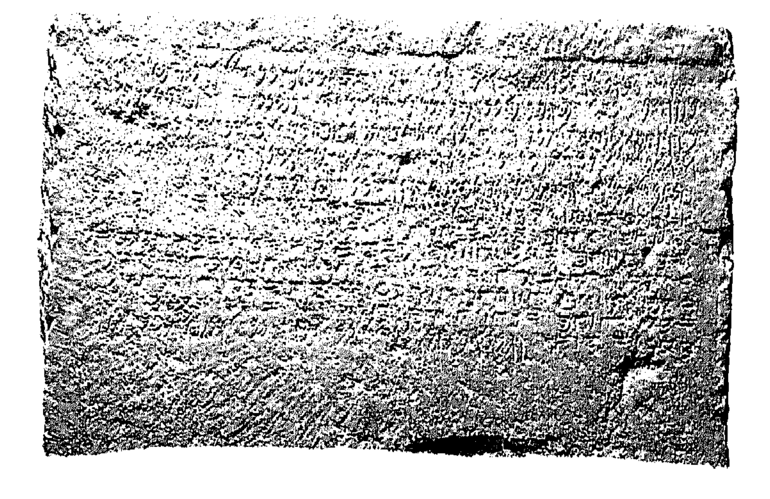
هذا النصب المندمج في المعلم يذكّرنا باللافتات الإشهاريّة التي يستعملها أصحاب الأعمال في عصرنا الحاضر، وفي ذلك -ولا شكّ- عناية بالإعلام ولكن خصوصا إعلان للفخر أي في نهاية الأمر عجب وغرور. ومن هنا نستقي معلومات عن بعض العقليات في أواسط القرن الثاني قبل المسيح.

ثمّ إنّ الإزدواجيّة اللّغويّة في هذا النّص لها دلالاتها. ولئن كنّا اليوم لا نتعجّب من هجوم الإزدواجيّة اللغوية علينا، وأحيانا التعددية اللغوية، فلا بدّ من أنّ الأمر كان نادرا في ذلك العهد. وعلى كلّ فقد أراد من أوصى بالعمل أن يكون النصّ ثنائي اللغة مكتوبا بالبونية، لغة «النخبة» في التخاطب والكتابة وباللوبية، لغة سواد الشعب. ويبدو أنّه كان بين هاتين اللغتين تعايش سلمي مما يعطينا فكرة عن مدينة دقة وأهلها، إذ كانوا في أواسط القرن الثاني ق.م. لوبيين وبونيين.

وزيادة على المعلومات التي يقدمها لنا النصّ عن الفقيد وعن الآخرين نجد قائمة طويلة من الأسماء تثري علم الأسماء اللوبية وتعطينا فكرة عن الحرف الموجودة في ذلك العهد من مهندسين معماريين وبنّائين ونجّارين وحدادين، الخ...



النقيشة الثنائية اللوبية البونية لماسينيسة



وباستعراضنا للأسماء، نلاحظ أسماء بونية إلى جانب أسماء لوبية، إذا كانت الفئات الإجتماعيّة في دقة متمازجة وكان اللوبيون و البونيون يعيشون جنبا إلى جنب.

كما يظهر هذا التنوّع والتعدد في الحصيلة المعمارية التي أرادها من أوصى بالعمل.

وعندما نتأمّل الضريح نفسه نجلب انتباهنا :

- أهميته، ممّا يجعلنا نعتبر أنّ صاحبه لا يمكن أن يكون إلاّ شخصية على جانب من الثراء والشهرة والأغلب على الظنّ أنّه كان أحد أعيان المدينة. ونجد في نصّ آخر



ضريح أتبان بدقة

من نفس الفترة معلومات عن مستوى التنظيم السياسي والإداري الذي بلغته دقة، ويتسنّى لنا من خلال بعض الشهادات الأثريّة والأدبيّة أن نقول إنّ دقة كانت مدينة هامّة وثريّة ولا شكّ أنّ أتبان كان أحد صانعي هذه الثروة.

- طرازه الذي يصفه الأخصائيّون بكونه إغريقيا، ذلك أن هذا الضريح يعكس عقلية من أوصوا ببنائه ويمثل «موضة» ذلك العصر. ويتركّب المعلم من ثلاثة طوابق تعلوها قمّة هرمية وهو مشيّد على قاعدة ذات خمس درجات، فهو عريض الركيزة، يستدقّ شيئا فشيئا إلى أن يبلغ تصاعديا ذؤابة القمّة الهرمية ممّا يكسبه جمالا ورشاقة لاحظهما كلّ من شاهدوه.

وبالنسبة إلى الزائر الذي ينظر إلى ضريح دقة من أسفل إلى أعلى، فهو يظهر كالتالي:

- الركيزة وهي مرقاة ذات خمس درجات.

- الطابق السفلي الذي تزين زواياه عمد ذات تيجان أيونية الطراز، وبه نافذة من الجهة الشماليّة تفتح على غرفة قبرية.

- الطابق الثاني المشيّد على ثلاث درجات وينتهي بحصن خلفيّ على النمط المصريّ، تزيّن زواياه عمد إيّونيّة الطراز مضلّعة، وبه في الأصل نافذتان من الجهتين الشمالية والشرقية.

- الطابق الثالث المشيّد على ثلاث درجات تقطع زواياها مراق تحمل تماثيل فرسان منهدمة. وتوجد عند زوايا الطابق الثالث في حدّ ذاته تيجان مزخرفة بأزهار اللوتس، والكلّ مغطى بحصن خلفيّ على النمط المصريّ.

- القمّة الهرميّة المحصّنة في زواياها بأربعة تماثيل لنساء مجنّحات حاملات كرة بيدهنّ اليسرى. والكلّ منهدم بمفعول التقلّبات الجويّة على مرّ الدّهور. وفي أعلى القمّة أسد جاثم.

وفي أواسط القرن الثاني قبل المسيح كان الدارسون على اختلاف مشاربهم يرجعون إلى الحضارة اليونانية والحضارة الفينيقيّة البونيّة. ولقد استقت هاتان الحضارتان في أوقات مختلفة من ينابيع الحضارة المصرية وتأثرتا بها.

بدايات الكتابة اليدوية الجارية

الهادي سليم

إنّ ازدهار الروح اللاتينية الإفريقية، الذي اشتهر عند كل مؤرخي العصور القديمة، إنّما قام على أساس الجهود الجبار المبذول في العهد الروماني في مجال التربية الشعبية، وكذلك على دوام التقاليد المدرسية الكلاسيكية التي استمرت حتى سقوط الحكم البيزنطي. وإلى هذا الإستمرار الطويل في النزعة الكلاسيكية الإفريقية ينسب عدد من التأثيرات الهامة في الثقافة الغربية. فقد يكون دخول عدد من المثقفين من إفريقية إلى بلاد غالية، وإلى إسبانيا وجنوب إيطاليا على وجه الخصوص، حاملين معهم مخطوطات ثمينة، هو الذي هيأ لتكوين الرصيد الذي سوف يغذّي فيما بعد النزعة الإنسانية التي سادت في العصور الوسيطة. هذا وقد كتب أحد المؤرخين المعاصرين مؤكدا على الدور الفائق الذي لعبته المدرسة الإفريقية في تبنّي الكنيسة اللغة اللاتينية. فقال «ولئن كانت اللاتينية اليوم هي اللغة الطقوسية للكنيسة الكاثولوكية ولئن كان هذا التبني بالنسبة إليها مصدر مجد يساوي على الأقل ما وفّرته لها ستة قرون من النزعة الإنسانية في الفكر، فإنّ اللاتينية مدينة بذلك إلى رجال إفريقية من كتاب القرن الثاني والثالث».

وإلى جانب ذلك فمن الأمور التي أصبحت تتأكّد أكثر فأكثر إننا مدينون للـ«معلّمين» الأفارقة الذين عاشوا في تلك الفترة بحدوث ثورة تقنية لا تزال آثارها بادية في العالم الغربي. وفعلا، فإلى نهاية القرن الثاني بعد الميلاد كان نوع واحد من الحروف يستعمل في مجال الكتابة : ذلك أن النقاشين والناسخين كانوا جميعا يستعملون في الكتابة حروف الإستهلاك الكبرى. وكان يدخل على هذه الحروف الكبرى عند كتابتها على الألواح كثيرا من التغيير في الشكل مما يجعلها أحيانا متعذرة القراءة.

وقد حدث حوالي عهد الإمبراطور سيفيريوس (نهاية القرن الثاني وأوائل القرن الثالث)

ابتكار خطّ جديد أدّى إلى ظهور كتابة جديدة سميت «شبه مدورة» (Semi onciale) وهي حروف صغرى «تعتبر أصل الحروف الصغرى «الكارولية» (Caroline) التي استعملت في القرن التاسع، وبالتالي حروف الكتابة الخطية الجارية الحالية وحروف الطباعة الصغرى (Bas de casse).

وإنّ أقدم الوثائق التي تدلّ -في ما وصلت إليه معارفنا الحالية- على الشّروع في استخدام هذه الكتابة اللاتينية المحدثة هي مشهد جنائزيّ صغير لامرأة تدعى «بيكوت»، عثر عليه بضواحي «مكثر» بالبلاد التونسية، والنّقيشة الشعريّة الشهيرة «الحصّاد» المتأتية من نفس هذه المدينة ومختصر «تيت ليف» (Tite - live). المكتشف بمصر، والذي يفترض أنّ كتابته قد ظهرت في منطقة تطابق عمليّا منطقة تونس الحاليّة. وكلّ هذه الوثائق ترجع إلى القرن الثالث كما تفيد بذلك الأدلّة الأثريّة المستقلّة عن أيّة اعتبارات نقائشيّة، وتبيّن، بمعيّة عدة وثائق أخرى أحدث عهدا، أنّ مدرسة جديدة قد دربّت النسّاخ والنقّاشين على الكتابة بخطّ طريف لم يعهد من قبل. وهذا التغيّر في الكتابة يرتبط، في نظر الأخصّائيين، ارتباطا عضويا بالتطور المادّي الحاصل في شكل الكتاب القديم نفسه، ولا سيّما في انتقال هذا الكتاب من طور الرّقّ أو البرديّ الملفوف حول محور من الخشب، والمكتوب على ركبتي الناسخ مباشرة، إلى طور الكرّاس أو المصحف المؤلّف من أوراق مكتوبة فوق قمطر مائل يتمّ ربطها بعد ذلك من أحد جانبيها.

هذا وإنّ ظهور حروف الكتابة الصغرى البدائيّة والتقنية الكتابيّة الجديدة المرتبطة بها قد تمّ حينئذ، في ما يبدو، بالبلاد التونسيّة، حوالي نهاية القرن الثاني أو أوائل القرن الثالث بعد الميلاد.

نقيشة بيكوت
(منطقة مكثر)

أبوليوس الإفريقي
الفيلسوف والخطيب والشاعر والروائي

ليلى العجيمي السبعي

أبوليوس هو بدون ريب أحد الكتاب الأكثر تألقا وسطوعا، لكن الأكثر تستّرا وسريّة مع ذلك، في الأدب اللاتيني بإفريقية. فهو ساطع متألق بسبب كشفه عن جانب هام من حياته، وهو متستر ومحفوف بالأسرار، لأنه قد تعهد -لحاجة في نفسه بدون شك- أن يسكت عن الجوهري منها، في أثناء مجموعة من المؤلفات المتنوعة الممتعة المتميزة بالحياة والحداثة إلى حدّ غريب، والتي ما انفكت تثير التعاليق الوافرة التي غالبا ما تكون متناقضة بدون أن تكون قط نهائية (1).

شخصية خارقة عن المألوف

نهل أبوليوس من معين الثقافة المزدوجة اليونانية واللاتينية، لكنه ما تنكّر يوما لانتمائه إلى الأرض الإفريقية. وبصفته «نصف نوميدي ونصف جاتوليّ»، كما يذكر ذلك بنفسه (2)، فقد حافظ طويلا على لهجته الإفريقية المزعجة. وكان لا يعرف الكلل في عمله، وقد وهب ذكاءا حادّا، ورقة عميقة، وحركية فكرية كبيرة. وسوف يتميز بالخصوص بتطلّعه وتعطشه للمعرفة مما سوف يحمله على الأخذ من كل شيء بطرف (3)، ويجعله ينتقل بين مختلف البلدان. وباعتباره «سائحا» نيّرا، فإن أسفاره كانت فرصا للتعلم باستمرار، ولطلب المزيد دوما.

وكان أبوليوس شخصا مبهما ومزدوجا، يتميز في آن واحد بأنه بسيط ومتناقض، وبأنه على كل حال يجذب الناس ويحملهم على التعلق به كثيرا. وأن ما صنعه حوله معاصروه من هالة السحر التي لازمته قرونا طويلة، زادت بعدا إضافيا إلى ملامحه التي لم يكن ينقصها التعقيد، وذلك لأنه بلغ في تعطشه للمعرفة إلى حدود عالم السحر والخوارق بسبب

مطامحه الدينية الرفيعة جدا، وبسبب تصوّفه العميق والفعلي. فهذا أبوليوس الساحر، وأبوليوس الكاتب الرائع الإنتاج، والفيلسوف والشاعر والطبيب والموسيقار والملحن، والمحامي، والخطيب اللامع المحبوب من جمهوره، وكاهن اسكولاب، والكاهن الإقليمي، المبجّل المكرم في قلب قرطاج «عروس الإلهام السماوية بإفريقية وحورية الوحي والأسرار لشعب (4) المكتسين رداء «الطوجة»، وأبوليوس المتعبد الخاشع لإيزيس، والخبير بشؤون الديانات القديمة ذات الأسرار المحفوظة، وأخيرا أبوليوس الروائي، وقد يكون أوّل روائي حقيقي كتب القصة الطويلة في تاريخ الأدب الغربي.

بعض معالم الطريق في ترجمة حياته

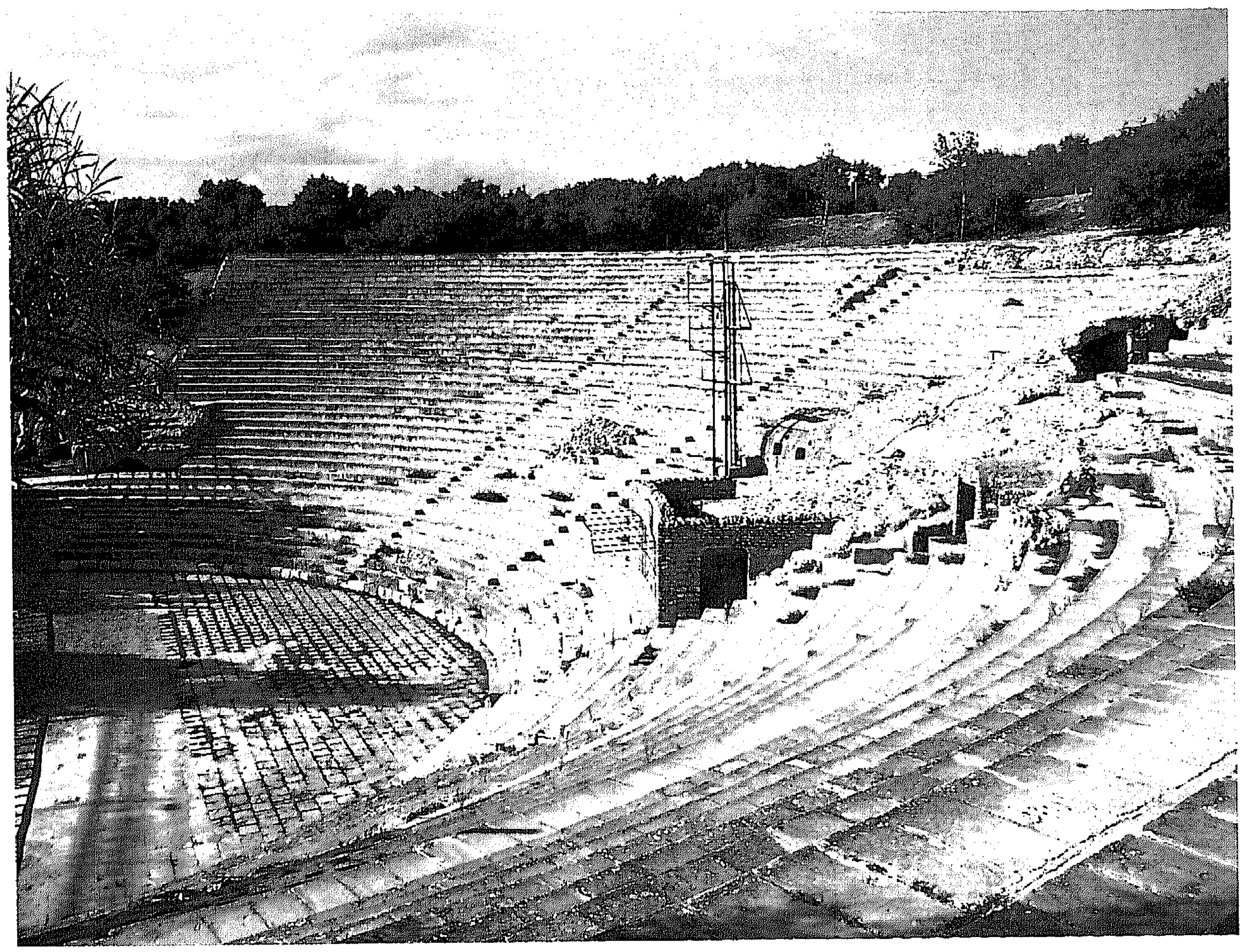
ولد «أشهر إفريقي في زمانه» حوالي سنة 125 للميلاد بمدينة «مادور» (وهي اليوم بالجزائر وتسمّى «مداوروش») (5) في أسرة ثرية تنتمي إلى البرجوازية الإقليمية (6). وبعد أن زاول التعلّم بالمدارس الإبتدائية بمسقط رأسه، أرسل -وهو لا يزال شابا- إلى مدينة قرطاج لمواصلة دروسه في علم البيان وفنّ الخطابة. لكن مدينة أثينا كانت تناديه بمدارسها الفلسفية الكبرى، فلم يلبث أن أبحر إلى اليونان حيث أقام سنوات عديدة. وقد أتاحت له هذه الإقامة بأثينا ملاقاة طلبة آخرين من الأفارقة مثل بونتيانوس أصيل «أويا» الذي سوف يصبح صهرا له فيما بعد. وانطلاقا من أثينا قام برحلات عبر منطقة «آتيك» وآسيا الصغرى والجزر (7). وقد عمد باليونان، على حدّ قوله، إلى «الشرب من كل الكؤوس» (8) وعلى الغوص في أسرار كل الأديان تقريبا (9). وبعد إقامة قصيرة بروما، حيث مارس مهنة المحاماة، عاد إلى إفريقيا. لكن الحنين إلى السفر عاوده فورا. وقد كان في طريقه إلى الإسكندرية حين أقعده المرض بـ «أويا».

وكان لملاقاته من جديد مع بونتيانوس زميله بأثينا، أثر حاسم بالنسبة إلى حياته. فقد تسبب له زواجه بأمّ بونتيانوس -وهي سيدة تكبره سنا، لكنها ذات ثروة واسعة- في أن يتهم بتعاطي السحر، وهي تهمة خطيرة كان عليه أن يجابهها ويدافع عن نفسه منها أمام محكمة صبراطة خلال مدافعة بارعة ولامعة معروفة باسم «أبولوجيا» (10).

ثم استقبلت قرطاج من جديد ابنها الضالّ. وهناك قضّى بقية حياته يحيط به الناس ويتقربون إليه، وأصبح المحاضر المفضّل والخطيب المعتمد والمتغني بمناقب المدينة وفضائل سكانها. وأقر مبدأ إقامة تماثيل له. وسمي كاهنا أكبر لمقاطعة إفريقية. وكانت قرطاج هي وطنه الحقيقي وأسرته الحقيقية، ولم تكن له من رغبة أخرى غير خدمتها وتعظيمها (11). وهناك نفقد أثره. ولابدّ أن يكون قد مات بتلك الربوع حوالي سنة 180 للميلاد.

مؤلفاته

ترك أبوليوس مجموعة هامة ومتنوعة من المؤلفات (12): منها مدافعة قضائية سميت «أبولوجيا» شكّلت نموذجا فريدا، أو يكاد، من البلاغة القضائية في عهد الإمبراطورية الرومانية؛ ومنها خطب أطلق عليها اسم «فلوريداس»، تدلّ على مدى مقدرته في مجال الخطابة وفي فنّ الجدل السفسطائي؛ ومنها كتابات فلسفية، مثل «في إله سقراط» و «مذهب إفلاطون» و «رسالة العالم»، وهي كتابات تذكرنا بأن منزعه الحقيقي هو أن يكون «فيلسوفا أفلاطونيا» وهي التسمية التي سوف تطلق عليه زمنا طويلا (13). ومن باب المفارقات أو سخرية الأقدار أنّه سوف يخدم هذه الفلسفة التي يحبّها وينتسب إليها أقلّ من خدمته سواها (14).



قرطاج
مدارج المسرح
الروماني

كتاب المسوخ أو الحمار الذهبي

هذا هو أهمّ مؤلفاته. وهو الذي يجسّم جيدا عبقريته الأدبية الحقيقية. وأن هذه الرواية التي تسببت في شهرة كاتبها قد أثارت في الماضي ومازالت تثير بالنسبة إلى النقد الحديث العديد من المشاكل (15) ومع ذلك فإن عقدة هذه الرواية بسيطة نسبيا. وهي تتلخص في أنّ الفتى لوسيوس الذي كان مسافرا إلى اليونان، مهد أسرة أمه، قد تمّ مسخه حمارا، بسبب فضوله المفرط، على يد ساحرة عجوز. وسوف يعيش، وهو في شكل حمار، عددا من المغامرات المثيرة والغريبة التي يتسبب فيها ويصبح شاهدا عليها وضحية لها. وبعد الإنحدار إلى أعمق درجات اليأس واجتياز العديد من التقلبات التي عرضت حياته للخطر، عاد هذا الحمار ذو الذكاء والعواطف البشرية إلى صورته الأصلية كإنسان بفضل عناية الإلاهة الكبيرة إيزيس. وينتهي هذا الكتاب في شكل نشيد يرتفع لتمجيد الآلهة وتعظيمها، ويحتوي رسالة فلسفية ودينية وهي أنه لا نجاة للإنسان إلا بفضل الشفاعة الإلاهية والعناية الربانية. ولا يزال هذا الكتاب الشيق دوما والحافل إلى أقصى حدّ باللمسات والنبرات يثير العديد من التساؤلات.

أبوليوس، أوّل روائي حق في الأدب الغربي ؟

وقد يكون أوّل هذه التساؤلات -وليس أقلها أهمية- هو التالي : هل تشكل «المسوخ» أوّل رواية حقّ في تاريخ الأدب ؟ وبعبارة أخرى، هل يكون أبوليوس هو مبتكر فنّ الرواية ؟ وهذا أمر لا جدال فيه فيما يتعلق بالأدب اللاتيني (16) ؛ وهو أمر لا شك فيه أيضا إذا ما اعتمدنا التعريف العام الذي يقوم لتحديد مفهوم الرواية التقليدية. ذلك أننا نجد بالفعل في هذا التأليف جميع «المقومات» التي تشكل مكوّنات وأسس الفنّ الروائي.

التقاليد الأدبية اليونانية اللاتينية

ويرتبط كتاب «المسوخ» لا محالة بتقاليد أدبية متعددة، منها أوّلا القصة «الميلاتية» اليونانية، وهي نوع من الخرافة المكتوبة نثرا والمقسمة إلى حلقات متعددة (17)، وربما ارتبط أيضا بالأقاصيص والنوادر اللاتينية (18). وقد استخدم هذان النوعان من الكتابة الأدبية في شكل نماذج مقتضبة. وكان الفضل لأبوليوس في توسيع هذين الغرضين الأدبيين.

وقد شهد اليونان لا محالة منذ القرن الثاني قبل الميلاد بعض محاولات في كتابة الرواية في شكل حكايات موروثة عن سنة رواية الأخبار الشرقية مشافهة. وهي سنة «تعتمد تاريخ الأمة والإهتمام بقضايا الحبّ المعقدّة» (19). والروايات اليونانية تقص علينا حكايات حبّ ذات مسحة «وردية» بسيطة، تكون نهايتها سعيدة دوما. أما رواية أبوليوس فهي من طراز مغاير تماما. فالحبّ بكل أشكاله وأصنافه حاضر في هذه الرواية، لكنها ليست مع ذلك قصة حبّ وإنما هي بحث في الحبّ (20).

ومن ناحية أخرى فإن أشخاص الرواية اليونانية هم أبطال بأتم معنى الكلمة، يسعون إلى بلوغ مثل أعلى : كالفضيلة أو الجمال أو الحكمة... أما أشخاص أبوليوس، فهم على عكس ذلك، حقيقيون وأكثر اتساما بالطابع البشري، مع ما في ذلك من مآس وأحزان. فنحن نجد فيهم جميع ميزات الإنسان من أسماها إلى أحقرها وأزراها.

أسس الفنّ الروائي

ونعثر في رواية أبوليوس على مقومات الفنّ الروائي. وهذا المؤلّف المكتوب نثرا في لغة سهلة رشيقة، حتى قيل أنه «نموذج رائع من الأسلوب القصصي الروائي» يتجه إلى جمهور واسع. ونجد فيه جانب اللهو والإيهام الخاص بفنّ الرواية، حيث يعمد المؤلف إلى عقد خيوط الوضعيات ثم حلّها، ويقوم على وجه اللهو ببناء الشخصيات مطلقا عليها من الأسماء ما يتماشى مع المقام الذي تشهده (21).

وكما هو الشأن في الرواية التقليدية، فإن كتاب «المسوخ» هو كتاب «تعليمي» يحدد لنفسه هدف «الكشف عن العالم» وأسراره. ويمزج فيه أبوليوس بين الأحداث الوهمية وبين الحقيقة المستمدة من الواقع اليومي ومن تصوير أخلاق عصره.

ونلاحظ كذلك في هذا الكتاب انصهار المؤلف مع الراوي، وبذلك يجمع أبوليوس جنبا إلى جنب بطله اليوناني لوسيوس وشخصه هو بالذات، حين يبرز هو بنفسه في آخر الكتاب باعتباره أصيل مدينة مداوروش (22). ومن المعلوم أن كتاب «المسوخ» ليس بمجرّد حكاية. فالكاتب لا يقوم هنا بسرد قصة على جمهور من الناس أو بوصف أحداث وظواهر، وإنما يسعى إلى النّفاذ إلى جوهر الأمور وإلى إنارة خبايا النفوس لدى أشخاص الرواية الرئيسيين. وإنه ليس من باب الصدفة أن يحمل بطل الكتاب اسم «لوسيوس» (اشتقاقا من لفظة لوكس (Lux) اللاتينية ومعناها : نور).

وأخيرا ومثلما هو الشأن دوما في الرواية التقليدية فإننا نجد مشروعا أو مقصدا يحرّك الكاتب ويدفعه، وهو الذي يشكل سلك تسلسل أحداث الرواية ويكوّن وحدتها. وفعلا فإن كتاب «المسوخ» هو رواية حول قصّة تكفير عن الذنب، وعودة إلى الحياة، وكشف عن الذات. إنها قصة ميلاد جديد حقيقي. فمسخ لوسيوس حمارا هو المسلك الضروري على درب «المريد» المزروعة بالمزالق والتي ينبغي أن تقود البطل نحو الكشف عن ذاته الحقيقية (23). وبذلك فإن كتاب «المسوخ» هو رواية مغامرات تجمع بين عدة حكايات متلاصقة، وهو عمل شهواني، ورواية واقعية المنحى، وهو كتاب حول السحر يخصص مكانة هامة للعجائب والخوارق، وهو كتاب ديني حول التكفير والإفتداء، وهو رواية عاطفية رقيقة، نعم رواية حول الحبّ، وهو في خاتمة المطاف عمل فلسفي عميق. وفي صميم هذا تكمن وحدته الجوهرية التي ليس لها مثيل ولا أنموذج أصلي تعود إليه أو تصدر عنه. وإن هذا التنوع هو أشبه ما يكون بالكاتب نفسه الذي يمكن أن نقول عنه، على غرار الفنّ اليوناني، أنه كان «سطحيا في نطاق العمق»، وهو ما يسمّى اليوم بالأصالة.

وبذلك فإن أبوليوس، مع مواصلته السنة الأدبية اليونانية واللاتينية، قد أنتج لأوّل مرة بتأليفه كتاب «المسوخ أو الحمار الذهبي» عملا ينتمي، سواء من حيث تركيبه أو من حيث مقصده ومرماه، إلى الرواية التقليدية. ومن هذا المنظور فإنه يمكن، بل ويجب، أن يعدّ مجددا مبتكرا، وأن يعتبر رائدا سباقا في مجال هذا الفنّ الأدبي الذي سوف يتطلب عدة قرون لكي يتمّ إقراره بالغرب.

هوامـــش وتعاليـــق

1) ثبت مراجع كثيرة حول أبوليوس. انظر كتاب (H.Pavis d'Escurac) في سلسلة (Les Africains)، الجزء V منشورات (Jeune Afrique) 1977، ص. 47-73.

2) أبوليوس، كتاب (XXIV, Apologie).

3) (S. Lancel) مقال بمجلة (Histoire des Religions) 1961، ص. 25-46، بعنوان (Curiosités et Préoccupations Spirituelles chez Apulée).

4) أبوليوس، كتاب (XX, Florides).

5) مستعمرة فلاقية من المقاطعة البروقنصلية ؛ انظر كتاب (S.Gsell و Joly) بعنوان (Khamissa, Mdaourouch, Announa)، ط. الجزائر وباريس 1922 ؛ القسم الثاني الخاص بمداوروش.

6) كان والد أبوليوس يشغل خطة (duumvir) (أي قاض سام) بمداوروش وترك لابنيه عند وفاته ثروة تقدر بمليونين من السسترساث. راجع كتاب (XXIV Apologie و XXII).

7) هذه الرحلات أوحت بدون شك إلى أبوليـوس كثيرا مما كتبه، وشكلت إطار مغـامرات بطل روايتـه Les Métamorphoses.

8) أبوليوس، كتاب (XX, Florides).

9) أبوليوس، كتاب (L.V. Apologie).

10) نسبة الساحر سوف تلاحقه طويلا، وسوف نجدها حتى عند الكتاب المسحيين في القرنين الرابع والخامس. انظـر: (Lactance, Inst. Div, V, 3, 7 و; Augustin, Ep, 2, 6, 33).

11) أبوليـوس، كتـاب (XX, Florides).

12) ذكر أبوليـوس نفسه أو من جاء بعده من الكتاب عددا كبيرا من المؤلفات التي لم تصل إلينا مع الأسف. انظر ما كتبه P. Valette في كتـاب Apulée Apologie Florides نشر (Les Belles Lettres) باريس 1971 صفحات XVIII-XVI.

13) Augustin كتاب Civ Dei XIV 30 - وراجع H. Pavis d'Escurac، الصدر المذكور ص 62.

14) للقيام بدراسة نقدية لمؤلفات أبوليوس الفلسفية، راجع P. Valette المصدر السابق، ص XV، و H. Pavis d'Escurac المصدر السابق، ص 62-66 (وقائمة المراجع).

15) فيما يتعلق بمصادر هذا الكتاب وتاريخ تأليفه (حوالي سنة 170 بعد الميلاد) ومعنى عنوانه وغير ذلك، راجع كتاب P. Valette, Apulée, Les Métamorphoses، نشر (Les Belles Lettres)، باريس، 1989، ص XXXVII-VII و H. Pavis d'Escurac، المصدر السابق ذكره ص. 66-71 (وثبت المراجع).

16) كتاب (Le Satiricon) للكاتب (Petrone) متقدم على كتاب «المسوخ» (Les Métamorphoses)، لكنه لم يبلغ ما بلغه هذا الأخير من الكمال. وقد قال (P. Grimal) في مقدمته لكتاب (Le Satiricon) المنشور من طرف (Librairie Générale de France) 1972 ما يلي «كتاب (Le Satiricon) يشكل رواية، هذا صحيح... لكن الرواية في العهود القديمة لم تظهر فعلا إلى الوجود إلاّ في القرن التالي حيث برزت وتأكدت ملامحها بروما مع ظهور كتاب «المسوخ» للكاتب الإفريقي أبوليوس».

انظر أيضا كتاب (Le Satiricon) للكاتب (Pétrone) في طبعة «كتاب الجيب» (Livre de Poche)، رقم 589، التمهيد ص (VIII).

17) ذكر أن أبوليوس قد اقتبس بنية روايته من مثال قصة منسوبة إلى رجل يدعى (Lucius de Patra). وتستنتج إحدى الدراسات الحديثة أن هذا الشخص هو أبوليوس بنفسه، راجع (P. Valette) كتاب (Les Métamorphoses)، المصدر المذكور، ص (XV-X).

18) أقاصيص صغيرة مكتوبة شعرا أو نثرا تصوّر مشاهد ساخرة وأخبارا ومحاورات وملامح أشخاص وآراء فلسفية، كانت شائعة بروما منذ القرن الثاني قبل الميلاد. وكتاب (Le Satiricon) متولّد مباشرة عن هذه الأقاصيص.

19) راجع (P. Grimal)، المصدر السابق ص (X).

20) راجع (P. Grimal)، في كتاب (L'amour à Rome)، باريس 1963، ص. 327-332، حيث يقول: «ان كتاب المسوخ، لأبوليوس يشتمل على نظرية حقيقية للحب».

21) مثلما كان (Balzac) يسمي شخصية المرابي (Gobsek) (من عبارة (Gobe Sec) أي «شديد الابتلاع»)، فإن أبوليوس يطلق على أشخاصه أسماء رمزية (مثل (Lucius) و(Photis) و(Socrate) و(Austomenes) و(Pamphile) و(Meroe)، الخ...). راجع في هذا الصدد كتاب (Marie Louise Von Franz) بعنوان (L'âne d'or, interprétation d'un conte) باريس 1981، ص. 41-57.

22) كتاب «المسوخ» هو إلى حد ما كتاب سيرة ذاتية. راجع (P. Valette, Les Métamorphoses)، المصدر السابق ص (XV-X).

23) كما تؤكد ذلك تلك المقاربة التي تتناول رواية أبوليوس من زاوية التحليل النفساني. راجع المصدر السابق (Marie Louise Von Franz).

ملامح عن المصوغ البوني

الحبيب بن يونس

ضاهت أناقة المرأة البونية أناقة نظيراتها في الحضارات الأخرى شرقية كانت منها أو غربية. فازدانت بدبابيس أو حلقات لشد الشعر كما تحلت بأقراط تعددت أشكالها مع مرّ الزمن، فإلى جانب الأقراط المصنوعة على نمط سلّة حبوب أو ثمرة البلوط نرى أخرى ملفوفة الطرفين أو مبطنة بالبرنز متخذة أشكال الحياة الملكية إلى جانب رمز الحياة المصري. وازدان صدرها خاصة في القرون الأولى من حياة قرطاج بقلادات متعددة اختلط في تكوينها الذهب والفضة مع الحجارة الثمينة من صفير وعقيق وفيروز ولازورد، تتوسطها في غالب الأحيان علب مستديرة الشكل مزخرفة برموز دينية أو بعلب مستطيلة الشكل ذات رؤوس حيوانات ترمز إلى آلهة مصر القديمة، حاملة بداخلها نصوصا ورموزا سحرية. وحمل أهل قرطاج إلى جانب القلائد أختام طوابع على شكل عجلان زخرفت بصور عديدة مستوحات من النسيج الحضاري المتوسطي.

إن ازدانت المعاصم بالأسورة الذهبية، فقد عرفت قرطاج منذ القرن الرابع تغييرا في الأذواق وانتشرت معه الخواتم الجيّدة الصنع على حساب القلادات. فتنوع شكلها ومضمونها حسب أهواء الصائغين ورغبة المشترين فنقشت عليها صور الآلهة مثل إيزيس -تانيت إلى جانب صور متعددة أخرى وتزينت المرأة البونية بخلاخل في رجليها، لكن لم نكتشف حتى الآن سوى النماذج البرنزية منها.

كان لموقع قرطاج الجغرافي كجسر بين الضفتين الشمالية والجنوبية للبحر الأبيض المتوسط وممرّ بين حوضيه الشرقي والغربي الأثر الكبير في جعل هذه المدينة ملتقى للتيارات الثقافية المتعددة، إضافة إلى دور البونيين وأجدادهم الفينيقيين في تنشيط الملاحة والتجارة المتوسطية واحتكاكهم وتأثرهم بالعديد من الحضارات والمعتقدات، فأدخل الفنان القرطاجي على أشكال وصور مصوغه عناصر مختلفة سواء من المعتقدات المصرية أو اليونانية إلى جانب الرصيد الإيكونوغرافي الشرقي وابتكاراته المحلية، لكنه كان بعيدا عن



خاتم من حجر اليمان الأحمر مزوق بصورة الالاه هوروس ذو رأس الباز. خاتم من اليشب الأخضر منقوش عليه صورة أربعة محاربين. خاتم من ذهب.

المقلد البسيط إذ استوعب الصور المستوحات من آفاق أخرى وكيّفها حسب رؤيته ومعتقداته جاعلا منها إنتاجا متميزا يحمل بصماته وسمات حضارته.

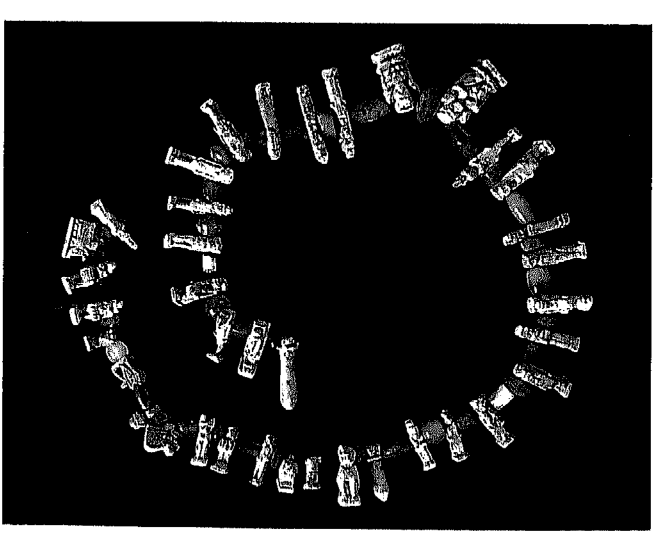
وإضافة إلى الصور الموروثة عن الشرق أو المبتكرة في قرطاج نرى الصانع قد ركّز اهتمامه على بعض صور الآلهة المصرية دون أخرى، فانتشرت صورة الإلاه باس سيد الحيوانات وواقي النساء الحوامل والأطفال وصورة الاودجة، عين الإلاه هوروس الواقية من الأرواح الشريرة على سبيل المثال. إذ كانت الحلي من بين مستلزمات الحياة الإجتماعية التي يسودها حبّ الجمال ورؤيته، إلى جانب جمال الشكل والصورة ركّز الصائغ البوني أساسا على المضمون فيتقلّص الدور الجمالي أمام أهمية الدور الوقائي، وينقلب السوار إلى تميمة تقي حاملها من كلّ الأشرار والأهوال الخرافية أو الحقيقية.

فالحلي القرطاجي الذي يحمل أثر الإستعمال لا يعدّ من بين حلي الأبهة والعظمة الذي تحمله النسوة في المناسبات والأعياد الدينية أو غيرها، فهو حلي تحمي به المرأة البونية نفسها أولا إلى جانب البعد الجمالي.

ما هي المكانة الفنية للحلي البوني ؟

استعمل الصائغ البوني سواء في طرق الصنع والتجميع أو في أسلوب الزخرف نفس التقنيات المعهودة خلال العصر القديم في الشرق الأوسط وسواحل سوريا ولبنان. فأتقن الصائغ البوني، على سبيل المثال، فن التطريق (Repoussé) والتجأ لتجميع أجزاء حليه إلى اللّحام (Soudure) أو البرشمة (Rivetage) وزخرفها بالنقش والتنميق (- Gravure Ciselure) أو الترصيع مع إتقان استعمال فنّ الحبيبات (Granulation) في ابتكار العديد من الأشكال.

وإن ورث الصائغ البوني عن أجداده الفينيقيين رصيدا تقنيا نضج في معين التقاليد الشرقية منذ منتصف



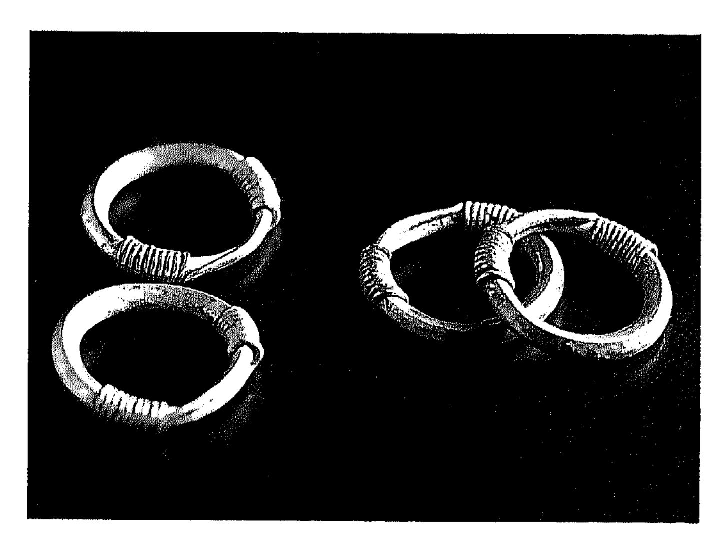
عقد تمائم مصرية قديمة ومناجد من حجر اليمان الأحمر

الألف الثالثة ببلاد الرافدين فهذا لم يمنعه من إعطاء صبغة محلية لإنتاجه الذي يختلف عن الإنتاج الشرقي، ومن ابتكار طرق فنيّة جديدة انفرد باستعمالها. فتمكن الصائغ البوني من صنع أجزاء نموذجية منفصلة ثمّ جمّعها وطبقها على ورقة ذهبية متحصلا على أشكال ناتئة (Repoussé appliqué)، ولم يلتجئ صائغوا الحضارات الأخرى لهذه الطريقة للوصول إلى نفس النتيجة.

دمرت قرطاج ودقت منازلها ومعابدها ونهبت ثرواتها في أحقاب الحرب البونية الثالثة سنة 146 قبل المسيح، ولم تنج قبورها الزاخرة بالأثاث الجنائزي النفيس من النّهب منذ العصور الغابرة إلى مشارف القرن العشرين. ورغم نفاسة وجمال الحلي البوني الذي ينصهر في أجود المنتوجات التي عرفها البحر المتوسط في العهد القديم فإن معلوماتنا عن المصوغ البوني ستكون حتما منقوصة.



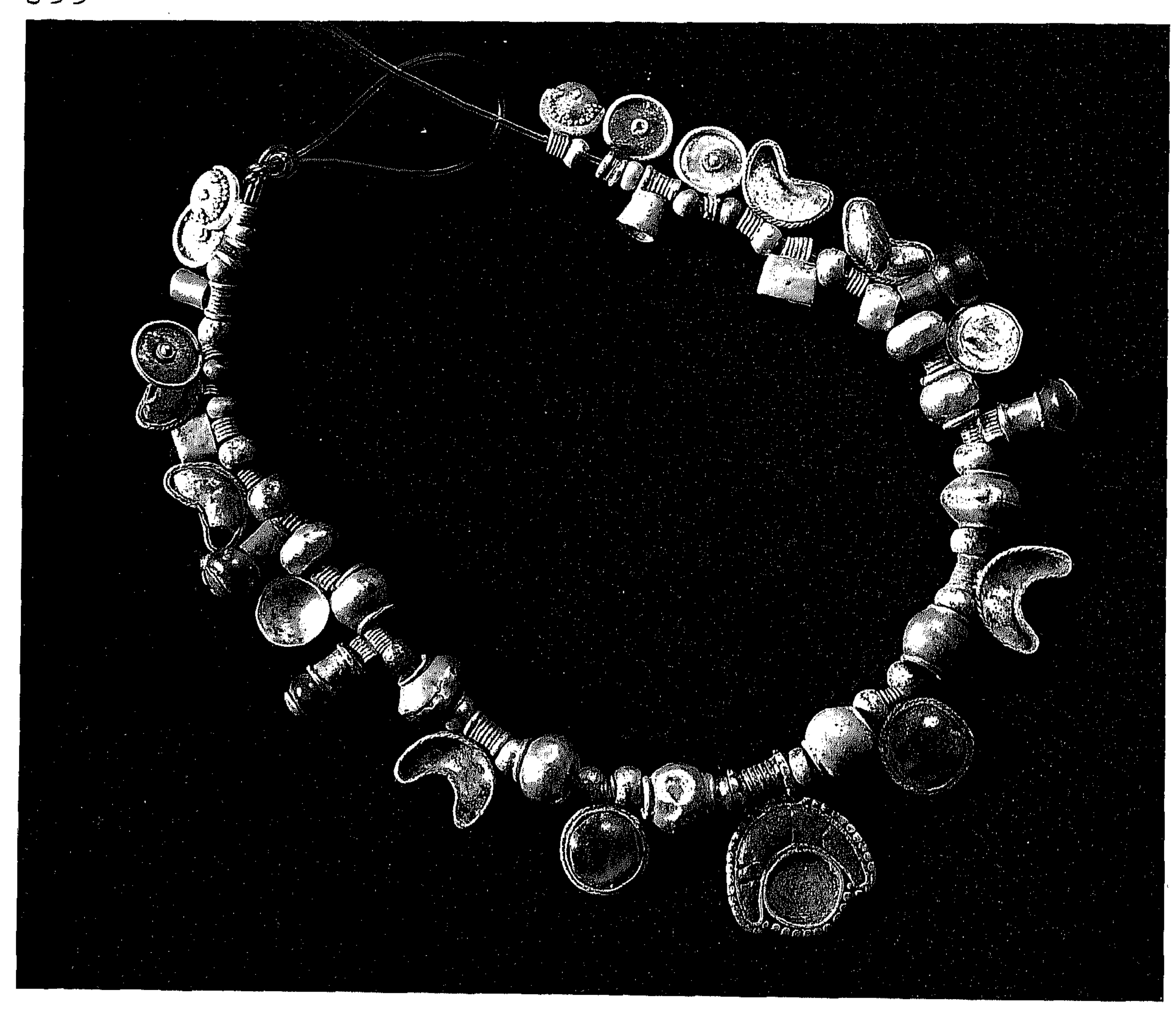
خاتم من ذهب مزوّق بصورة نبّال.
خاتم زواج من ذهب.



خاتم يعلق في الأنف
أقراط من ذهب

- Brigitte QUILLARD - Bijoux Carthaginois I, Les colliers, 1979. Louvain la Neuve
- Bijoux Carthaginois II, Porte-amulettes, sceaux pendentifs,
- Pendants, boucles, anneaux et bagues, 1987. Louvain la Neuve.

عقد مزوّق بأشكال
مرتبطة برموز فلكية
أهلة وأقراص



الفسيفساء الإفريقية

عائشة بن عابد بن خضر

منذ بعض العقود لم تعد الفسيفساء تعتبر فنّا ثانويا بل ارتفعت إلى مستوى أرقى التعابير الفنية. أليس «الرسم بالحجارة» عملا عجيبا يتطلّب في آن واحد براعة وحساسية الفنّان ؟ فلا عجب إذن أن نرى الأخصّائيين يستنطقون الوثائق، محاولين ضبط ميلاد فنّ الفسيفساء في العصور القديمة.

لقد أرجع بعضهم نشأة الفسيفساء إلى القرن التاسع قبل المسيح في بلاطات الأشوريّين، في حين أكّد غيرهم أنّ الفسيفساء ظهرت أوّل ما ظهرت بقرديون (Gordion) (في تركيا). والواقع أنّه في كلتا الحالتين كانت المساحات المعنيّة مزخرفة بحصباء طبيعة متفاوتة الحجم ومرصّفة على هيئة أشكال هندسية تنميقية.

وازدهر هذ الفنّ ازدهارا كبيرا في المدن اليونانية، بين القرنين الرابع و الثالث ق.م.، حيث صنعت روائع من فسيفساء الحصباء.

وخلافا لفسيفساء الحصباء، تعتبر الفسيفساء الحقيقية (Opus Tessallatum) ظاهرة حديثة كلّ الحداثة، والمقصود بها تغطية مساحة مسطّحة أو مقوّسة بعناصر صغيرة صلبة (من الحجر الكلسي أو الرخام أو عجين الزجاج أو الخزف أو غيرها) تنحت في شكل يقترب كثيرا أو قليلا من الشكل المكعّب وتضمّ إلى بعضها بعضا بواسطة ملاط، بحيث تكوّن أشكالا متنوعة ومختلفة.

منذ حوالي ثلاثين سنة اعتبر بعض الباحثين أنّه ينبغي تحديد أوّل موقع لظهور الفسيفساء (Tessellatum) بصقلية أو بالأحرى بمرقنتينا (Morgantina)، في حدود أواسط القرن الثالث ق.م. ولكن فيما بعد اعتبر أخصّائيون آخرون أنّه يعود الفضل للإسكندريّة في احتضان نشأة الفسيفساء إذ نسب تاريخ بعض اللوحات الإسكندرانية إلى القرن الثالث ق.م. لكنّ الإكتشافات الأثريّة التي تمّت منذ حوالي عشرين سنة في تونس أحدثت بعض الإنقلاب على الإفتراضات المتداولة. ولمّا أعلن ج.ب. مورال (J.P. Morel) في بداية السبعينات أنّه عثر

بكركوان في مستوى أثريّ راسخ تمام الرسوخ يعود تاريخه إلى ما بين القرنين الخامس والرابع ق.م. على قطعة من الفسيفساء الملوّنة، تقبلت الأوساط العلمية ذلك الخبر بارتياب كثير.

ولكن لمّا نظّمت اليونسكو حملة لصيانة موقع قرطاج، ابتداء من سنة 1974 ظهرت اكتشافات في ميدان الفسيفساء حملت الباحثين على التفكير والتحرّي إذ عثر فريق ألماني على عدّة قطع من الفسيفساء في حيّ ماغون المواجه للبحر كما عثر فريق فرنسي على قطع أخرى بربوة بيرصا، داخل طبقات أثرية يعود تاريخها بصفة مؤكدة إلى ما بين القرنين الثالث والرابع ق.م. بالإضافة إلى اكتشاف ف. شلبي عتبة بالفسيفساء الملوّنة في حيّ بيرصا تعود إلى القرن الثالث ق.م. ومن شأن كلّ هذه الإكتشافات أن «ترشّح» قرطاج لتعتبر المهد الأصلي للفسيفساء (Tessallatum). ومهما يكن من أمر فإنّه يبدو اليوم من الثابت المؤكّد أن قرطاج البونية لعبت دورا عظيم الأهمية في إنشاء الفسيفساء المتوسطية. ولقد ساهمت، في واقع الأمر، في «تجربة» جماعيّة إلى جانب اليونان ومصر وصقلية وإسبانيا، وهو ما يبرهن على تداخل مختلف الحضارات المتوسطية منذ فجر التاريخ. وعلى مرّ القرون سعت كلّ بلاد من بلدان الحوض المتوسطي إلى أسلوبها الخاصّ في الفسيفساء وتكييفه مع النماذج السائدة.

وأجمع الأخصّائيون تقريبا على التأكيد بأنّ إفريقيا الرومانية أكثر المقاطعات إنتاجا وتنويعا للفسيفساء. والواقع أنّه يجب إرجاع تاريخ الإنطلاق الحقيقي لابتكار الفسيفساء الإفريقية في العهد الروماني إلى حوالي نهاية القرن الأوّل بعد المسيح، باستثناء بعض المجموعات كالتي عثر عليها بسيرتا (Cirta) (قسنطينة) والتي تعود إلى أواسط القرن الأوّل ق.م.

كانت الفسيفساء الإفريقية في بداياتها نسخة وفيّة للفسيفساء الإيطاليّة ذات اللونين الأبيض والأسود الأسلوب المتحفّظ في أناقته. وكانت لوحات الفسيفساء المتداولة في نهاية المطلع الأوّل للقرن الثاني بقرطاج تزاحم بجمالها البلاطات الفسيفسائية من صنف (Opus Sectile) والتي كانت تقلّد في الغالب النسيج الهندسي.



فسيفساء الشاعر عثر عليها بموقع توبربو ماجوس (متحف باردو)

ولم يتسنّ لصانعي الفسيفساء الأفارقة أن يتحرّروا من تأثير المدرسة الإيطالية إلاّ خلال النصف الأوّل من القرن الثاني حيث تكوّنت مدرستهم وابتدعوا أسلوبهم الخاصّ المتميّز، وذلك أساسا باستعمالهم للألوان المتعددة وبميلهم إلى تنوّع الزخارف وغزارتها.

وينبغي إرجاع تاريخ التلوين في الفسيفساء الإفريقيّة إلى أواخر القرن الأوّل في مواقع مثل قرطاج وأوتيكا (Utique)، ثمّ في وقت لاحق في مواقع مثل توبربو ماجوس (Thuburbo Majus) ودقة.

وأخذ التلوين يتقدّم بكل رقّة من حاشية اللوحة إلى وسطها ويكتسحه تدريجيا. وعلى امتداد هذه الفترة الإنتقالية من الأسود والأبيض إلى الملون حافظت التركيبات الهندسية على بساطتها واعتمدت التربيعات والدوائر المتقاطعة والمسدّسات المتماسّة الخ... مع الحشو بزخارف مستمدّة من المجموعات الكلاسيكية. أمّا النصف الثاني من القرن الثاني فقد

شهد الإنبثاق الحقيقي للمدرسة الإفريقية وتجاوز الأسلوب الإيطالي. ولقد تميزت هذه المدرسة بوجود قطبين أساسيين تركّز أحدهما بحاضرة قرطاج وحولها مجموعة من المدن المتأثرة بها مثل أوثينا (Uthina) (أذنة) وأوتيكا وتوبربو ماجوس وتركّز الآخر بهدروماث (Hadrumète) (سوسة) وحولها خاصّة ثيسدروس (Thysdrus) (الجم) وأكولا (Acholla) (بوترية).

ولئن ساهم القطبان في نفس «التجربة» فإنهما لم يلبثا أن تفرّدا بميزات خاصّة صار لكلّ واحد منهما أسلوبه المتميّز، فتوخى كلّ منهما -مثلا- طريقة مغايرة في توظيف «الأسلوب المزهر» الذي كان رائجا جدّا، خاصّة في القرنين الثاني والثالث م. ففي حين تكاثرت في مواقع المنطقة القنصلية «القضبان المورقة»، ظهر في المنطقة البيزاسانية (Byzacène) ميل كبير إلى أغصان الكروم المعرّشة. والملاحظ أنّ تفنّن الأفارقة في الفسيفساء ذات الأنسجة النباتية قد لاقى استحسانا كبيرا في بعض المقاطعات الرومانية مثل صقليّة وسردانيا وإسبانيا.

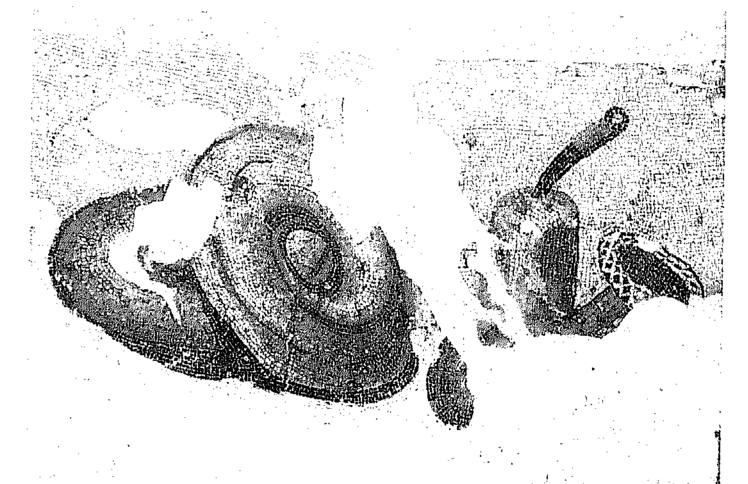


الجزأ الأوسط من فسيفساء تمثل جنيّ السنة عثر عليها بثيسدروس (متحف الجم)

وفي النصف الثاني من القرن الثاني خصّ قطب المنطقة البيزاسانية بنجاح لم ينازعه فيه أحد، فاشتهر بزرابيه الأنيقة ذات الزخارف الهندسية المزهرة وبلوحاته المشكّلة الكبرى التي كانت تتناول مواضيع أسطورية من نوع ما أنشأه الخيال الهلينستي. فقد أنجز مثلا صانعوا الفسيفساء بهدرومات مبلّطات الدار التي اكتشفت بها صورة الشاعر اللاتيني الكبير فرجيل (Virgile). أمّا ورشات أكولا أنتجت روائع فنيّة لا تحصى، نذكر منها لوحات الفسيفساء المشكّلة لحمّامات تياز (Thiase) البحرية حيث قارب الإبداع فيها درجة الكمال. وفي ثيسدروس أنشئت لوحات بديعة متّسمة بالشهوانية الديونيسية وكان الإلاه فيها ممثّلا بهيئة (Cosmocrator). أمّا مبلّطات المنازل في ثيسدروس فقد كستها زرابيّ من الفسيفساء مزهرة ذات زخارف هندسية ومحلاّة بمشاهد تمثل ملاعب المدرّجات. ولا بدّ من الإشارة، للتذكير، إلى لوحات الفسيفساء بمنزل سولرتيانا حيث بدت مجموعة الإيقونات والصور متناسقة أبدع تناسق. ولقد تواصل الإبداع البيزاساني ليبلغ أوجه خلال النصف الأوّل من القرن الثالث ثم تراجع قليلا فيما بعد إلى أن فقد إشعاعه نهائيا لفائدة قرطاج.

يبدو أن تطوّر فنّ الفسيفساء في المنطقة الشمالية بإفريقيا قد اختلف نوعا ما عن تطوّره في المنطقة البيزاسانية. ولئن كانت لقرطاج وما تبعها من المدن (Pertica) إبداعات في فنّ الفسيفساء فإنّها لم تطلق العنان لعبقريّتها الخلاّقة إلاّ ابتداءا من النصف الأول للقرن الثالث، حسب معلوماتنا الحالية، على الأقل. ففي تلك الفترة أنشئت أهمّ اللوحات المزهرة والمشكّلة التي اشتهرت بها دار اللابيريي (Laberii) بأوثينة. ولقد تحلّت هذه المبلّطات بمشاهد أسطورية وبصور من الحياة اليومية في إطار مجموعة إيقونية مفرطة التصنّع والتأنّق. وتنتمي إلى نفس هذه الفترة تاريخيا لوحات عديدة جدّا من الفسيفساء بأوتيك وقرطاج. وتتّسم هذه الأعمال بطابعها الكلاسيكي وتبرز ما كان للفنّانين الأفارقة من براعة كبرى في مجال الرسم والتصوير.

ولقد استمرت ورشات الفسيفساء في المنطقة القنصلية تبدع أيّما إبداع دون أن تتوقّف طيلة القرنين الرابع والخامس وما بعدهما.



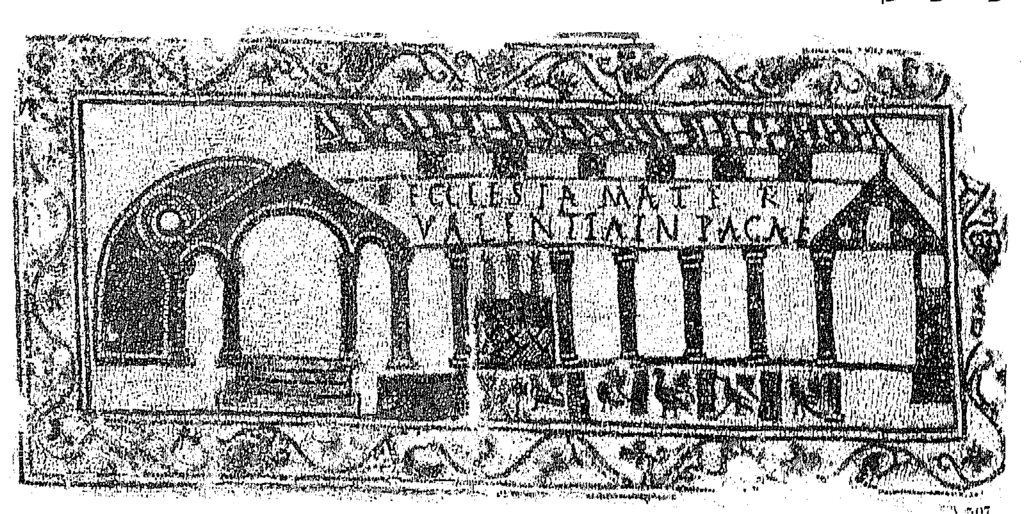
فسيفساء من موقع أوذنة (متحف باردو)

أمّا أغلب لوحات الفسيفساء الموجودة في منزل لافواليار (La volière) المشهورة بقرطاج فهي ترجع إلى القرن الرابع. ولقد كانت أنموذجا حيّا للتناسق بين الفنّ المعماري والتزويق بالفسيفساء، مما يبرهن على رهافة ذوق الأرسطوقراطية الإفريقية وتفنّنها. وفي نفس الفترة كذلك أنجزت أهمّ اللوحات الموجودة في دار الخيل بقرطاج أيضا، واتّخذت بعضها نماذج لمن صنعوا لوحات الفسيفساء لبيازّا أرمرينا (Piazza Armerina) بصقلية.

أسهمت مدن أخرى من المنطقة القنصلية في إثراء المكاسب الفسيفسائية. فقد أبدعت توبربو ماجوس ودقة وبلاّريجيا (Bulla Regia) وغيرهما أعمالا جليلة كالمجموعة الموجودة بدار بروتومس (Protomés) بتوبربو، وبدار أوليس (Ulysse) بدقة وبدار الصيد ببلاريجيا. وتتسم كلّ هذه الإبداعات بسمات الورشات المحلية، مع انتمائها إلى نفس الرقعة الجغرافية والثقافية.

ثم تكاثرت في القرنين الخامس والسادس لوحات الفسيفساء المسيحية، البلاطية منها والقبرية. وتعتبر مجموعات قرطاج وطبرقة وقليبية أكثرها غزارة وتنوّعا، كما يعتبر اليوم بيت العماد للقسّ فيليكس (Felix) بقليبية أحد كنوز متحف باردو. وإلى جانب هذه الزرابي المسيحية الطابع، استمرّ صانعوا الفسيفساء الأفارقة في إنجاز إبداعات ذات مواضيع أسطورية مثل لوحات : صيد الكراكيّ بقرطاج، وحمامات تياز البحرية بسيدي غريب، ومشاهد الصيد بقليبية. والواقع أنّ لهذه الأعمال صدى لتعلق الأرستقراطية الإفريقية بالثقافة الكلاسيكية الموروثة عن الأسلاف وما تنطوي عليه من قيم، أكثر من تعلّقها بأيّة عقيدة دينية.

ولقد تواصل صنع الفسيفساء الإفريقية في القرن السابع، لكنّ كميّاتها تناقصت كثيرا. ويقدّر اليوم أنّ لوحات أشيل (Achille) وشيرون (Chiron) بباجة ولوحات الفوّار ولوحة فينوس



فسيفساء جنائزية الكنيسة الأمّ (متحف باردو)

(Vénus) -وهي أقرب عهدا- بسيدي بوزيد يرجع تاريخها إلى القرن السابع على أقصى تقدير. ويعتبر المؤرّخون عادة أنّ الفسيفساء الإفريقية انقرضت عند مجيء الجيوش الإسلامية إلى إفريقيا في أواخر القرن السابع. ولكن يبدو لنا من المستبعد أن يزول فنّ كهذا بين عشيّة وضحاها والحال أنّه فنّ متأصّل في التقاليد الإفريقية، إذ ترجع جذوره إلى حوالي ألف سنة، خصوصا، إذا علمنا أنّ الخلفاء الأمويين أنفسهم كلّفوا جماعة من صانعي الفسيفساء بتنميق قصورهم في سوريا.

ماذا حدث في الواقع ؟ هل صحيح أنّ صانعي الفسيفساء هاجروا إلى صقليّة هجرة جماعية بعد حلول الجيوش الإسلامية ؟ هل تحوّلوا إلى تعاطي تقنيات أخرى مثل النحت على الخشب الذي يشبه تزويقه الهندسي المزهر تزويق الفسيفساء ؟

ومهما يكن من أمر فإنّ الفسيفساء لم تنقرض تماما من إفريقيا بعد القرن السابع، إذ كشفت الحفريّات أنّ قصر الخليفة الفاطمي المعزّ بالمهدية كان يحتوي في القرن العاشر لوحات من الفسيفساء الهندسيّة.



فسيفساء
من قرطاج
تمثل تلوس
آلهة الأرض
(متحف قرطاج)

بيبليوغرافيا

1 - Corpus des Mosaïques de Tunisie, Vol. I Utique, Fasc. 1.M.A. Alexander, M. Ennaïfer, J. Gretzinger, G.P.R. Metraux, D. Soren, M. Spiro, Tunis 1973 ; Fasc. 2 C. Dulière, S. Ben Baaziz, J. Gretzinger, G.P.R. Métraux, D. Soren, Tunis 1974 ;
Fasc. 3 M.A. Alexander, S. Besrour, M. Ennaïfer, A. Ben Abed, C. Dulière, Tunis 1976. VOL. II. Thuburbo Majus. Fasc. 1.M.A. Alexander, A. Ben Abed, S. Besrour-Ben Mansour, D. Soren, Tunis 1980.
Fasc. 2 A. Ben Abed-Ben Khader, M. Ennaïfer, M. Spiro, M.A. Alexander, D. Soren, Tunis 1985.

2 - Dunbabin, Mosaics of Roman North Africa, Studies in iconography and Patronage, Oxford 1978.

3 - H. Lavagne, La Mosaïque, Que Sais-je ? Paris 1987.

4 - G. Fradier, Mosaïques Romaines de Tunisie, CERES production 3ème Édition 1989.



الشاعر اللاتيني فرجيل
(متحف باردو)

السجيل الإفريقي

فتحي البجاوي

بعد أن قامت إفريقيا في العهود القديمة بتوريد ثم بتقليد الخزف المصنوع بإيطاليا أو بغاليا، عمدت إلى إنتاج خزفها الذاتي. وفعلا فإنّ الإنتاج المحلي قد ظهر انطلاقا من آخر القرن الأوّل للميلاد، وسوف يظل ينمو كمّا وكيفا حتى أواسط القرن الخامس (زحف الوندال) وفي الواقع فإنّ النوعية سوف تتناقص بشكل محسوس ابتداء من هذه الفترة وحتّى أواسط القرن السابع.

وأشهر هذا الخزف الإفريقي هو المسمّى «السجيل». وهو مصنف إلى أربع مجموعات هي في الحقيقة أنواع مختلفة ومراحل متعاقبة. وقد تمّ التصنيف على النحو التالي :

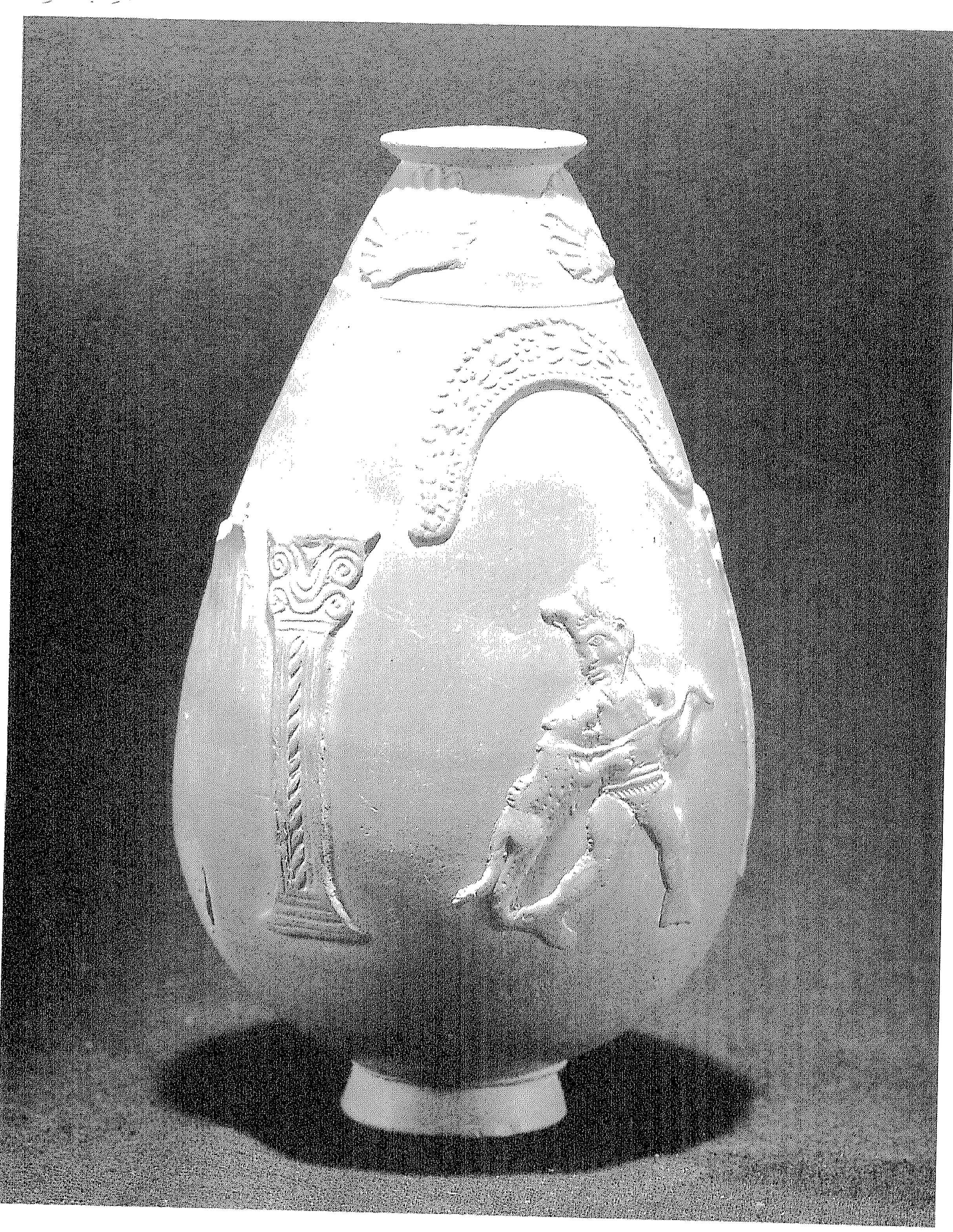
السجيل من صنف أ :

وهو المتعلق بالخصوص بالنوع الذي يقلّد الخزف الغالي. وهو مصنوع من طين تغلب عليه الرقّة. أمّا لونه الأحمر البرتقالي فإنّه يحصل بفضل النار. والمصنوعات المعروفة من هذا النوع لا تحمل إلاّ القليل من الزينة.

السجيل من صنف أ–ج :

وهو يمتاز بعجين شديد التجانس لونه أحمر برتقالي أغمق أحيانا من النوع السابق. والمواد المصنوعة منه تتسم بخفة كبيرة. وقد اشتهر هذا النوع بفضل مجموعة من الجرار والأواني المختلفة الأشكال (وقد تتخذ أحيانا شكل رأس بشري) عرفت باسم خزف «العوجة» وهو مقتبس من اسم مقبرة قديمة تمّ اكتشافها على مسافة 30 كيلومترا جنوبيّ القيروان. وهذا الإنتاج يعود إلى النصف الأوّل من القرن الثالث. وقد ازداد عدد الرسوم التي تزينه والتي نجد من بينها مشاهد ميثولوجية وأخرى تصوّر ألعابا مع الحيوانات بالملاعب والمدرّجات، أو أشكالا مستوحاة من الحيوانات، الخ...

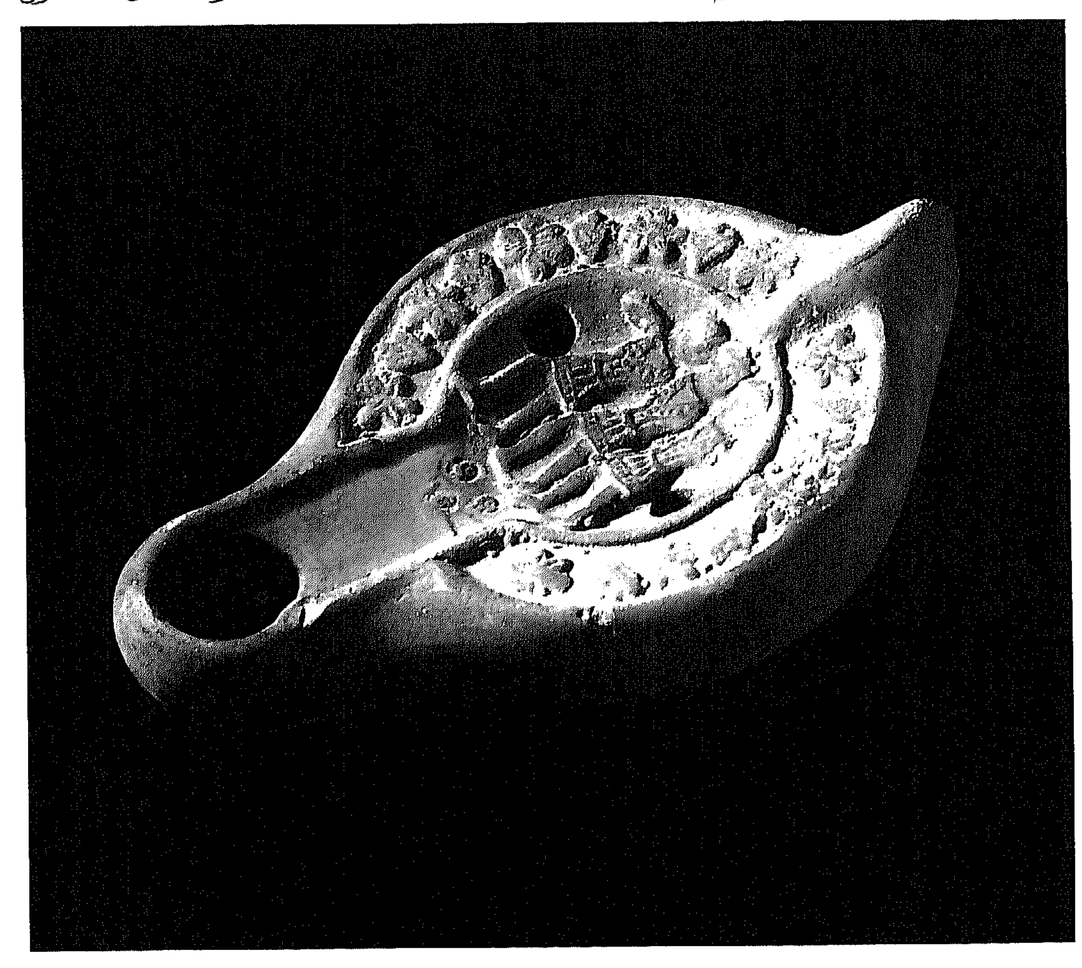
وعاء من سجيل
عثر عليه بالعوجة



السجيل من صنف ج :

وهو أكثر الخزف الإفريقي شهرة وإنتشارا. وفي نطاق هذا النوع تمّ تصنيف المواد المصنوعة من طينة خفيفة ذات لون أحمر برتقالي أو أحيانا أحمر أمغر. وتنتمي إلى هذا الصنف من الخزف المصابيح المسماة بالمسيحية (بسبب فترة صنعها والأشكال المرسومة عليها). وكذلك الصحون والجفان الصغيرة التي تحمل في قاعها وأحيانا بحاشيتها زينة بارزة ناتئة أحدثت بواسطة خواتم صغيرة يطبع بها الإناء قبل وضعه بالنار.

وإن اختيار الصورة المرسومة سواء على المصابيح أو على الأطباق والصحون هو الذي تسبب بالخصوص في شهرة «السجيل من صنف ج». وفعلا فإننا نجد صورا لعدّة موضوعات ميثولوجية، كما نجد أيضا وبالخصوص تصويرا لقصص من الكتاب المقدس، مثل قصة آدم وحواء وقصة تضحية إبراهيم وقصة يوسف، وقصة رواد كنعان، وحكم سليمان، واليهود الثلاثة في النار، ودانيال في حفرة الأسود، ويونس... ثم تأتي مشاهد متعلقة بحياة المسيح ومعجزاته، من ذلك مثلا قصص المقعد، والمرأة الحائض، والاكمه، و«لعازر».. وفي هذا النوع من الخزف نجد الأنموذج المستعمل -والطابع نفسه أيضا في غالب الأحيان- يستخدمان في آن واحد للمصابيح والصحون والجفان الصغيرة. وقد لوحظ أن عاكسات المصابيح قد استعملت أحيانا نفس هذه المجموعة من الرسوم. لذلك فقد كانت كامل صفحة هذه الأدوات (من صحون



مشكاة من الفترة المسيحية تمثل اليهود الثلاثة

ومصابيح وجفان وأصحاف وعاكسات) مغطاة برسوم وموضوعات ذات شعبية كبيرة لدى الأفارقة. لكن السجيل من صنف ج. سوف يشهد تراجعا في الإنتاج ثم يختفي تماما في أواسط القرن الخامس، تاركا المجال لنوع آخر وهو :

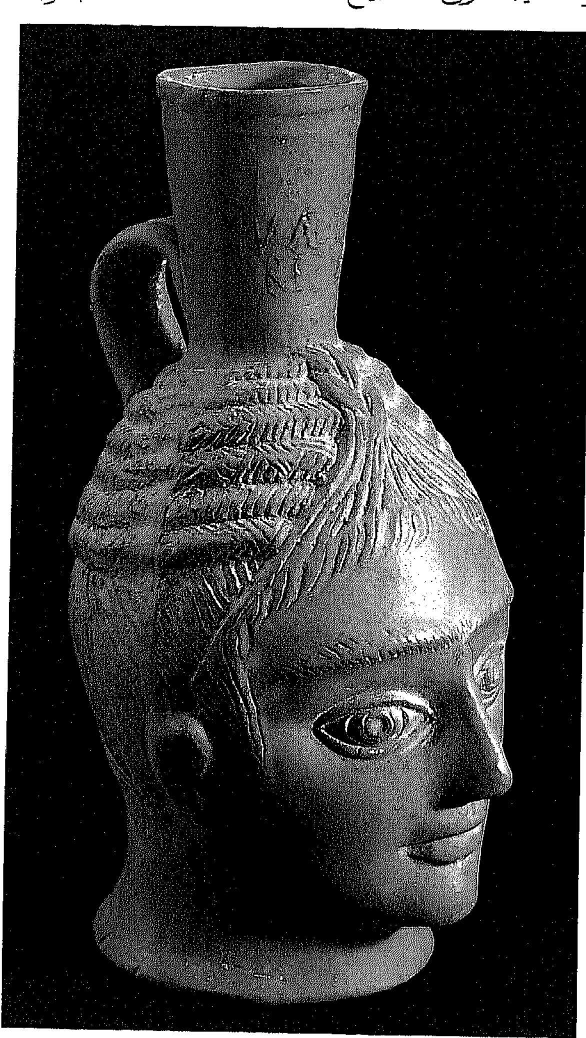
السجيل من صنف د :

ويمثل المرحلة الأخيرة في هذه السلسة. وهو يتعلق بأوان وأدوات (أطباق وصحون مستطيلة في الأوّل، ثم جفان وصحاف ومصابيح فيما بعد) أصبحت ثقيلة الوزن وأقل اتقانا من أدوات الفترات السابقة. وقد لاحظنا أنه ينبغي التمييز بين صنفين داخل هذه المجموعة : صنف يتواصل فيه صنع الصحون والأطباق المستطيلة لكن باستعمال طين أقل رقة وجودة، وصنف ثان يتم فيه التخلي عن المشهد الناتئ والإكتفاء بتصوير المشهد المنقوش الغائر في صفحة الجفان والأطباق وكذلك في عدد من المصابيح. وفيما عدا الأطباق المستطيلة فإن مجموعة الصور المرسومة قد تناقصت وتضاءلت، واختفت منها الموضوعات الميثولوجية والدينية القديمة (إلاّ فوق طبقين أو ثلاثة ؟). وأصبحنا نجد صور الصليب فوق المصابيح، كما نجد أحيانا صورة شخص ممسك بصليب أو محاط بصليبين كبيرين (يمكن أن يكون المسيح أو بعض القديسين ؟)، وذلك على الأطباق التي أصبح حجمها كبيرا.

أمّا فيما يتعلق بمراكز صنع السجيل بشكل عام والسجيل من صنف ج بالخصوص، فقد غيرت الإكتشافات الحديثة العهد من توزيعها الترابي، وهكذا فقد أصبحنا واثقين من أنه، بالإضافة إلى منطقة أوذنة (جنوبي قرطاج) ومنطقة الجمّ أو ضواحي القيروان، فقد كانت منطقة سبيطلة وجهة العلا من أكبر المناطق المنتجة لهذا النوع من الخزف الذي تمّ تصديره إلى كامل حوض البحر الأبيض المتوسط. ولئن كان الجانب الإقتصادي والتجاري هو أوّل ما حرص عليه صناع هذا الخزف في العهود القديمة فإن الجانب الفني، وكذلك الجانب الديني في أغلب الظن، لم يحصل إهمالهما.

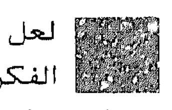
وفعلا فإن هذه الأواني والأدوات الصغيرة من الفخار قد سدّت النقص في الصور الدينية الذي نلاحظه في مجال اشكال أخرى من الفنّ بإفريقيا في العهود القديمة مثل الفسيفساء (التي نجد فيها 4 أو 5 صور لموضوعات دينية قديمة) ؛ والنحت (بعض نحوت على التوابيت)، الخ... وبذلك فقد نشر السجيل كل هذه الموضوعات بين الطبقات الشعبية، خاصة وأن هذه الأدوات والأواني الصغيرة التي تنقل بسهولة كانت زهيدة الثمن، على نقيض أدوات العاج أو الزجاج أو المعدن التي تمثل شكلا من الفنّ مخصصا لطبقة اجتماعية موسرة.

وعاء من سجيل ذو شكل رأس آدمي عثر عليه بالعوجة



مساهمة تونس في تطوّر الفكر الإنساني

الطاهر المعموري


لعل المقصود بالمساهمة هو العطاء الفكري الذي قدمته بلادنا للفكر الانساني. هذا الفكر الذي ساهمت الحضارات المختلفة في بنائه وتطويره ونضجه حتى أصبح مقياسا للتطور الذي شهدته الانسانية منذ العصور الخوالي.

وفي هذا المجال لا بد من التذكير أن المساهمة التونسية في الفكر الانساني تواصلت في العهود الاسلامية وتميزت بخطوط وتيارات ومميزات هي ثمرة هذه المساهمة والمتمثلة في الدول المختلفة التي تعاقبت على هذه البلاد، وإن كان الفكر لا يرتبط بمرحلة سياسية التي هي الدول لكنها هي الاطار الذي عاش فيه هذا الفكر الانساني وبرز وتميز وأشع وخرجت من نوافذه تيارات أثرت ولازالت تؤثر في هذا الفكر الانساني.

على أن هذه المراحل الفكرية التي سنحللها تتسم بالغموض والغرابة عند كثيرين لاعتقادهم أن بلادهم تونس لم تساهم ولو بالقليل في هذا الفكر الانساني الرائد وتحليلنا للموضوع فيه الجواب عن هذه التساؤلات التي تثار في كثير من المناسبات. لقد بدأت هذه المساهمة في نظري ابتداء من القرن الثاني هجري/الثامن ميلادي عندما برزت المدرسة المالكية في افريقية ابتداء من العلماء الكثيرين الذين ذهبوا للمدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم وأخذوا عن مالك بن أنس مؤسس المدرسة المالكية الى سحنون بن سعيد الذي حرر كتاب المالكية المدونة أخذا عن ابن القاسم تلميذ الامام مالك رضي الله عنه.

والمدونة الذي هو الكتاب الأول للمالكية سار في اتجاهه بعد ذلك جيل كامل من فقهاء افريقية يشرحونه ويختصرونه ويشيرون لنوادره وزياداته وينطلقون منه لتحرير فتاويهم التي تعتبر فصول المجلة الفقهية الافريقية المالكية وهذه النصوص الفقهية القانونية التي منطلقها المدونة هي من أعظم الثروات التي نعتز بها الى الآن. وعدم معرفتنا بها مرده الى وجودها الى الآن ضمن المخطوطات الموجودة بتونس أو بالخارج في المكتبات المشهورة في أنحاء العالم.

صفحة من القرآن الكريم



والسؤال الذي يطرح بعد ذلك هو هل استفاد الغرب من هذه الثروة القانونية الفقهية المالكية ؟ الجواب عن ذلك يقتضي القيام بدراسة أخرى تشرح مؤثرات الفقه المالكي في القوانين الاوروبية وخاصة قوانين نابليون.

ولعل غياب هذه الدراسات الدقيقة هو الذي جعلنا نجهل مساهمة بلادنا في تطور الفكر الانساني.

بعد مرحلة الامام سحنون التي امتدت في تلاميذه جاءت مرحلة ابن ابي زيد القيرواني الذي مثل مرحلة الصراع الفكري والعقائدي بين السنة أي المذهب المالكي والاسماعلية المتمثلة في الدولة العبيدية التي تأسست سنة 297 هجري وامتدت في تونس الى سنة 350 هجري وهي فترة أظهر فيها سكان افريقية تمسكهم بالمذهب المالكي ورفضهم لهذه النحل التي فرضت عليهم من فوق بعد اقتناعهم بالمذهب المالكي الذي اصبح جزءا من شخصيتهم. تأتي بعد ذلك مرحلة أخرى في الشخصية الفكرية الإفريقية وهي مرحلة الإمام المازري هذا الإمام الذي امتاز بميزتين :

أوّلا : ضخامة التراث الفقهي الذي خلفه والذي لازال مخطوطا ينتظر المحققين والتشجيع المادي.

ثانيا : ميلانه لربط الفقه بعلم الكلام وهي طريقة امام الحرمين الجوني وهذا ما جعله يقدم لنا فقها يختلف على المدارس الافريقية السابقة متأثرا بدرجة كبيرة بالطريقة الفقهية العراقية وهي طريقة لا تجري وراء العبارة وإنما تجري وراء تحليل المسائل. ونشر تراث المازري الفقهي سيسمح لنا بمعرفة مدى مساهمة افريقية في تطور الفكر الانساني على أن الفترة التي امتدت قرابة ثلاثة قرون وكانت مساهمة تونس فيها أوضح في تطور الفكر الانساني هي الحقبة الحفصية التي لا يمكن لنا فهم الشخصية التونسية الا إذا درسنا هذه الفترة دراسة دقيقة هي مرحلة دخول تيارات مختلفة لتونس شرقية عقلية ومغربية تصوفية واندلسية

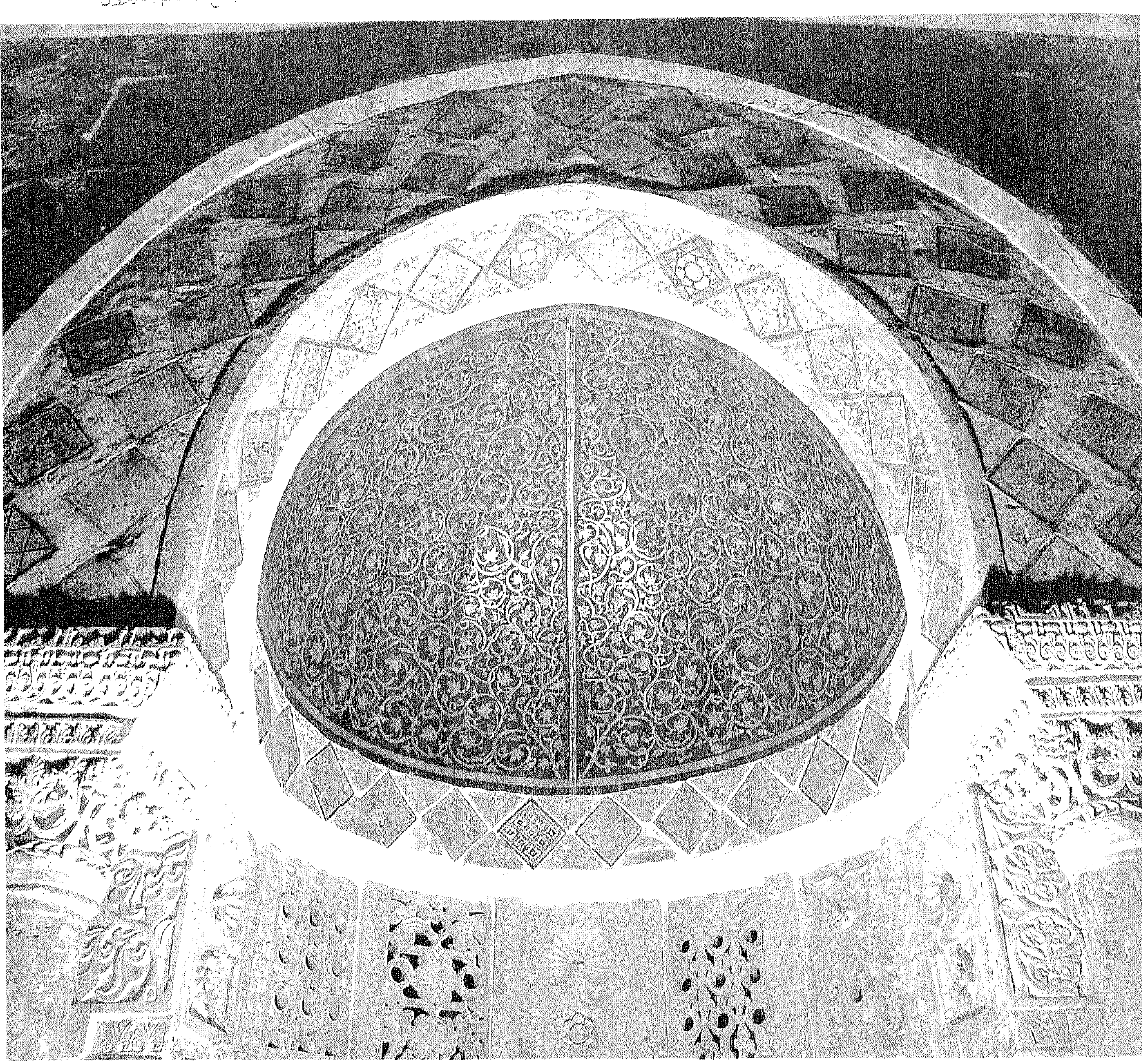
فيها التسامي والنضج والابتكار ولعل ذكر أسماء كابن زيتون وأبي الحسن الشاذلي وابن الابار وابن خلدون تصور لنا هذا العهد الحفصي وما كان من عطاء للفكر التونسي الإفريقي ومن إشعاع للفكر الإنساني.

وبعد الفترة الحفصية بدأت حضارة تونس وإفريقية تندثر وتغور ولم تستفد من مقدمة ابن خلدون التي لم نر لها ذكرا في القرون المظلمة وخاصة العاشر والحادي عشر هجري أي في فترة الاحتلال الاسباني وقدوم الأتراك العثمانيين لإنقاذ البلاد من هجمات الاسطول الاسباني.

مضت قرون وتونس تواصل سباتها حتى جاء القرن التاسع عشر وبدأت حركة الانبعاث والتجديد والاصلاح علها ترجع للشعوب العربية الاسلامية حضارتها وإشعاعها.

لقد انتجت تونس خلال هذه الفترة عددا ضخما من العلماء في مختلف الإختصاصات ساهموا مساهمة فعالة في تطور الفكر الانساني لكن كيف ساهموا في هذا التطور. تجيب هذه الدراسات المختلفة التي درست حضارة تونس في مختلف العصور.

جزء من محراب
الجامع الأعظم بالقيروان



دور تونس في تطوّر العلوم والحضارة في العهد العربي الإسلامي

الأستاذ الدكتور محمّد سويسي

إن صرح الحضارة مشروع أزلي، مشترك بين الامم كافّة، مشاع بين الاجيال جميعا، وان هي تفاوتت مساهمتها في بنائه... ، والثقافة الحق، الرامية الى إصلاح ما فسد، وتقويم ما اعوج من طباع البشر، وإرساء أسس التفاهم والوئام بين الاجناس المختلفة المتباينة، والرفع من المستوى الذهني الفردي والاجتماعي، هي من أقوى الدعائم لتوطيد السلام، الذي يكون به في الامكان ايجاد الظروف المواتية لانماء العمل الحضاري في صالح الإنسان إطلاقا.

وسكان افريقية، قديما، وأهل تونس في العصور الحديثة أتوا بنصيب وافر في سبيل ذلك. يصفهم ابن خلدون بقوله : «... واما تخلقهم بالفضائل الانسانية وتنافسهم في الخلال الحميدة، وما جبلوا عليه من الخلق الكريم، مرقاة الشرف والرفعة بين الامم... وحسن الملكة... وتوقير اهل العلم وحمل الكل وكسب المعدوم وقرى الضيف، والإعانة على النوائب، وعلو الهمّة وابابة الضيم... فلهم في ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف، لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتبعيه من الأمم» (1).

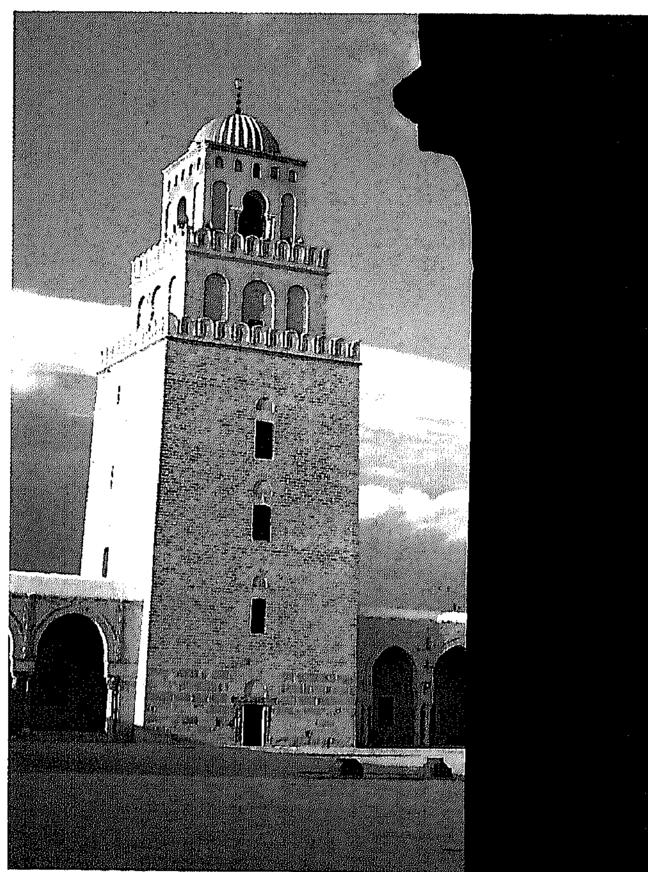
ونحن نعتزم فيما يلي عرض نماذج من ذلك، عبرة لمن اعتبر، توحي بغزارة ما أورثته تونس الثقافة البشرية العامّة، وبقيمة ما رفعته من حجارة ولبنات تسعى الى إعلاء صرح الحضارة متينا شامخا...

الحضارة التونسية في العصور الغابرة

يشاهد السياح وأصحاب الرحلات، في البلاد التونسية، «آثارا قديمة ومباني مختلفة الاشكال ومصانع للمياه مصنوعة، وقد سقط من كثير من تلك المباني أحجار مرسومة بخطوط ليست من خطوط أهل زماننا هذا»، تحكي قصة الماضي بلغات متعددة ولهجات متنوعة، «فكانت آثار تونس كثيرة، ورسومها الى فخامة بانيها مشيرة» (2).

ويفاجأ المتجول مفاجأة غريبة بما يلاقي من معالم وشواهد عن حضارات عريقة، ضاربة جذورها في أعماق القدم... ثروة اختزنتها الأرض على مر العصور، محتفظة بها لضمير الأمة الجماعي من طرافة ومن صفات خاصة خالدة. وبما قدمته تونس عبر التاريخ في سبيل الثقافة والحضارة الإنسانية.

فمنذ آلاف السنين نشّط البونيقيون التجارة (وما تقتضي من إنتاج صناعي وزراعي)، وانتشروا بالبحر الابيض المتوسط، حتى جزيرة ابيريا، وعلّموا الناس فلح الاراضي، والعدانة، وإنشاء السفن، وأدخلوا البلاد غراسة الزيتون... وساهموا، رجالا ونساء، في إحلال نمط من العيش الحضاري وفي نشر الثقافة والعرفان بين بني الانسان... فحوت مكتبة قرطاجنة آلافا مؤلفة من المخطوطات على البردي، باللغة الفينيقية، في العلوم والآداب والتاريخ والفنون والصناعات والزراعة... ووضع ماغون للأفارقة أول كتاب في الزراعة وغراسة الاشجار، كان له من الشأن ما كان، بوادي الرافدين، لكتاب «الفلاحة النبطية»، الذي نقله ابن وحشية. وعندما احرق الرومان هذه المكتبة، لم يروا بدّا من الإحتفاظ بهذا الكتاب، وقد اصدر مجلس الشيوخ الروماني أمره بنقل كتاب ماغون الى اللاتينية، فأجال علماء الزراعة من الرومان أيديهم فيه بالنقل والإقتباس؛ ومنهم قاتون (232-147 ق.م.) صاحب كتاب (De Rustica)، واستفاد منه بلين (ت 79 م) في «تاريخه الطبيعي» وكلومال (القرن الأوّل م) في «كتاب الفلاحة».


مأذنة
الجامع الأعظم
بالقيروان

وإن ننس فلا ننس العصر الروماني، وقد ازدهرت فيه الثقافة من جديد بإفريقية، فأنجبت أرضها علماء أجلاء وكتابا أفذاذا وأدباء موهوبين، من بينهم المبدع في فن القصة البارع أبولي (القرن الثاني م) ابن قرطاجنة، وهو الذي يقول مخاطبا أهلها: «لا يشاهد في مدينتكم سوى رجال مثقفين، تعمّقوا في العلوم كافّة، وصبيان

يتعلمون، وشبان تتباهى المدينة بعلمهم، وشيوخ يلقنونهم اياه ! أي قرطاجنة ! مدرسة مقاطعتنا الجليلة المحترمة، ورئي مبعث الوحي السماوي الى إفريقيا جميعها».

ومن بين هذه النخبة، لابدّ أن نذكر الشاعر القرطاجني اللاتيني تيرانس (194-159 ق. م) صاحب الروايات الهزلية الممتعة الذي أوحى الى موليار بمسرحيته «مدرسة الأزواج». وهو الذي لخص ما كان سائدا بقرطاجنة من روح انسانية رائعة في بيته البديع الذي جرى مجرى الأمثال : «*Homo sum, et humani nihil a me alienum puto.*» «أنا إنسان، ولا شيء مما يهم الإنسان غريب عنّي» !

دور تونس العربيةِ الإسلامية

وأما عن دور تونس في العهد العربي الاسلامي فقد مرّ بفترات اختلف فيها ما برز فيه علماؤها باختلاف العلوم.

يقول ابن الشباط التوزري (القرن الثالث عشر الميلادي) : «لم يزل بها على مر الزمان من العلماء والكتاب وذوي البراعة في المعارف والآداب، من تزدان بأوصافه الأقطار، وتشرق بأنوار كلامه الأسطار» (3).

وعمت هذه المعارف العلوم سائرها، من علوم لسانية وحساب وهندسة وطب وعلوم طبيعية بصفة عامة وزراعة وتنجيم وهيئة... وسنعرض نماذج مقتضبة مما أنتجته قريحة الباحثين العاملين بتونس فأرسوا أنماطا حضارية فتحت طريق الرقي والتقدم. ففي الرياضيات، منذ عهد مبكر، يذكر أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني (ت. 333 هـ/941 م) في كتاب «طبقات علماء إفريقية وتونس» (4) أن : «أبا زكرياء يحي بن سليمان الخرّاز أرادوا أن يولوه ديوان إفريقية لعلمه بالحساب، وهو يومئذ حدث، وكان ذلك سنة خمس وخمسين ومائة (155) «كما يذكر شقران بن علي (ت. حوالي 283 هـ/941 م) «العالم بالحساب والفرائض».

وفي عهد الأغالبة (800-910 م) يذكر أبو سهل القيرواني، المولود بالقيروان من أسرة تجار عراقية وله «كتاب في الحساب الهندي».

وكان الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبي (261-289/874-902) كثير المصاحبة للعلماء، وله ميل للعلوم الحكيمة، يتقن اللغة اللاتينية، فأنشأ مدينة رقادة. ويرى ح. ح. عبد الوهاب أنه أسس بها بيت الحكمة، وجلب إليها الكتب من المشرق واستدعى بعض القساوسة من صقلية (وقد أتم فتحها) لترجمة الكتب القديمة. فكان لبيت الحكمة مزية إعادة الصلة بدروس العلوم من فلك ورياضيات وفلسفة وطب.

I) الطب والعلوم الطبيعية

واشتهرت «المدرسة الطبية القيروانية «بكتب إسحاق ابن عمران وإسحاق ابن سليمان الإسرائيلي. وتزعّم تعليم الطب بها أحمد بن الجزار، فكان له مزية الفصل بين الطب والصيدلة

وحرر كتبا متميزة لشتى الإختصاصات الطبية من سياسة الصبيان وطب المشائخ الى طب الفقراء... واخترقت مصنفاته الآفاق شرقا وغربا. فنوّه الطبيب كشاحم شاعر سيف الدولة بكتاب «زاد المسافر وقوت الحاضر» بعد وصوله إلى دمشق :

أبا جعفر أبقيت حيّا وميتا مفاخر في ظهر الزمان عظاما
رأيت على زاد المسافر عندنا من الناظرين العارفين زحاما
فأيقنت أن لو كان حيّا لوقته يحنّا لما سمى التمام(5) تماما

ودخل «زاد المسافر» بلاد الأندلس على يد طارق بن بريق، قبل أن يصلها كتاب «القانون» لابن سينا.

ونقل «زاد المسافر» الى اليونانية في القرن الحادي عشر للميلاد، وترجمه الى اللاتينية (Peregrinantis Viaticum) قسطنطين الإفريقي، وليد قرطاجنة (ت. 480 هـ/1087 م) ونقله إلى العبرية موسى بن تبون ونقل قسطنطين أيضا كتب إسحاق بن سليمان: الحميات، (Liber de Fabribus) وكتاب البول (Liber de Urinus) وكتاب العناصر (Liber de Elementis) وكتاب الحدود (Liber de Defitionibus).

وفي العصر الحفصي بلغت العلوم والآداب والصنائع والفنون أوجها... وتوالت الاضطرابات السياسية، فخشي على مظاهر الحضارة والثقافة أن تتلاشى وتضيع. فشرع المصنّفون، كل في ميدانه، يدونون ما وصلت اليه المعرفة والبحث والفن: حرر ابن خلدون تاريخه الموسوعي ومهد له بمقدمة حلّل فيها تطورات العمران البشري ووضع منهاج العلوم الانسانية والطريق الوجيه لكتابة التاريخ.



أدوات جراحة قديمة (متحف باردو)

- ووضع ابن منظور القفصي (630-711 هـ/ 1232-1311 م) أكبر موسوعة لغوية : «لسان العرب».
- وحرر أحمد التيفاشي القفصي (ولد سنة 580 هـ/ 1184م) كتابه «أزهار الأفكار في جواهر الأحجار» جمّع فيه آخر ما وصلت اليه المعرفة في ميدان المعادن، وهو كتاب جيد طريف يذكرنا بكتاب البيروني «الجماهر في معرفة الجواهر» ؛ وطبع هذا الكتاب مع ترجمة إيطالية في فيرانزا سنة 1818.
- ووضع حازم القرطاجني كتاب «المناهج الادبية» جمع فيه آراء النقد الأدبي وخواص الأنواع الأدبية.
- وحرر أحمد بن الحشاء «مفيد العلوم ومبيد الهموم» على كتاب المنصوري للرازي، بقصد

أمير تونس أبي زكرياء يحي شيخ الموحدين لبني حفص (825-847 هـ/ 1417-1433م) واقتبس منه دوزي الكثير من المفردات لوضع معجمه «ملحق المعاجم العربية».
- واشتهرت بتونس أسرة الصقلي بالبراعة في الطب ومنها أبو العباس أحمد الشريف الصقلي (ت. حوالي 1411/820) ومحمد بن عثمان الصقلي صاحب «المختصر الفارسي».
وفي القرن الثاني للهجرة، بالمهدية ألف أبو جعفر المهداوي الشهير بابن سيد الناس، كتابا في الأدوية المفردة مرتبا على حروف الهجاء بالفارسية واليونانية والبربرية (6).

II) أثر تونس في التنجيم

برع فيه الوزير الكاتب ابو الحسن على بني أي الرجال الشيباني، القيرواني، شيخ الامير المعزّ بن باديس الزيري ومنجمه. (كان حيا عام 454 هـ/ 1062 م) وكتابه «البارع في أحكام النجوم والطوالع» اخترقت شهرته الآفاق وكان المرجع المهم بأوروبا في القرون الوسطى، إذ نقل الى شتى اللغات من قشتالية ولاتينية وعبرية وبرتغالية وفرنسية وانقليزية... يحصي فؤات سيزغين نحو الثلاثين عن النسخ المخطوطة من «البارع» (مجلّد VII ص 187).
ولابن قنفد القسنطيني شرح على أرجوزة ابن أبي الرجال، (خ. الأسكوريال عربية، 4، 909 الخ..).
وينقسم الكتاب إلى ثمانية أبواب :
I-III المسائل
IV-IV المواليد
VII الاختيارات
VIII التنجيم بصفة عامة (بما في ذلك ما يتعلق بالسياسة والتاريخ) (7)

III) آلات الرصد

-لعمر بن عبد الرحمان أبي القاسم بن زكرياء، القرشي نسب التونسي، التوزري أصلا، المتوفى عام 858 هـ/ 1454م :
- إخلاص النصائح في تخطيط الصفائح (8)
- محصّلة المطلوب في العمل بربع الجيوب (9)

الأرباع

يوجد بمدريد ربع من صنع أحمد بن عبد الرحمان الدهماني (854 هـ/ 1450-51م) رسم عليه ما يدل أنه تم صنعه من أجل عرض 36°40 ص، وهو تقدير لعرض تونس في القرون الوسطى.
- وتوجد عدة أراجيز في العمل بالربع المجيب، مطبوعة طباعة حجرية بتونس منذ قرن تقريبا.

المزاول

نذكر من بينها :

- في متحف قرطاج مزولة أفقية صنعت بتونس في القرن 14م. ، عليها كتابة «من صنع أبي القاسم بن حسن الشـدّاد سنة 746 هـ/ 46-1345 بتونس» وهي تحمل كالعادة إشارات الظهر والعصر، ثم أيضا علامة الضحى وساعة التأهيب (ساعة قبل الزوال) لصلاة الجمعة على الخصوص.

- وبصحن جامع عقبة بالقيروان اربع مزاول مركبة الواحدة فوق الاخرى عليها خطوط من مطلع الشمس الى غروبها وإشارات لأوقات الصلوات.

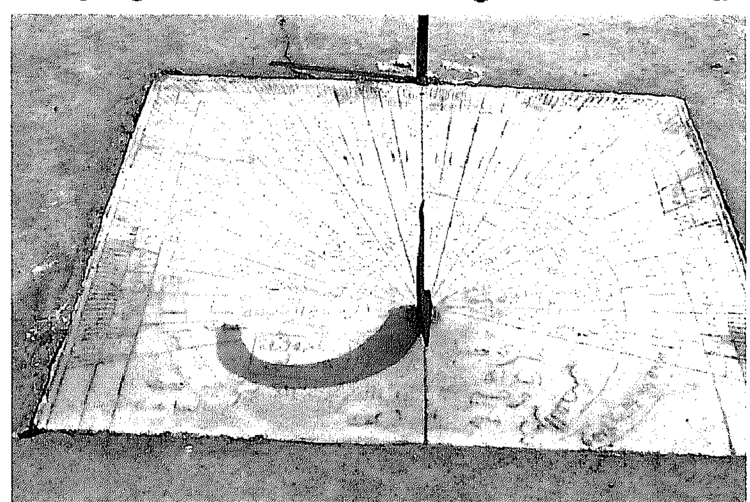

اسطرلاب



IV) علم الهيئة - الرصد - الأزياج

أ- يصف ابن خلدون علم الهيئة وجداوله المرتبة وتسمى الأزياج «واستخراج مواضع الكواكب للوقت المفروض ويسمى تعديلا وتقويما». إلى أن يقول : «وقد عوّل المتأخرون لهذا العهد بالمغرب على زيج منسوب لابن إسحاق من منجمي تونس، في أوّل المائة السابعة، ويزعمون أن ابن إسحاق عوّل فيه على الرصد... ولخصه ابن البناء في آخر سماه المنهاج (10) فولع به الناس لما سهل من الأعمال فيه» (11). وعبارة ابن خلدون ذاتها تدل أن زيج ابن إسحاق تلاشى وضاع في عهد ابن خلدون. وقد بقي هذا الزيج في عدد المفقودات إلى أن ساعد الحظّ أخيرا الباحث (David A. King) إذ عثر من بين مخطوطات حيدر آباد على نسخة من زيج ابن إسحاق، وهو عمل بديع في 400 صفحة من بينها 360 جدولا فلكيا تخص مشاهدات وأرصادا متنوعة. ويمثل هذا الزيج الحلقة المفقودة من الفلك المغربي؛ لقد حرر على ما يبدو سنة 1218 م. (وبالتاريخ الهجري ويد = 614) بمدينة تونس وقد حسبت بعض جداوله في الفلك الكروي بطول هذه المدينة؛ على أن باقي الجداول تتبع طول طليطلة وقد نقلت نقلا عن عمل أندلسي، ويبرر ابن إسحاق ذلك بكون بنية الجداول بنية عامّة لا تتأثر بما يتخذ كأصل من دوائر الزوال؛ واختيار دائرة الزوال بمكان ما إنما هو اختيار اعتباطي؛ فلذا لم ير ابن إسحاق حرجا في اتخاذ نتائج طليطلة دون أن يكون في حاجة إلى نقل حساباتها إلى طول تونس.

مزولة



وكثيرا ما كان ابن إسحاق يحيل على أعمال الزرقالي (طليطلة 1070) وابن الكمّاد (إشبيلية 1150م) وابن الهائم (إشبيلية 1200)؛ كما يسجل البعض من أرصاده الخاصة ومن ذلك تقديره للميل الكلّي (أي ميل فلك البروج) بتونس سنة 588 هـ/ 1192م (12).

وتجدر الملاحظة بأن من أوّل ما ظهر من الأزياج بأوروبا ما حرر منها بالدنمارك في القرن الثالث عشر الميلادي.

وبذلك يتم التواصل مع الازياج العربية وتكمل الحلقة في الارصاد الفلكية التي انتهت بارصاد تيكو براهة وقوانين كبلار المتعلقة بحركات الكواكب السيّارة.

ب - ومن الأزياج التونسية المذكورة بالقرن الرابع عشر للميلاد أعمال ابن الرّقام (خ. خ إسطنبول ومدريد والرباط).

جـ - وتوجد ببرلين مخطوطة فريدة تجمع عددا من جداول الميقات في القرن الرابع

عشر، بالنسبة الى عرض مدينة تونس (الزوال والظهر والعصر وأوقات التأهيب لكل درجة من درجات الطول ولكل يوم من أيام السنة الشمسية).

وتوجد بالقاهرة (MS Cairo ENL, K 7584, 1) رسالة مجهولة المؤلف حررت بصفاقس في القرن السادس عشر وعولجت فيها مسائل الفلك الكروي النظرية في مختلف الأزياج المغربية.

V) مسائل الري وحلّها في واحات المنطقة الصحراوية

يذكر البكري ما شاهد من زراعات جديدة بالبلاد التونسية، فتتسلق الأشجار المثمرة سفاح جبل زغوان وتنتشر حتى تجاور مدينة تونس وأطلال قرطاجنة ؛ ويصف فنون الري بها وما ابتكر أهل افريقية من مصانع وقنوات وحنايا توزّع المياه عبر البلد.

واصلح الأمير الحفصي المستنصر بالله الحنايا الرومانية الحاملة للمياه من جهة جقار، بالقرب من زغوان، حتى عاصمت تونس ورياض أبى فهر الملاصقة لها.

وبالجهات المشرفة على الصحراء بواجهة توزر، قام الإمام المؤرخ ابن الشباط (ت. 681 هـ/ في نهاية القرن الثالث عشر للميلاد) بتوزيع وادي توزر توزيعا عادلا بين عامة المزارعين.

يقول ابن الشباط : «ومدينة توزر من أحسن البلاد منظرا، وأقل منها خطرا، وحدائقها تسبي النهى، ويجتني منها كل جان ما اشتهى. . . » وأصل مياهها من عيون تنبع من الرّمل وتجمع خارج البلد في واد متسع، وتتشعّب منه جداول كثيرة، وتتفرع عن كل جدول منها مذانب يقسمونها بينهم على أملاك لهم مقرّرة مقاسم من المياه معروفة. . . ».

وصفها بعض الشعراء بقوله :

زر توزر ان رمت رؤية جنّة   تجري بها من تحتك الأنهار. .

قسم ابن الشباط القنوات الى ثلاث شعب تتفرّع كل منها الى تسع سواق، وهي نهاية التقسيم المادّي، وفيها ترتب الحصص حسب المدة الزمنية. فوحدة «الدالة» هي اليوم، بليله ونهاره، ويحسب فيه من طلوع الشمس إلى الإشراق الموالي؛ وضبطت تقسيمات اليوم كما يلي :

1) الشروق وغياب الشمس
2) الصلوات الأربع الأساسية : فجر وظهر ومغرب وعشاء
3) حلول الباب بالمدينة القديمة (أعني ساعة وربع الساعة قبل الشروق)
4) طول ظلّ الإنسان الشاخص مقدّرا بالأقدام (ولا سيما وقت الزوال).

واستنبط ابن الشباط أنماطا اضافية لإزالة الحيف وتجنب الأضرار بفرض ما سمي بالقادوس (وهو ضرب من المزول المائي يتم إفراغه في خمس دقائق) ورتب «قروض الماء» بين المستهلكين.

وبقي هذا النظام قائما حتى مدة غير بعيدة عنّا و«لأهل توزر على قسم المياه أمناء يقسمونها بحساب لهم في ذلك معروف، وأمر مقرّر مألوف. . . » الأمر الذي أدى المدير العام

الفرنسي للأشغال العمومية بتونس في عهد الإستعمار إلى أن يلخص هذا الوضع مصرّحا: إن مشكل الرّي لا وجود له في البلاد التونسية».

وكان للوضع الزراعي والإقتصادي بمنطقة توزر والجريد ما ساعد على نشر العلم والثقافة بها فكان الجامع الكبير بالمدينة قبلة أنظار الطلاب يزخر بحلقات الدروس وكبار العلماء. ونكتفي بالإشارة إلى أبي الطيب عبد المنعم بن محمد الكندي (ت 435 هـ/ 1442م) وكان «ممن لم تمنعه الإمامة في الفقه عن الإمامة في الهندسة...» (ابن الشباط) ورثاه تلميذه عبد الله بن يحي الشقراطسي بقصيدة يقول فيها :

إذا أشكلت أشكال اقليدس انبرى لها منه حبر بارع الفهم ثاقب (13)

الخاتمة

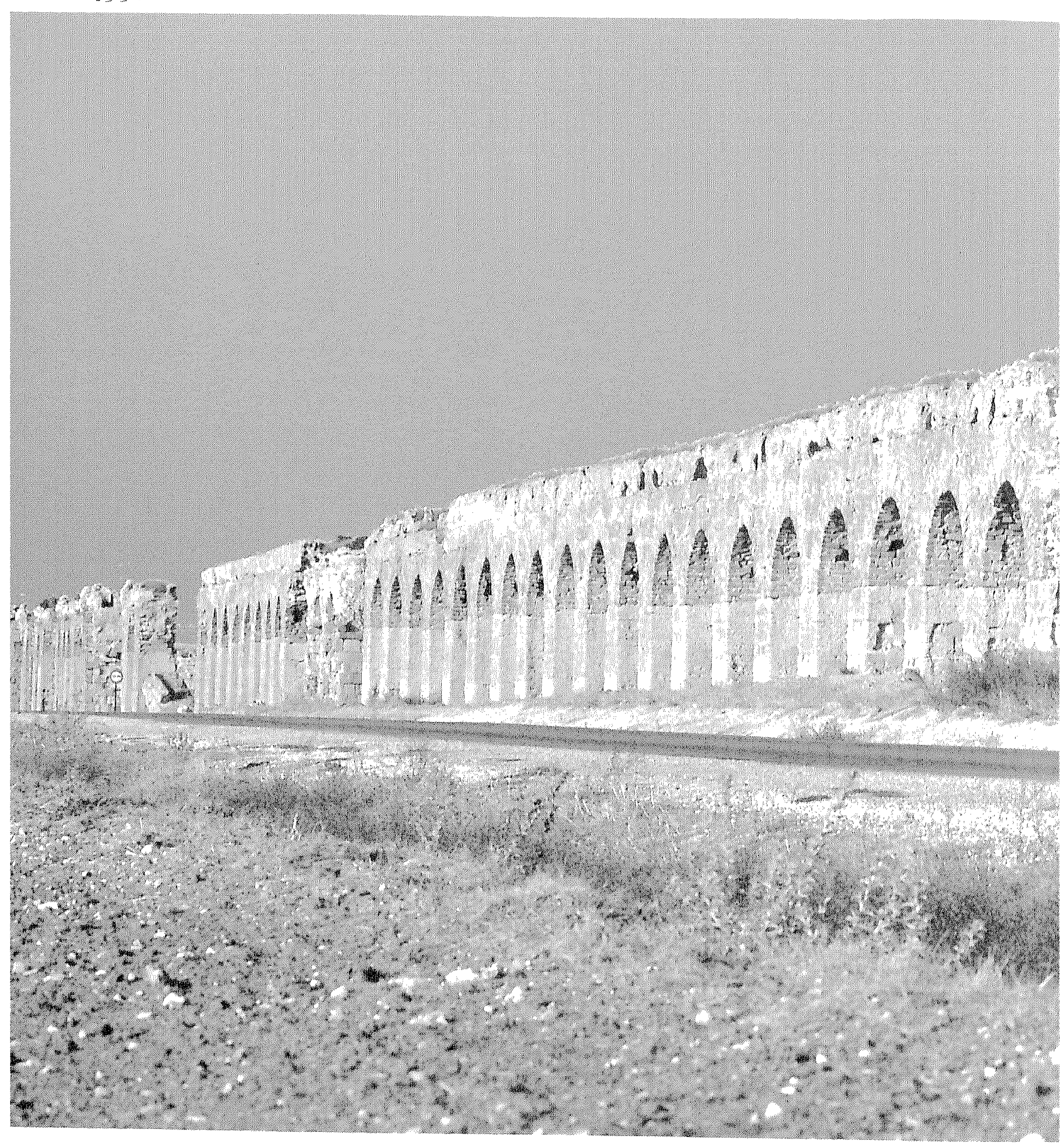
كان ما سبق عرضا وجيزا مقتضبا لا طمع له في أن يكون شاملا موفيا بالغرض ... ولكنه وضعه صاحبه لكي يوحي بجسامة العمل الحضاري الذي قدمته البلاد التونسية في سبيل البشرية، عبر التاريخ ...

تونس بلد صغير الحجم، إلا أنه عوّد عباده العمل والكدّ، فأحيوا الأرض وأخصبوها بعرق الجبين، فاشتهرت باسم «تونس الخضراء»، وبعثوا العلوم بينهم ونشروها في العالمين برأي ثاقب وعقل صائب وبحث جاد مثابر...

والكثير من المصادر ما فتئت بكرا مخطوطة على رفوف المكتبات، وقد تكدس من فوقها غبار السنين ... بل إن العدد العديد منها لم تتم حتى الآن فهرسته ... والكثير الكثير تلاشى واختفى طعمة للأرضة، أو نسيجا انتشرت في أحشائه الرطوبة والتعفن، فعسى أن يهدي الفضول والوفاء شباب الباحثين إلى الإهتمام بهذا الميدان الخصب ...

وفي الزوايا خبايا، وفي أحياء الماضي وتتبع مساريه ما يثير خطى الحاضر وما يفتح آفاق المستقبل ...

وخلاصة القول، في النهاية، أن بني البشر تتكافأ أعمالهم الصالحة، وأن في مسار التاريخ لعبرة تدعّم العمل المشترك والتآزر الشامل والترافق العام والتعاضد البشري.



هوامش

(1) ابن خلدون، كتاب العبر، ج 6 ص 104.

(2) رحلة التيجاني نشر، ح. عبد الوهاب، تونس 1378هـ/ 1958م.

(3) ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار افريقية وتونس، ص 14.

(4) تقديم وتحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي، الدار التونسية للنشر 1968 ص 174 ؛ معالم الإيمان، 2، 41.

(5) يريد كتاب التمام ليوحنا بن ماسويه.

(6) خ. المكتبة الوطنية، تونس، 18177.

(7) انظر كشف الظنون، 1، 217، 51 ,GAL ,401 ؛ معجم المؤلفين 1، 224.

(8) الخزانة الحسينية، الرباط رقم 1009، 134-135.

(9) الخزانة الحسينية، الرباط رقم 1009 ؛ 403-404-405.

(10) هو «منهاج الطالب في تعديل الكواكب».

(11) المقدمة، الفصل 16 ص 489، نشر خوان برنا مقدمة المنهاج مع ترجمة إلى الإسبانية سنة 1932، ونشره (Renaud) سنة 1948 بعنوان (Ibn al Bannâ, Almanach).

(12) اقتبس من زيج ابن اسحاق في بعض الأزياج المصرية واليمنية، مما يدل على ما كان له من أثر خارج المغرب وتجري الآن البحوث حثيثة بفرنكفورت حول هذا الزيج البديع.

(13) انظر معالم الإيمان ج. 3. ص 228-229.

ابراهيم الطيبلي التونسي مكتشف الطبعة الأولى من قصة دون كيخوت

(Don Quijote)

عبد الحكيم القفصي سلامة

من المعروف أن تاريخ الطبعة الأولى من قصة «دون كيخوت» للكاتب الإسباني الشهير ثيربانتس (Cervantes) مجهول إلى حدود سنة 1948 وكان تاريخها موضوع كثير من البحوث والدراسات والتأويلات. ولقد تضاربت وتعارضت آراء الدارسين القدامى والمعاصرين حول هذا الموضوع. ولم يحسم الموضوع نهائيا في الأوساط الثقافية والأدبية إلاّ بفضل مقال نشره الأستاذ (J. Oliver Asin) مدير الدراسات العربية سنة 1948 بين فيه بالحجج الدامغة على أن تاريخ الطبعة الأولى يرجع إلى سنة 1604، (1) وذلك بالإعتماد أساسا، على مخطوطة محفوظة بمكتبة (Casanatense) بروما من وضع الكاتب التونسي إبراهيم الطيبلي (2). وقبل الشروع في عرض هذه الفكرة لا بد من إلقاء بعض الأضواء على قصة دون كيخوت ومحتواها والإنتشار الواسع الذي حظيت به في جميع أنحاء العالم.

دون كيخوت

في عام 1605 نشر الجزء الأول من كتاب دون كيخوت لثيربانتس وأحرز رواجا عظيما بإسبانيا وذاعت شهرته فترجم إلى كل اللغات الحية بعد ذلك بوقت قصير وطبع العديد من المرات لأنه كان من المؤلفات الفريدة وإحدى روائع الأدب العالمي الخالدة.

من المعلوم أن الكتّاب قبل ثيربانتس ألفوا الروايات والقصص الخيالية حول الفروسية التي كانت سائدة في أوروبا زمن الاقطاع. أما قصة دون كيخوت فهي أثر مشحون بالسخرية الذكية والنقد اللاذع، فثربانتس يسخر ممن تستهويهم بعض المثل العليا كالشجاعة والشهامة والمروءة التي تناولتها

قصص الفروسية بكثير من الخيال والتزييف. ويكذّب ما جاءت به هذه القصص من الأساطير والسفاسف. وأراد ثيربانتس من خلال قصته أن يجعل من المغامرات مواقف سخيفة، مضحكة، مذهلة وذات نتائج سيئة. فتحويل المواقف البطولية في نظر المجتمع الإسباني إلى مواقف هزلية جعلت من ثيربانتس من أشهر الكتاب في النقد والسخرية وتعتبر قصته أول أثر في الأدب الهزلي في العالم وأهم أثر في الأدب الإسباني. فالقصة مثال رائع للفكاهة المضحكة والأدب الهزلي المبني على المتناقضات المضحكة والمفارقات السخيفة والنكت الحية والتلاعب المبدع بالكلمات والأفكار والأخطاء اللفظية والتعبيرية وكذلك الحكم المأثورة فضلا عما يمتاز به الكاتب من حيوية دافقة.

ولد ثيربانتس بالقلعة (Alcala de Henares) سنة 1547 ومات سنة 1616 فهو من معاصري كارلوس الخامس (1516-1556) وفيليب الثاني (1556-1598) وفيلب الثالث (1598-1621) والأحداث الدامية التي تعرض إليها الموريسكيون أو آخر المسلمين المقيمين بإسبانيا من تعذيب ونفي وطرد والتي نقل بعض مظاهرها كاتبنا.

وقد قام ثيربانتس من خلال كتابه بنقد لاذع لشخصيات معينة كالملك كارلوس الخامس والملك فيليب الثاني زيادة على سخريته بالمجتمع الإسباني. فقد عرض لنا الكاتب أروع صورة للعقلية الإسبانية ومن خلالها العقلية الإنسانية فهو يصور بدقة واضحة النفس البشرية في جميع مستوياتها تصويرا بارعا. ويظهر من خلال البطلين للقصة أن ثيربانتس أراد أن يكتب عن المثالية والواقعية. فدون كيخوت قصة رائعة تمزج الواقع بالخيال وتجمع بين المستويات الشخصية والقومية والإنسانية. لذلك وقع تداولها في أوساط عريضة من المجتمع الإسباني حسب شهادة إبراهيم الطيبلي التونسي قبل 1605.

إبراهيم الطيبلــي

يقول إبراهيم الطيبلي حسب ما جاء في تحقيق المخطوط المذكور أعلاه من طرف زميلنا الباحث الإسباني (Luis F. Bernabé Pons) ما يلي : «أتذكر أنه في سنة 1604 كنت بمعرض القلعة (Alcala de Henàres) أتجول بالشارع الكبير مصحوبا بصديق مسيحي ليست له دراية ولا معرفة بما تركه السلف فوصلنا إلى مكتبه. وبصفتي من عشاق القراءة طلبت كتبا هامة ومعروفة اشتريت منها ستة. وبينما كنت أطلب الثمن وأدفع المبلغ شرعت أتبادل الكلمات مع الحاضرين في حين كان صديقي ومرافقي يتصفح الكتب. وفي الأخير طلبت منه في الطريقة التي استعملناها لقضاء وقتنا. فأجاب «لم أفهم شيئا بما قرأت وكان عليك أن تشتري كتب الفروسية فأجاب طالب كان موجودا ظهر لنا دون كيخوت جديد» (3). ويتبين من خلال هذه الحادثة العرضية أن قصة دون كيخوت كانت موجودة ومعروفة ومتداولة بإسبانيا سنة 1604. ويشير الأستاذ (J. Oliver Asin) اعتمادا على هذه الحادثة أنه توجد طبعة لقصة دون كيخوت قبل سنة 1605 تاريخ الطبعة المتعارفة. ومما يزيد في قيمة هذه الحادثة أن الطيبلي كتب التاريخ بالأحرف وليس بالأرقام مما لا يدع أي مجال للشك والإضطراب.

وهكذا يبقى إبراهيم الطيبلي حسب تحليل الأستاذ (J. Oliver Asin) وتأكيد الأستاذ (Luis F. Bernabé Pons) أهم ركيزة تقوم عليها الأبحاث الأدبية المتعلقة بالطبعة الأولى لقصة دون كيخوت.

واعتمادا على هذين الأستاذين فإن إبراهيم الطيبلي ولد في الثلث الأخير من القرن السادس عشر. والطيبلي اسم موروث من أجداده الذين استقروا بطيبلة وهي قرية اندثرت الآن إلا أن الإسم

موجود ويعني رافدا من روافد شقورة (Segura) وهو ينتمي بذلك إلى عائلة موريسكية استقرت بمدينة مرثية (Murcia) وكان يسمى بإسبانيا بـ (Juan Perez) إلا أنه عندما استقر بمدينة تستور التونسية سنة 1609 أصبح يعرف باسم إبراهيم الطيبلي فيكون بذلك من معاصري ثيربانتس.

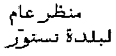
كان يعرف اللغة اللاتينية ويحذق اللغة الإسبانية وكانت له ثقافة مسيحية متينة مكنته من الرد على النصارى، وتحصل خاصة بعد سنة 1609 على ثقافة إسلامية واسعة وأصبح من المناصرين الأشداء للدين الإسلامي الحنيف فقام بتعليم أبناء وطنه الورسكيين مبادئ الدين الإسلامي باللغة الإسبانية نظرا إلى أن هذه اللغة كانت مستعملة بتستور إلى حدود سنة 1735 حسب شهادة القس الإسباني (Francisco Ximenez) (4).

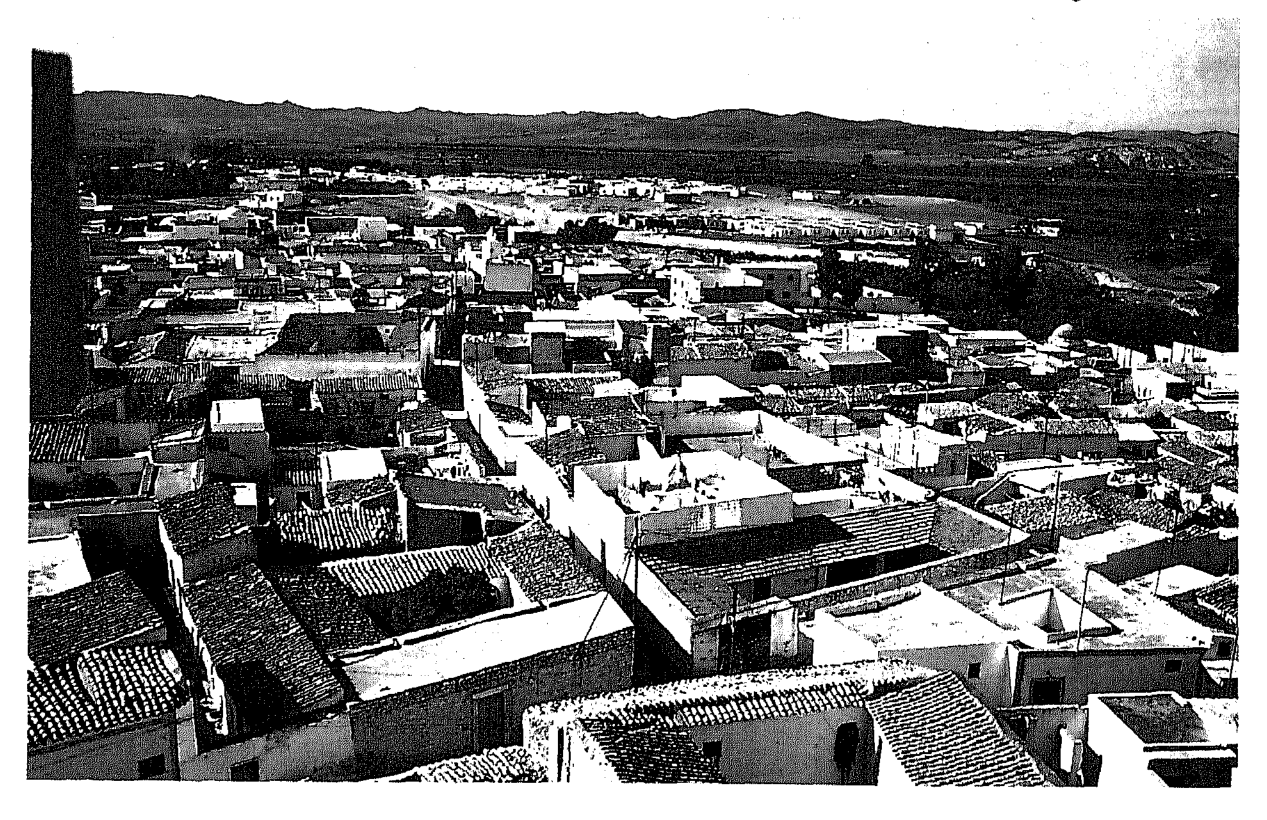
ويظهر أنه التجأ إلى تستور بحثا عن العزلة والسكينة مما مكنه من كتابة كتابه سنة 1037هـ/ 1628م حسب ما جاء حرفيا في المقدمة.

وكان بجانب ذلك يقرأ الكتب بالعربية وبالإسبانية ومن المولعين بسقراط وزنون (فيلسوف إغريقي 335-264 ق.م.) وهوراس (شاعر لاتيني 65-8 ق.م.) ومن عشاق الشعراء والقصاصين العاصرين لكارلوس الخامس.

ويمكن أن يكون الطيبلي صاحب كتاب «الجيل برنفي (El Evangilio de Bernabé) (5) الذي يعد من المصادر الهامة في الكتابات المسيحية. والكتاب موجود بمدينة (Sydney) الاسترالية. وفضلا عن ذلك فقد كان الطيبلي ناسخا للكتب الورسكية التي عرفت انتشارا واسعا في زمانه. وبالرغم من العذاب والطرد فحبه لوطنه لم يتغير فهو لم يطعن في المسيحية ولم يحقد على الاسبان الذين تسببوا في آلامه.

وهكذا يتضح ان الطيبلي كان شاهدا ممتازا للأحداث التي مرت بها إسبانيا في أوج ازدهارها وكذلك ناقدا حيا للتعصب الديني الذي عرفته إسبانيا في ذلك الوقت. فالطيبلي كان ضحية لمجتمع لم يعترف بالتعايش والتسامح وكتابه أحسن انموذج لذلك.


منظر عام لبلدة تستور



الأنشــــودة (El Cántico)

كتب هذا الكتاب بتستورسنة 1037 هـ/1628م حسب إمضـــاء الطيبلي نفسه وقد وضع شعــرا ونثرا يحمل عنوان «الأنشــــودة» (El Cántico) وهي عبارة عن مجموعة شعرية تحتوي على 4608 بيتا من الشعر ومقدمة وخاتمة وفصلا هاما جدا فيه إشارة إلى وجود طبعة أولى لقصة دون كيخوت، وكل ذلك بالإسبانية. ويحتوي الكتاب على بعض الإشارات والهوامش باللغة العربية ويجمع أيضا آيات قرآنية وأحاديث نبوية.

ويرمي الكاتب من وضع هذا الكتاب إلى الدفاع عن الإسلام وإلى تثبيت الموريسكين في عقيدتهم تجاه حملات التشكيك الصادرة عن النصارى. فبعد المقدمة النثرية الموجهة إلى حاكم تونس في ذلك الوقت يوسف داي (1610-1637) وأحد مساعديه علي السراج. يبدأ الكاتب بقطعة شعرية يمدح فيها هذا الأخير ثم يقوم بتمجيد الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة الأربعة ثم يتعرض إلى مشكلة طرد الموريسكيين من إسبانيا وكيفية خروجهم من بلادهم وأسباب ذلك مع التلميح إلى كل تفاصيل المحنة التي تعرضوا إليها. ويتعرض الكاتب كذلك إلى مواطن الخلاف بين النصارى والمسلمين كالتثليث والصلب وتحريف التوراة والإنجيل. وهكذا يدخل الكتاب في مجال الجدل العقائدي والردود على النصارى واليهود. فالكتاب مرتبط أشد الإرتباط بالصراعات الحادة بين الأديان السماوية وكذلك بالادب المسيحي المعاصر له. وقد انعكست الصراعات المذهبية على بعض الاعمال الادبية التي ظهرت بإسبانيا في مطلع العصر الذهبي (Siglo de oro) وقد تميز هذا العمل بشكله العامي الذي مكّنه من الانتشار بين مختلف الاوساط الاجتماعية المسيحية والموريسكية.

ويبين هذا النص مدى الاندماج التام الإجتماعي والثقافي لبعض الموريسكينين بالبلاد الاسبانية فهو يعد بحق عملا ادبيا بارزا بالرغم من عدم وجود أية إشارة إليه في الادب التونسي وعدم تداوله في أوساط الاندلسيين النازحين من إسبانيا.

ولإبراز هذا العمل الادبي الهام على المستوى العالمي يجب الاشارة إلى عديد البحوث والدراسات التي تناولت هذا الكتاب من ناحية المحتوى وكذلك من جانب استعمال الاساليب اللسانية ذات الخصائص المتميزة.

الخاتمـــة

يمثل الطيبلي رمزا من الرموز الهامة للأدب الهامشي ومصدرا عظيما من المصادر في اللغة والادب الموريسكي وكذلك الادب الإسباني. ويعد بذلك أحسن ممثل للكتاب الموريسكيين الذين كتبوا بالاسبانية وهو ينتمي بالنتيجة إلى النخبة المثقفة الاسبانية وكذلك التونسية فهو يكون بذلك مثالا تاما للثقافة المزدوجة.

هوامش

(1) «El Quijote de 1604», Bulletin de la Real Academia Espanola, XXVIII (1948) 89-126.

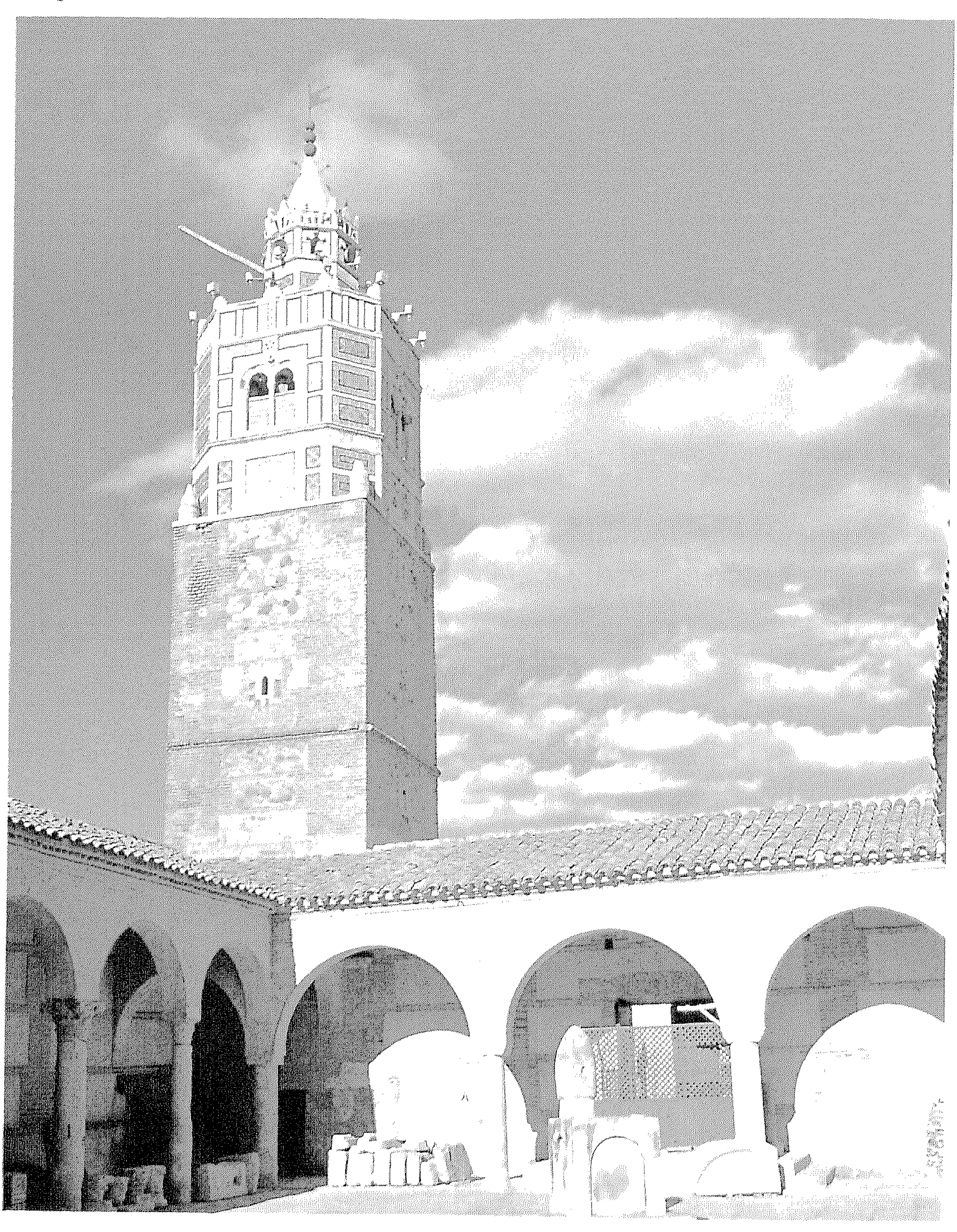
(2) L.F. Bernabé Pons, El cantico islamico del morisco hispanotunecino Taybili, Zaragoza, Institucion Fernando el Catolico, 1988, 274 p.

(3) Idem. Ibidem. p. 153.

(4) Zbiss S, Gafsi A, Boughanmi M, de Epalza M, Etudes sur les Morisques Andalous, Tunis, I.N.A.A., 1983, p. 82.

(5) M. de Epalza, Sobre un posible autor espanol del Evangilio de Bernabé, Al Andalus, XXVIII, (1963) 179. pp. 479-491.

تستور:
الجامع الكبير



ابن غانم التونسي بين إسبانيا والعالم الجديد وإدخال صناعة المدافع إلى تونس

عبد الحكيم القفصي سلامة

«تولعت بالسفر في البحر المحيط، فسافرت فيه مرارا ثم سافرت في السفن الكبار المسماة بالقيلونية (1)، بالأعجمية، التي تأتي بالفضة من الهنود الغريبة البعيدة، فكانت تمشي عمارة كما هي من عاداتهم، وفيها جيش ورجال عارفون بآلات الحرب البارودية، وكانوا يجتمعون مع اكابر القوم للكلام في تلك الصناعة وتارة يأتون بالكتب المؤلفة في ذلك الفنّ وهي كثيرة، لان العارفين بالعلم المباشرين للعمل وغيرهم لمّا رأوا أن ملوكهم يعظمون أهل ذلك الفنّ ومن يؤلف فيه اعتنوا به. وكنت أجالسهم وأحفظ ما يتفقون عليه وأشتغل بيدي في المدافع، وجميعهم لا يظنون انني اندلسي. »... « وقد رأيت بين النصارى حسن التدبير والإعتناء بكل ما يحتاج إليه من الامور في الحروب في شأن المدافع... »

يتضح من خلال هذا النص الهام والغريب المستخرج من المخطوط الذي كتبه ابراهيم أحمد بن غانم أن نقل التكنولوجيا واستيعابها وتطويعها لملاحقة الحضارة المتطورة - اعتمادا على التراث العلمي المتراكم واستفادة من المعرفة التكنولوجية المتواصلة- كان من اهتمامات التونسيين على مر العصور.

وقد برزت بعض الأسماء التونسية في هذا الحقل وذلك عندما تمكنت من أن تهضم العلوم المتواجدة على الساحة العالمية وأن تساهم في نشرها والتعريف بها خدمة لتونس وللإنسانية.

ويمكن أن يعد ابن غانم من أبرز هؤلاء نظرا لما تركه من معلومات هامة جدّا حول صناعة المدافع وطرق استعمالها في أوروبا عامّة وبإسبانيا خاصة أثناء القرن السابع عشر، مع العلم وأنه استقى هذه المعلومات سرّا عندما كان يشتغل في البحرية التجارية الاسبانية الرابطة بين إسبانيا والعالم الجديد.

ويبين تأليفه القيم «كتاب العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع» قدرته الفائقة في نقل التكنولوجيا المتطورة وحذقه في استيعابها وتطبيقها.

محتوى المخطوط

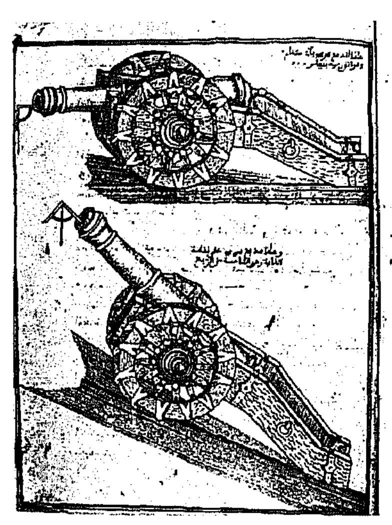
يستعرض ابن غانم في كتابه مختلف أنواع المدافع المستعملة بإسبانيا أثناء القرن السابع عشر ويمكن أن نذكر منها الحجرية والمتينة والناقوصية والخزنية والقلبرينة والطويلة والرهيفة والصحيحة والبارودية والعظيمة القتالة (2). وبجانب ذلك يقوم الكاتب بالتعريف بخصائصها وطرق استعمالها ويبين أجزاءها مثل العجلات والسرير والخزانة والجعبة والمسطرة والقطر والبخش ومغرفة التعمير والمدكة والفتيلة والابرة والسلك والمهراس والسلاسل والمسامير والكور والقراطيس والبارود والملح والكبريت.

وقد حرص ابن غانم على عرض مختلف طرق الرمي والقذف بالمدافع باستعمال الرسوم البيانية والصور الواضحة التي ظهرت في الكتاب في منتهى الجمال والروعة وكانت شاهدا على حذقه لهذا الفنّ وبراعته فيه.

واعتنى الكاتب بشروط الاحتراف بالمدافع وذلك بتقديم بعض الوصايا الهامة للمدفعيين فهو يؤكد على ضرورة التحكم في جميع المسائل النظرية والتطبيقية المتعلقة باستعمال المدافع مع حذق الهندسة الحربية التي تتطلّب البراعة البدنية والقوة العقلية.

وأظهر ابن غانم قدرة فائقة في الكشف عن الطرق الهجومية الحربية والاستراتيجية العسكرية وتنظيم الجيوش وتطور الصناعات الحربية سواء بإسبانيا أو ببلدان الخلافة العثمانية.

وأدرك المؤلف أن صناعة المدافع واستعمالها يتطلب تعليما متعمقا وحنكة كبيرة في طرق اختيار المكلفين بالمدافع وتطبيق النظام الصارم.

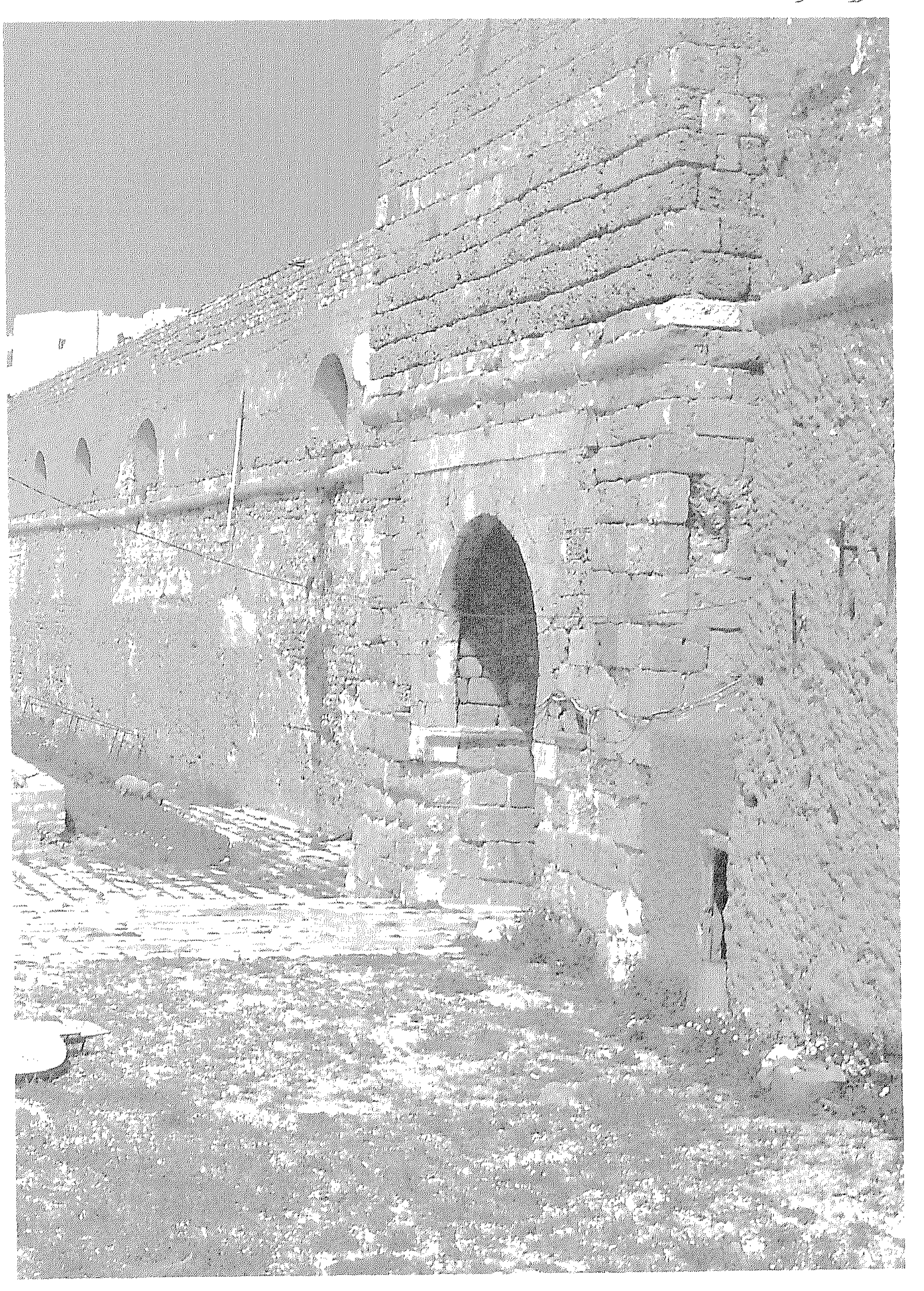


مخطوط «العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع» (دار الكتب الوطنية بتونس)

وأبرز الكاتب الدور الكبير الذي لعبته المدفعية في الحروب وخاصة في عصره، باعتبارها وسيلة هامّة في تحقيق الانتصار والتوفق في الخارج واستتباب الامن في الداخل. ويبين ابن غانم أن أساس التفوق هو حذق استعمال المدافع فهو يبرز التنظيم المحكم الذي وصلت إليه أوروبا عامة واسبانيا خاصة مقارنة مع ما شاهده لدى رجال المدفعية بحلق الوادي الذين لا يحذقون استعمال المدافع ولا يدركون أهميتها: «ولما رأيت الطائفة المسماة بالمدافعين المرتبين لا معرفة لهم بالعمل وأنهم لا يعمرون ولا يرمون بما يقتضيه العمل...»

وبجانب هذه المعلومات الهامة التي تبين مدى خبرته واطلاعه على أمور المدفعية في زمانه يتطرق ابن غانم إلى مواضيع أخرى هامة من ذلك اعتباره أن الغزوات البحرية ضد السواحل الاسبانية والايطالية جهاد ومساعدة للباب العالي ونتيجة لذلك فهو يهتم بدراسة العلاقات بين دول البحر الابيض المتوسط باعتبارها مكملة للشؤون العسكرية في هذه المنطقة.

قلعة حلق الوادي
المعروفة بالكراكة



ونتيجة لكلّ ذلك فقد حاول بعث وترسيخ صناعة الحديد والنحاس والخشب اللازمة لتركيب المدافع في ميناء حلق الوادي (3) مع تطوير التنظيم العسكري بهذا الميناء باعتباره غير كاف نظرا لوجود دورية واحدة من المدفعيين تتركب من بولقاباشي وأوضباشي وثمانية مدافعية، مقارنة مع مؤسسة ديوان الحرب بإسبانيا التي اكتسبت تجربة كبيرة في التنظيم العسكري.

يبرز اذن من خلال هذا العرض السريع أن ابن غانم استطاع أن يلمّ بخصائص المدافع المستعملة في زمانه نظرا لما اكتسبه من الكتب الاوروبية التي ألفت في هذا الفن ولتجربته الواسعة التي تحصّل عليها عندما اشتغل في البحرية التجارية الاسبانية بالمحيط .

وبالرغم من هذا المستوى الذي ارتقى إليه فإنه بقي متصلا بكل الاكتشافات التي تتعلق بهذا الفن من ذلك أنه أكمل معرفته باستعمال المدافع وذلك بالإطلاع على الكتب الاوروبية والتجربة الجديدة التي حصلت له عندما كان قائدا بحلق الوادي : «ثم وليت إلى تونس والامير يوسف داي [1610-1637] أمرني بالقعود في حصن حلق الوادي ونحن من أهل الجيش في الراتب وفيها كملت معرفة آلات المدافع بالإشتغال بيدي فيها وبالقراءة في كتب الفن بالأعجمية».

ولم يقتصر حب اطلاعه على نفسه فقط بل أنه أراد أن يفيد الأمة الإسلامية حتى تتم إفادة رجال المدافع المسلمين.

ولتعميم الفائدة استعمل ابن غانم عند تأليفه الكتاب طرقا بيداغوجية متطورة : لجسيم آرائه برسوم هندسية واضحة وصور دقيقة وتوزيع المسائل التي تطرق إليها على أبواب متسلسلة حسب نموذج متكامل ومنطقي فالمخطوط يحتوي على مقدمة مشفوعة بخمسين بابا مترابطة ومتكاملة.

فهذا التنظيم على المستوى العقلي وهذا الإستيعاب الكبير لفن المدفعية يشرح بصورة واضحة المكانة المتميزة التي يحتلها ابن غانم كعلم من أعلام البلاد التونسية.

فمن هو ابن غانم ؟

ابن غانم (4) : هو إبراهيم أحمد بن غانم بن محمد ابن زكرياء الاندلسي المعروف بإسبانيا بالمرباش أو الرباش (5) حلّ بتونس إثر قرار الطرد الذي اتخذه فيليب الثالث (1598-1621) ملك إسبانيا ضد الموريسكيين أو آخر المسلمين بالأندلس سنة 1609.

ونظرا لخبرته في الأمور العسكرية جهز له عثمان داي (6) سفينة للجهاد في البحر «وأقبل أمير المدينة عثمان داي -رحمه الله- وقد منى علي مائتي رجل من الاندلس وأعطاني خمسمائة مكحلة ومائتي سكينا وغير ذلك مما يحتاج إليه في سفر البحر...» (7) إلا أنه رجع بسبب جروحه البليغة إثر معركة ضد النصارى. وفي عهد يوسف داي (8) انطلق من جديد من ميناء حلق الوادي متجها إلى السواحل الإسبانية غير أنه وقع في الأسر قرب مدينة مالقة في شهر أوت 1610 وبقي بالسجن مدّة سبع سنوات رجع إثرها إلى البلاد التونسية سنة 1617 ليقود حامية حلق الوادي. وقد شرع بهذا الميناء بداية من سنة 1631 بتأليف كتابه العز وذلك باللغة الإسبانية نظرا لجهله اللغة العربية ودام هذا المجهود الكبير حوالي سنتين.

وقد قام أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي المدعو (Bejarano) (9) بترجمة الكتاب إلى اللغة العربية في بداية عهد مراد داي (1637-1640) وانتهى منه سنة 1639. «وبعد أن ولينا إلى مدينة تونس حرسها الله طلب مني أخونا وحبيبنا في الله المؤلف للكتاب أن اترجمه من

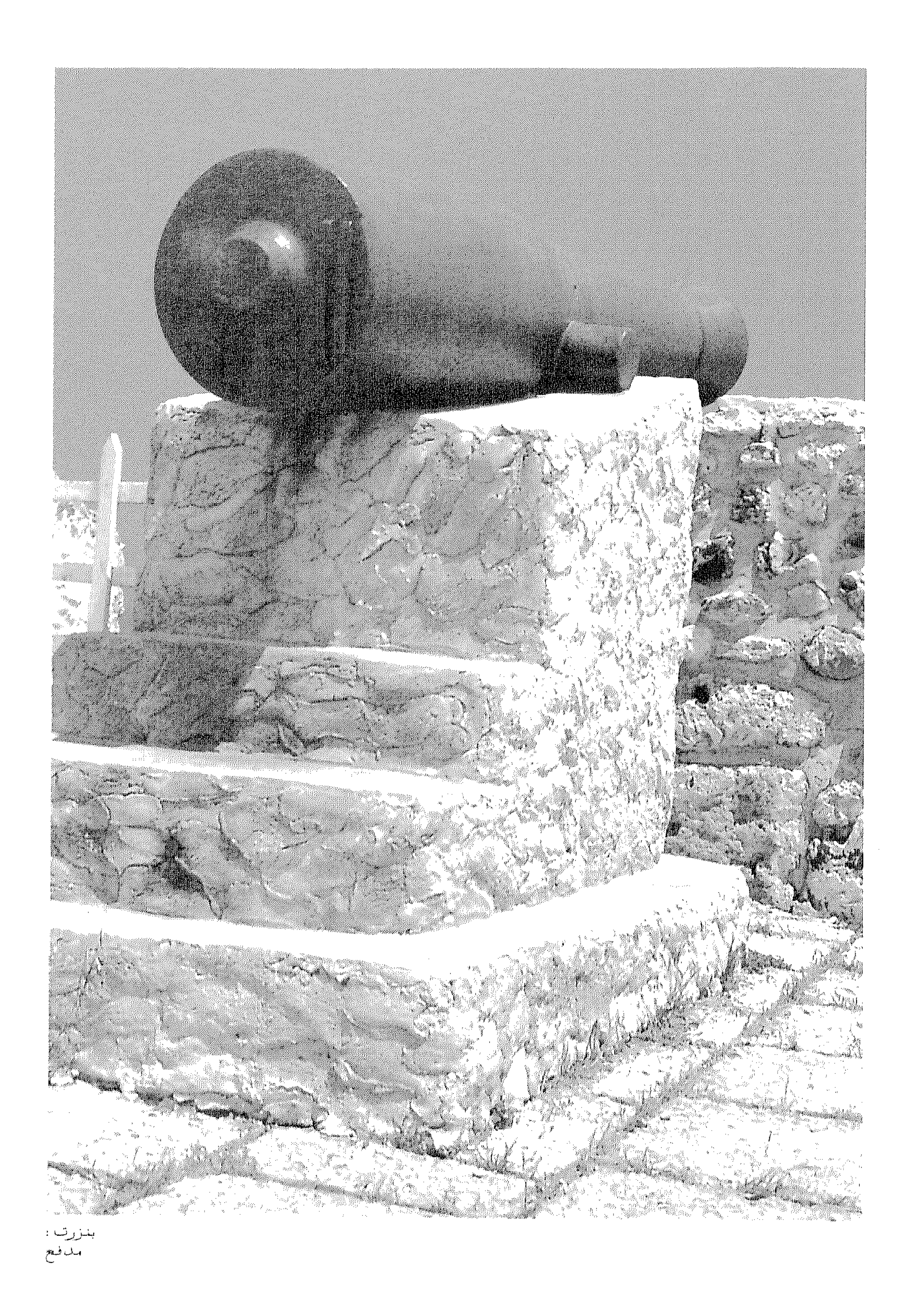
اللسان العجمي بالعربي لانه علم أن بمدينة مراكش كنت ترجمان السلطان... وكاتب سرّه باللسان العجمي... ولما طالعت الكتاب العجمي الذي كتبه الرئيس مؤلفه بخط يده...».
وقد أنجزت هذه الترجمة في ظروف صعبة نظرا لعدم وجود مصطلحات عربية مقابلة لأسماء المدافع في اللغة الإسبانية بعد الإتفاق مع المؤلف «.. وبعد أن اشتغلت بعض الأيام بترجمة الكتاب توقفت من أجل أسماء المدافع وما يتعلق بها لانه لم تعرف لها أسماء عربية حتى طرحت القلم وأردت أن أتركه... وكنت إذا أشكل علي شيئ من الكتاب نسأل الرئيس ويبين لي في الحين بيانا شافيا...» وقبل القدوم الى تونس اشتغل ابن غانم في البحرية التجارية الاسبانية بين اسبانيا والعالم الجديد وباشر صناعة المدافع نحو الثلاثين سنة كما يذكر ذلك في الباب الاول من المخطوط. وقد تم سجنه باسبانيا واطلاق سراحه اثر تدخل أحد كبار الأسبان وبعد عملية رشوة. ونحن نجهل أسباب ومدّة سجنه. ومن الراجح أنه ولد سنة 1583 بمدينة نولش (10) التابعة لإقليم غرناطة.

الخاتمـــة

لا شك أن مساهمة ابن غانم في إدخال صناعة المدافع بالبلاد التونسية تعدّ من الأمثلة القليلة في قدرة التونسيين على استيعاب التكنولوجيا المتطورة والمتعارفة في البلاد الأوروبية (11). ورغم أنّ هذا العمل الجليل الذي قام به لم يعرف امتدادا واسعا في القرون التي تلته فإنه يبين مدى تعلّق هذا الرجل بمظهر هام من مظاهر النهضة الأوروبية في ذلك الوقت.

هوامـــش

(1) (Galéon) عبد المجيد التركي، وثائق عن الهجرة الأندلسية إلى تونس حوليات الجامعة التونسية. 4 (1967) ص. 5-6.
اعتمد هذا الكاتب على المخطوط المحفوظ بالمكتبة الوطنية التونسية تحت رقم 1407. وتوجد نسختين لهذا الكتاب تحت رقم 3433 و 18120 بنفس المكتبة.
قام الباحث سعيد بن عثمان بتحقيق الجزء الأول من المخطوط بالإعتماد على هذه النسخ. تونس كلية الآداب. 1970.
من المعروف أنه إثر اكتشاف أمريكا قامت إسبانيا باحتلال الجزء الأكبر من أمريكا الجنوبية واستغلال خيراتها وخاصة الفضة من منطقة (Potosi) في البيرو. ويتم استجلاب الفضة في سفن كبيرة (Galéon) محروسة بسفن حربية مجهزة بالمدافع انظر (Tomazi, Histoire de la navigation. Paris, Que-Sais-Je. P.U.F.).
(2) من المعروف أن حروب إيطاليا (1493-1559) شاركت فيها إسبانيا وقد ساعدت هذه الحروب على تقدم صناعة الأسلحة وخاصة صناعة المدافع. انظر نورالدين حاطوم، تاريخ عصر النهضة الأوروبية، بيروت دار الفكر، 1968، ص. 353 وكذلك حرب الإسترجاع الذي خاضتها إسبانيا ضد المسلمين انظر (Ramón Menendez Pidal, Historia de Espana, XIX, el Siglo XVI. MADRID, Espasa Calpe, 1989, P. 709.)
لم نتمكن من معرفة خاصيات هذه المدافع غير أن المدافع المستعملة في إسبانيا في هذه الفترة هي : (Lombarda Bombarda) وكذلك (Planeta, Historia, de Espana, el siglo de oro P. 380. Cañon, culebrina, media cañon, media culebrina, cuarto de cañon)
انظر (Cañon serpentino. Ramón Menendez, Pidal, Op. Cit. P. 710)
توجد بعض الرسوم لهذه المدافع في بعض الصور القديمة التي تمثل الحملات الإسبانية على تونس.



بنزرت :
مدفع

(3) يظهر أن هذه التجربة لم تنجح بالإعتماد على التجارب المتأخرة في عهد حمودة باشا مثلا أو في عهد أحمد باي.
انظر: رشاد الإمام، سياسة حمودة باشا في تونس 1782-1814 تونس كلية الآداب 1980 ص 217.
مقالنا : أبو محمد رشيد مفكر عسكري، المجلة التاريخية المغربية 57-58، 1990.

(4) (Epalza- Petit, Etudes sur les moriscos andalous en Tunisie, Madrid, 1973, P. 114)

(5) سعيد بن عثمان نفس المصدر.

(6) عرف هذا الحاكم بتعاطيه القرصنة، انظر حسين خوجة ذيل، تحقيق العموري، تونس، الدار العربية للكتاب، 1975، ص 92.

(7) عبد المجيد التركي، نفس المصدر، ص 66.

(8) عرف هذا الحاكم بممارسته القرصنة .

(9) ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق محمد زروق، الدار البيضاء كلية الآداب، 1987، ص 5.

(10) يظهر أن هذه الكلمة هي تحريف لكلمة (Velez) كما اقترح ذلك عبد المجيد التركي غير أنه حسب الخريطة الاسبانية كانت تسمى (Velez de Benaudalla) .

(11) بالمقارنة مع الأعمال التونسية الأخرى في نفس الميدان والتي جاءت بعده بقرنين تبين قدرة ابن غانم.
انظر مقالنا : ملاحظات حول المنشآت الدفاعية من خلال بعض المخطوطات التونسية في القرن التاسع عشر (تحت الطبع).

مساهمة التونسيّين في علم الخرائط

محمّد الطاهر المنصوري

لقد تطوّرت العلوم عبر التاريخ معتمدة مبدأ التراكم المعرفي الحاصل لدى الشعوب والأجيال السابقة. وقد استفاد علم الخرائط كغيره من العلوم من هذا المبدأ. فقد عرف البابليون الخرائط منذ الألفية الرابعة وكذلك المصريون القدامى (1)، ثم اليونان (2) والرومان (3) ومن بعدهم العرب. إلا أن المساهمة العربية تكاد تقتصر على الإدريسي وبعض الأعلام المعروفين، حتى أنه بعد الإدريسي لا يكاد يذكر اسم إلا للجغرافي البحري التركي أحمد بن محمّد المعروف ببيري رايس (4). كما لو أن الفترة الممتدة بين القرن الثاني عشر ميلادي والقرن السادس عشر هي فترة خالية من الجغرافيين وصناع الخرائط (5).

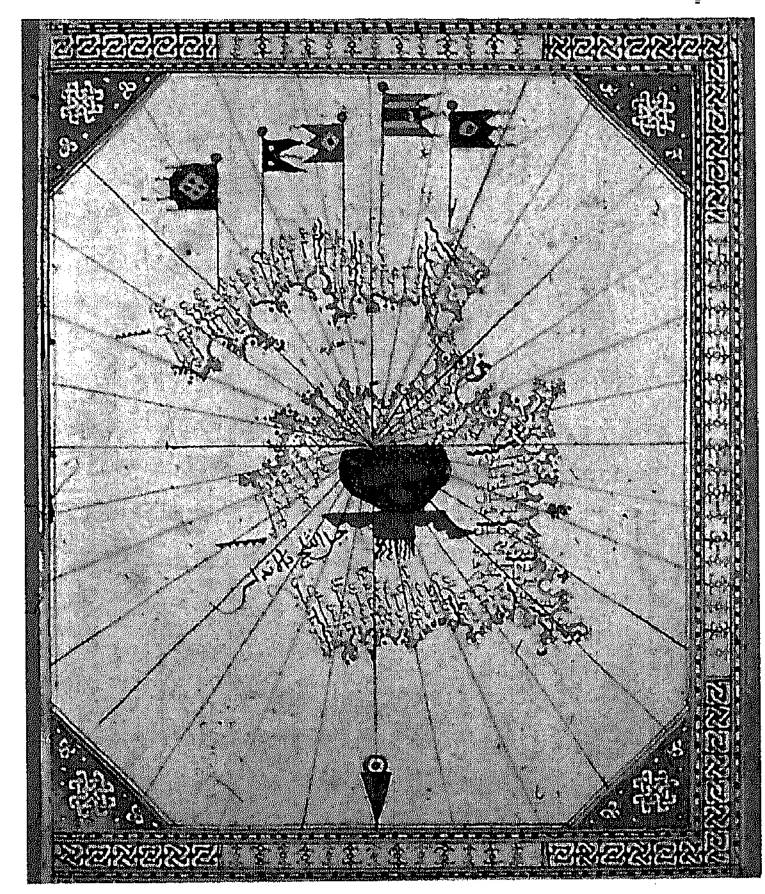
وقد انبنى هذا الرأي على أن المركز وحده ينتج أو يدفع الإنتاج الفكري من ناحية ومن ناحية أخرى اعتبرت الجغرافيا بطابعها الأدبي والبري لا الخرائطي والبحري (6).

وفي هذا المجال بالذات قد برزت بعض الأسماء التونسية التي استطاعت أن تهضم العلوم الموجودة على ضفاف البحر الأبيض المتوسط وتضيف عليها تقدمها للسلف، في شكل خرائط ومعلومات تتعلّق بالإبحار وبظروف المناخ المساعدة أو غير الملائمة للسفر بالبحر، كذلك دون نسيان بعض المعطيات الفلاحية والدينية التي يحتاجها المسافر. وهذه المعلومات توجد فيما سمي المرشدات البحرية (Portulans).

المرشدات البحرية

تعني كلمة مرشدة بحرية جملة من المعلومات المتعلّقة بالبحر وتتمثل هذه المعلومات

في معطيات عن الأنواء وعن الإتجاهات داخل البحر بالإعتماد على علم الفلك، كما تشتمل على خريطة ترسم عليها المواقع المعنية بالنسبة إلى المنطقة البحرية موضوع المرشدة. ويطلق عليها باللغة الإيطالية (Portolano) وبالفرنسية (Portulan) أو (Carte Portulan) (7). ولئن برزت هذه المرشدات بصورة مكثفة في العصر الوسيط المتأخّر على سواحل البحر المتوسط (إيطاليا، قطلونيا، بيزنطة) (8) فقد اشتهر هذا العلم من قبل في البحر الأحمر وفي المحيط الهندي والخليج العربي-الفارسي (9) وخلّدت النصوص العربية هذا العلم. إلا أن التراث العربي لم يحتفظ بخرائط عربية في هذا المجال باستثناء ما تركه بعض التونسيين في منتصف القرن السادس عشر ويبدو هؤلاء التونسيون وكأنهم وحدهم الذين اهتموا بعلم المرشدات البحرية.



خريطة العالم لعلي بن أحمد الشرفي (1551)

ويرجع الإهتمام بهذا العلم إلى عناية هؤلاء بعلم الفلك والرياضيات وارتباط (10) هذه العلوم بتحديد المواقع، كما أن السواحل التونسية كانت ذات الحين محطة يقصدها البحارة من مختلف جهات البحر المتوسط سواء كان ذلك في حالات الحرب أو في حالات السلم (11) فهي محطة رئيسية على طريق القوافل البحرية الأوروبية (جنوة والبندقية وبستية) في اتجاه مقاطع الملح برأس المخبز (12). أو مدينة الإسكندرية... ، مدينة التوابل والبهارات (13).

وقد استفاد التونسيون المقيمون على السواحل خاصة سكان مدينة صفاقس التي نبغ فيها علماء في مجالات مختلفة جمعت بين العلوم الدينية والدنيوية ويكفي أن نتصفح كتاب مقديش حتى نقف على حقيقة تطور علم الفلك والرياضيات مثلا في هذه الجهة.

وقد ساعد هذا المناخ على بروز بعض الأعلام في مجال علم الخرائط.

الحاج أحمد التونسي

ولد بتونس وتعلم بفاس، ويبدو أنه قام بأداء فريضة الحج. عاش في القرن السادس عشر، ومن خلال ما تركه لا نعرف عنه شيئا سوى هذه المعلومات التي ذكرنا.

يقول الحاج أحمد التونسي أنه أسر - لا يذكر أين تم ذلك - وبيع لأحد التجار الفرنج الذي مكنه من مواصلة تعلمه. وبواسطة هذا العلم استطاع أن ينقل خريطة للعالم في شكل «قلب» من لغتها الأصلية إلى اللغة التركية، اللغة السائدة في عصره على حدّ تعبيره في حدود سنة 1559 م (14).

وتصف هذه الخريطة العالم حسب الاثني عشر برجا انطلاقا من المغرب إلى جزر ملبار(15) ويصرح صاحب هذه الخريطة بأن سكان أوروبا قد رسموا المرشدات البحرية اعتمادا على الحكماء القدامى مثل افلاطون وسقراط وأبي الفداء إسماعيل الجغرافي المعروف (16). ويبدو أنه أفاد من الإكتشافات الكبرى، أو اكتشاف العالم الجديد، إذ رسم بعض المناطق التي لم تكن معروفة من قبل على الأقل بأسمائها الحديثة مثل: مضيق مجلان (Magellan) ومضيق الموزنبيق.

وعلى الرغم من أن الحاج أحمد التونسي كان ناقلا، فقد شارك في حركة علمية بدأت تزدهر أثناء القرن السادس عشر بالخصوص، أو ربما عرفت أوج ازدهارها أثناء هذا القرن سواء في العالم الإسلامي الخاضع للإمبراطورية العثمانية أو في أوروبا (17).

وإلى جانب هذا الجغرافي المغمور نبغت عائلة بأكملها في مجال صنع الخرائط حتى أن أحد المختصين المعاصرين لقبها بعبارة (Workshop)، أي بمصنع للخرائط وهذه العائلة هي عائلة الشرفي الصفاقسي (18).

عائلة الشرفي

وتتكون هذه العائلة من أربعة أجيال على الأقل، قد ساهم جميعهم في صنع الخرائط إما للعالم أو للبحرين الأبيض والأسود. ونعرف أسماء لثلاثة أجيال مع عدم التمكن من معرفة الجد الأعلى لهم:

الجد الأعلى: غير مذكور أحمد الشرفي الصفاقسي (19) علي بن أحمد الشرفي الصفاقسي (20) محمّد بن علي بن أحمد الشرفي الصفاقسي (21).

ولئن ترك كل من علي بن أحمد الشرفي وابنه محمد تراثا هاما في مجال الخرائط البحرية فلم تصلنا خرائط الأول سوى جملة أوردها علي بن أحمد الشرفي تفيد بأن الأب والجد قد كانا من صناع الخرائط (22).

وقد ترك أفراد هذه الأسرة خريطة العالم وتوجد نسختان منها واحدة في إيطاليا والثانية في باريس وقد حاول فيها كل من علي بن أحمد الشرفي وابنه محمد تقليد الجغرافي العربي الشريف الإدريسي. كما ترك الأوّل مجموعتين من الخرائط والنصوص والجداول الفلكية. وانطلاقا من الهدف العلمي لصنع هذه الخرائط فقد ركزت المرشدات البحرية التونسية على المناطق الساحلية مع محاولة إبراز خصائص المدن والمناطق وذلك باعتماد الألوان المميزة والرايات ونوعية المكان. إذ تكون المدن الساحلية متتالية الواحدة تلو الأخرى. كما يتم ذكر الموانيء بعبارة «بورت» أو مرسى، ذكر الخلجان والرؤوس والتي تطلق عليها عادة عبارة «قاب (Cap)» مع إبراز المدن الهامة خاصة بلون خاص مثل اللون الأحمر.

وقد قدّم علي بن أحمد الشرفي معلومات ضافية حول مختلف سواحل البحر الأبيض المتوسط والبحر الترّيني (Mer Tyrrhénienne).

وقد ترك علي بن أحمد الشرفي إلى جانب الخرائط نصا يتعلّق بالفلك وبحساب الأيام بالإعتماد على حركة الكواكب وكذلك لتحديد القبلة، دون أن يترك ما من شأنه أن يحدد المسافات بين المدن مثلما فعل الإدريسي الذي وقع الإعتماد عليه، أو مثلما هو الشأن بالنسبة للخرائط القلطونية. إذ نجد في هذه الخرائط بعض المعلومات سواء مكتوبة أو مصورة حول مدن سجلماسة وفاس وتلمسان، أو معلومات حول المناطق الصحراوية ونوعية الحياة فيها (الحيوانات مثلا : الفيلة، الجمال، نوعية اللباس...) (23) كما أن الخرائط التي تركها جغرافيوا عائلة الشرفي تختلف عن الخرائط اليونانية التي ظهرت في القرن السادس عشر، بعد نهاية الإمبراطورية البيزنطية والتي تقلد إلى حد بعيد جغرافي العالم الإسلامي مثل الإدريسي (24) إذ بالإضافة إلى الخريطة نجد نصا يفسرها ويعطي إيضاحات حول السواحل وما وراءها (25).

خاتمـــة

لئن حاول هؤلاء الجغرافيون الإعتماد على التراث الذي تركه أسلافهم أمثال الإدريسي وغيره فقد مزجوا بين مدارس مختلفة كانت مزدهرة على سواحل البحر الأبيض المتوسط سواء في إيطاليا، أو في إسبانيا أو في الإمبراطورية البيزنطية أو في الإمبراطورية العثمانية، مما أعطى هذه الخرائط ميزة خاصة : البساطة دون الإخلال بضروريات الملاحة مع الوضوح في الرسوم والمعلومات.

وبذلك تكون المدرسة التونسية امتدادا للمدرسة الإفريقية التي يعتبر الإدريسي مؤسسا لها والتي لم يقتصر تأثيرها على التراث الإسلامي والعربي، بل شمل التراث الإنساني.

هوامـــش

(1) انظر، فؤاد سزكين، مساهمة العرب والمسلمين في صنع خريطة العالم، فرانكفورت 1987، النص العربي من صفحة 9 إلى صفحة 48 وفهرس الخرائط.

(2) انظر (A. Delatte, Les portulans Grecs, Paris-Liège, 1947)

(H. Ahnweiler, Byzance et la mer, Paris, 1966, P. 451)

(3) S. Soucek, à propos du livre d'instructions nautiques de Piri Re'is, Revue des Etudes Islamiques, 1973, pp. 242-243

(4) M. De La Roncière-Mi Mollat du Jourdain, Les portulan, Cartes Marines du XIII au XVII Paris, 1984

(5) Ch. De la Roncière, Portulans et planisphères Conservés à la BN de Paris, Revue de l'Histoire Economique et Sociale, XLV, 1967, P. 8

(6) انظر مقال جغرافيا بدائرة المعارف الإسلامية (بالفرنسية) Géographie dans l'Encyclopédie de l'Islam

(7) اكراتشوفسكي، الأدب الجغرافي عند العرب، ترجمة صلاح الدين عثمان، الطبعة الثانية، بيروت، دار الغرب الإسلامي ص. 610-611.

M. Mallot -M. de la Roncière, Les Portulans, Op.Cit. P. 76.

(8) المرجع نفسه.

(9) المقدسي.

(10) انظر مقديش، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق محمد محفوظ وعلي الزواري، دار الغرب الإسلامي، 1988، ج.2، ص ص. 391-396.

(11) انظــــر Geo Pistarino, Notai genovesi in oltremare atti rogatti a Tunisi da picho Batti foglio
(1288-1289) eivico Instito Colombiano, Genova, 1986

B. Doumerc, Venise et la Barbarie (de 1230 à 1510) Thèse de 3e Cycle (pp. 216-228)

(12) A. Ducellier, Raguse, l'Italie et la Berbérie au moyen-âge, Cahiers de Tunisie, 1968, pp. 30-31

I-C. Hoquet ; le roi, le marchand et le sel, Presses Universitaires de Lille, 1986, pp. 133-149.

(13) J. Heers, Origines et Structures des Compagnies Coloniales Génoises (XIIIè - XVè s) In Etat et Colonisation au Moyen-âge et à la renaissance sous la direction de M.Balard. Lyon, 1989, pp. 17-33.

(14) لا يذكر الحاج أحمد التونسي اللغة التي نقل منها ولكن الأرجح أنها اللغة السائدة في منطقة البندقية. انظر مقال
V.L. Ménage, The map of Hajji Ahmed and in its makers,

Bulletin of the school of Oriental and African Studiès, University of London, XX 1,2, 1958, p. 297.

(15) المرجع نفسه، ص. ص. 279-297.

(16) المرجع نفسه ص. ص. 294-295.

(17) المرجع نفسه ص. 297.

Mme Chapoutot, F. Mahfoudh, M.T. Mansouri, la cartographie tunisienne XVIè Symposium sur la perception de la Méditerranée. Alif, 1989 (Sous Presse).

م. طاهر المنصوري، المدن المغاربية من خلال المرشدات البحرية، ملتقى «المدينة والكتابة» القنيطرة المملكة المغربية أكتوبر 1991 (تحت الطبع).

(18) اكراتشوفسكي الأدب الجغرافي العربي، سبق ذكره ص. 496.

(19) مخطوطة أكسفورد، ورقة 13 أ.

(20) قد ألف علي بن أحمد الشرفي الصفاقسي أطلسين للبحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود سنة 1551 (مخطوطة باريس) 1571 (ومخطوطة اكسفورد) وخريطة العالم (1579 وهي بإيطاليا).

(21) قد ترك محمد بن علي بن أحمد الشرفي خريطة للعالم تختلف عن خريطة والده إذ أضاف لها جزر بريطانيا ويعود تاريخها إلى سنة 1601 وهي موجودة بباريس.

(22) انظر هامش رقم 19.

(23) انظر M.Mollat du Jourdain -M. de la Roncière, les Portulans, Op.Cit.

(24) انظر، م.ط. المنصوري، المدن المغاربية، سبق ذكره A. Delatte, les Portulans Grecs, Op. Cit, P. xx.

(25) A. Ducellier, Visions byzantines du Maghreb, Cahiers de Tunisie, 1986, pp.95 - 110

ابن خلدون

عبد العزيز الدولاتلي عن محمّد الطالبي

ابن خلدون، وليّ الدين عبد الرحمان بن محمد بن محمّد بن أبي بكر محمد بن الحسن (732-808 هـ/ 1332-1406 م)، هو رجل من أقوى شخصيات الثقافة العربية الإسلامية زمن تراجعها وأفولها. ويعتبر بوجه عام مؤرخا وعالما اجتماعيا وفيلسوفا.

I حياتـه

حياة ابن خلدون بمثابة لوحة ثلاثية الدفّات، تمّ تكريس الفترة الأولى منها (أي 20 سنة) للطفولة والتكوّن، وخصصت الفترة الثانية (أي 23 سنة) لاستكمال الدراسة وللمغامرات السياسية، واستغرق الجانب الأخير (أي 31 سنة) حياة عالم ومدرّس وقاض. وقد دارت المرحلتان الأولتان في نطاق المغرب الإسلامي، في حين جرت أطوار المرحلة الأخيرة بالإشتراك بين المغرب الإسلامي ومصر.

في مدينة تونس

ولد ابن خلدون بمدينة تونس في اليوم الأوّل من شهر رمضان سنة 732هـ/ 27 ماي 1332م. في أسرة عربية يرجع أصلها إلى حضرموت. كانت قد استقرت منذ أوائل الفتح الإسلامي بحاضرة إشبيلية (راجع ابن حزم الجمهرة، ط. ليفي بروفنصال، ص 430) حيث كان لها دور سياسي هام. ثم انتقلت منها إلى سبتة قبيل استعادة الأندلس من قبل المسيحيين. ومن هناك التحقت بإفريقية واستقرت بتونس في عهد السلطان الحفصي أبي زكرياء (625-647 هـ/ 1228-1249م.).

وأخذ ابن خلدون العلم عن أشهر شيوخ تونس وعلمائها، وقد خصّهم في ترجمته الذاتية (أي في كتاب «التعريف») بتحاليل مطوّلة وبذلك تلقّى تكوينا كلاسيكيا يقوم أساسا على تعلّم القرآن والحديث النبوي واللغة العربية والفقه. وكانت غزوة بني مرين (748-750 هـ/1347-1349 م) سببا في توافد مجموعة كبيرة من الفقهاء والأدباء على تونس صحبة السلطان أبي الحسن، مما أحدث انبهار الشاب ابن خلدون الذي استطاع بذلك -ولا سيّما بإشراف من شيخه الآبلي- أن يتلقّى مبادئ الفلسفة وأن يتعرّف على أهمّ قضايا الفكر العربي الإسلامي...

وفي الأثناء لقي السلطان المريني أبو الحسن حتفه (752هـ. /1351م) في خاتمة مغامرة تعسة، تاركا

مجـال المغرب الأقصى مفتوحـا في وجـه ابنه أبي عنـان الذي لم يكن قد انتظر موت أبيـه لـيحـلّ محلّه بفـاس. وتأكدت السيطرة المرينية من جديد فيما يبدو. فاستولى أبو عنـان عـلـى تـلـمـسـان (753هـ/1352م) وأخضع بجاية من جديد. وعرض عليه ابن خلدون خدماته من مدينة بسكرة. وفي طريقه إليه، لقي الحاجب المريني ابن أبي عمرو الذي سمي حاكما على بجاية. فأخذه معه إلى قاعدة ولايته الجديدة حيث أقـام بعض الوقت (حتى نهاية شتاء عـام 754هـ/1353م) قبل أن يلتحق ببلاط فاس. وهناك انضم بشكل رسمي إلى «المجلس العلمي» للسلطان وإثر ذلك التحق أيضا بكتابته.

وفي شعبان من سنة 760هـ / جويلية 1359م ولي «كتابة السرّ والترسيل» للسلطان الجديد أبي سالم. ولكي يقوم بدوره على أفضل وجه ويدعّم مركزه، فقد اجتهد في أن يصبح شاعر بلاط. (وقد جاء في كتاب التعريف ص 70، قوله : «... وأخذت نفسي بالشعر.») وقد أورد لنا مقتطعات طويلة من شعره في المديح.

في بلاط غرناطة

وفي شهر رمضـان من سنة 760 هـ / أوت 1359م. حدثت انتفـاضة بالقصر أطاحت بمحمد بن الأحمر عن العرش. وبذلك وجد هذا الأمير نفسه منذ شهر محرم من عام 761هـ / ديسمبر1359م، لاجئا بمدينة فاس صحبة وزيره الشهير ابن الخطيب. وتلاحمت بين هذا الـوزيـر وبـين الـشـاب ابـن خلدون حينئذ وشائج صداقة متينة سوف تثبت فيما بعد، وبالرغم عن الغيوم التي لا محيد عنها، أمام صروف الدهر. وفي جمادى الثانية سـنـة 763 هـ / أفريل 1362 م. استعاد محـمّـد ابن الأحـمـر عرشه، واسترجع ابن الخطيب مركزه السالف. واضطر ابن خلدون بدوره إلى البحث لنفسه عن ملجإ وراء مياه البحر المتوسط، فساعدته الصداقة المعقودة بفاس على أن يستقبل بغرناطة أفخم استقبال. وفي أواخر سنـة 765هـ/1364م. أرسل على عجل إلـى اشبيليـة مكلفـا بمهـمـة دقيقـة لتحقيـق السلـم مع بطـرس القاسـي (Pierre le Cruel). ولابدّ لنا من تسجيل هذا الإتصال بالعالم المسحيـي الذي كان إذ ذاك في تحوّل كامل... وقد عهد إليه بخطة الحجابة وكانت آنذاك أهمّ خطّة في الدولة. وقام ابن خلدون في الآن نفسه بتدريس الفقه وبإمامة الخطبة.

طريق الإعتكاف والخلوة

«كنت نزعت عن غواية الرتب وطال عليّ إغفال العلم فأعرضت عن الخوض في أحوال الملوك وبعثت الهمة على القراءة والتدريس» (راجع كتاب التعريف ص 103). وبعد مساع أخرى وتردّد ببلاد المغرب الأوسط، أفضى به الأمر إلى حاضرة فاس (سنة 774هـ / 1372م) وبعد أن استقبل بالترحاب في بادئ الأمر، تمّ إلقاء القبض عليه إثر ذلك ثم أطلق سراحه، وسمح له في نهاية الأمر بالإنصراف إلى الأندلس (في ربيع عام 776 هـ / 1375م)، وذلك «قصد القرار والإنقباض والعكوف على قراءة العلم» (التعريف، ص 226).

في قلعة ابن سلامة

وبعد أن أجبر ابن خلدون عمليا على مغادرة مملكة غرناطة، عاد إلى بلاد المغـرب، واسـتـقـرّ بأسرته -إثر بعض المصاعب- بمدينة تلمسان من مقاطعة وهران (1 شوال 776 هـ / 5 مارس 1375م) وقد عاش ابن خلدون في قلعة بني سلامـة مـدّة أربع سنوات (776-1375/780-1379) (راجع التعـريـف، ص. 228). وكان ذلك منعرجا حاسما في حياته. فقد احتجز نفسه لأوّل مرة بصفة جديدة داخل ذلك البرج الأحمر العاجي ووضع «المقدمة» كما يقول : «على ذلك النحو الغريب الذي اهتدى إليه في خلوته» (راجع التعريف، ص 229).

وفي مدينة تونس من جديد

ومن أجل متابعة عمله ختّم عليه أكثر فأكثر أن يحصل على المزيد من المصادر المتسمة بالشمول. وكان قد بلغ السابعة والثلاثين من عمره. فخامرته فكرة العودة إلى تونس التي كان غادرها في سنّ العشرين، «حيث قرار آبائي ومساكنهم وآثارهم وقبورهم» (راجع التعريف، ص 230) فكتب في ذلك إلى محيي الدولة الحفصية، السلطان أبي العباس (771-796 هـ / 1370-1394 م) -وكان قد حصل بينهما خصام ونفرة منذ أكثر من عشر سنوات ببجاية- فأذن له بالقدوم. وبذلك «ألقى عصا التسيار» (التعريف، ص 231) بمسقط رأسه، في شعبان 780 هـ/نوفمبر-ديسمبر 1378 م. وهناك تابع ما قد اختاره من مهنة التدريس ونشر العلم، وأتمّ الصياغة الأولى لكتاب «العبر» الذي أهدى نسخته إلى السلطان متبوعة بمنظومة طويلة من المديح أملتها عليه الظروف (راجع التعريف، ص 233، 4). لكن النجاح الذي لقيته دروسه-وقد كان بعضهم يعتبرها من قبيل التعاليم الهدّامة- والحظوة التي خصّه بها السلطان ألّبا عليه الكثير من الأعداء. ورأى في الدسائس التي كان يحرّكها ضدّه الفقيه الشهير ابن عرفة، ما جعله يخشى شرّ العواقب، فاختار مغادرة بلاد المغرب التي لم يتمكن فيها من التخلص من عبء ماضيه الثقيل على أية حال وفي أيّ مجال. وتعلّل في ذلك بالحج، فأذن له السلطان. وكانت إحدى المراكب على أهبة الإقلاع نحو الإسكندرية. فأبحر فيها ابن خلدون يوم 15 شعبان من سنة 784 هـ/ 24 أكتوبر 1382م. (راجع التعريف، ص 245).

وفي القاهرة

كان وصول ابن خلدون إلى عاصمة المماليك بمثابة الإنبهار الحقيقي بالنسبة إليه. فتوافد الطلاب على دروسه بالجامع الأزهر. وما لبث أن سمّي مدرسا للفقه المالكي، وكان هذا المنصب قد أصبح شاغرا بالمدرسة القمحية. وبعد وقت قليل سمّي كذلك قاضيا أكبر للمذهب المالكي (في جمادى الثانية سنة 786هـ/جويلية-أوت سنة 1384م). وفي سنة 789هـ/1387م. سمي بالمدرسة الظاهرية التي أقيمت منذ عهد قريب، ثم عهد إليه عند رجوعه من الحج بتدريس الحديث بمدرسة صرغتمش. وقد احتفظ لنا ابن خلدون بكامل نص درسه الإفتتاحي (محرم 791 هـ/جانفي 1389م) المخصص لموطإ مالك (راجع التعريف، ص 294-310). وسمي في نفس الوقت على رأس خانقاه بيبرس، أهم «رباط» للمتصوفين بمصر. ثم دعي من جديد إلى خطّة القضاء (15 رمضان 801 هـ/21 ماي 1399م) بعد أربع عشرة سنة انقطع فيها للتدريس.

وفي ربيع الثاني من سنة 803 هـ/نوفمبر-ديسمبر 1400م) اضطر إلى مرافقة الملك الناصر الذي خفّ لنجدة دمشق، وكان يحاصرها تيمورلنك بعد أن استولى على حلب. وقد قام ابن خلدون - الذي بقي بالمدينة المحاصرة بعد أن تخلّى عنها الناصر بسرعة لما بلغه من قيام مؤامرة بالقاهرة أثناء غيابه- ببعض الدور في استسلام المدينة مقابل وعد خادع بالأمان، واحتفظ لنا بوصف مفصّل لمقابلاته مع القائد المغولي (التعريف، ص366-383). وليس بعيدا أن يكون قد توسّم فيه رجل ذلك الزمان الذي يملك من العصبية ما يخول له توحيد العالم الإسلامي من جديد وتحويل مجرى التاريخ (راجع التعريف، ص 272-382).

وأخيرا، وبعد أن أعد لتيمورلنك وصفا للمغرب الإسلامي، وشهد فضائع الحرق والنهب بدمشق، عاد إلى القاهرة وقد بلغ به الأمر إلى حدّ التخلّي حتى عن ثيابه لقطاع الطرق أثناء السفر. وبالرغم من تورّطه في الموقف مع القائد المغولي (التعريف، ص. 378) فقد لقي استقبالا حسنا بالبلاط. وسوف تتم تسميته بعد ذلك قاضي قضاة ثم عزله من ذلك المنصب أربع مرات على التوالي. وتمت تسميته في هذه الخطة لآخر مرّة -وهي السادسة- في شهر شعبان من سنة 808 هـ/جانفي-فيفري 1406م، بضعة أسابيع قبيل وفاته يوم 26 رمضان 808 هـ/17 مارس 1406م.

نصب يخلّد
ذكرى ابن خلدون
(وسط تونس العاصمة)



ولم يقطع ابن خلدون صلته بالمغرب الإسلامي طوال إقامته بالقاهرة. وحافظ على لباسه المغربي، وهو برنس داكن اللون. وسعى إلى تشجيع تبادل الهدايا بين سلاطين مصر وملوك المغرب، وإحلال مناخ يتسم بالتفاهم والوئام (راجع التعريف، ص 335-346). وأرسل نسخة من كتاب العبر إلى السلطان المريني أبي فارس (796-799 هـ/1394-1396 م)، وبقي على مراسلة أصدقائه وإخوانه واحتفظ لنا على وجه الخصوص بمقاطع مطولة مكتوبة نثرا وشعرا من الرسائل التي وجهها إليه الشاعر الغرناطي الشهير ابن زمرك (راجع التعريف، ص 262-74).

II مؤلفاته

اشتهر ابن خلدون خصوصا بالمقدمة وبكتاب العبر، لكنه كتب مؤلفات أخرى لم تصلنا كلها. وقد ألحّ ابن خلدون في كتاب التعريف على ما اتسمت به إقامته بفاس وبغرناطة من طابع دراسي مجدّ. فقد ألف خمسة مصنفات خلال هذه الفترة أي ما بين سنة 752هـ/1351م. وسنة 765هـ/1364م. ، وهو التاريخ الذي تمّ فيه الفراغ من كتاب الإحاطة لابن الخطيب، الذي ندين إليه بما سوف يأتي من المعلومات :

1) شرح على متن البردة للإمام البوصيري ؛
2) مختصر في المنطق ؛
3) رسالة في علم الحساب ؛
4) عدة مختصرات لمصنفات كتبها ابن رشد، ولا يمكننا -مع الأسف- أن نعرف ما هي ؛
5) شرح على قصيدة لابن الخطيب في أصول الفقه.

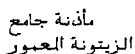
وكل هذه المؤلفات مفقودة اليوم، بل إنها سرعان ما نسيت فيما يبدو، حتى في زمن مؤلفها نفسه. ناهيك أن ابن خلدون لا يذكرها في كتاب التعريف، وإن المترجمين لحياته من المصريين لا يحملون أية فكرة عنها. وقد كان من الجائز لا محالة أن يكون ابن خلدون فقيها بسيطا كغيره من الفقهاء، لكنه تحوّل إلى مؤرخ عبقري، بل وإلى مؤسس لبعض العلوم التي سوف يتضح أنها من أعظم العلوم الإنسانية الحديثة ثمرة وأعمّها نفعا. وقد تمّ وضع مسودة مقدمة لكتاب العبر -وهي تشتمل على لبّ تفكيره- وتحرير أقسام واسعة من هذا المصنف التاريخي الشامل، بين سنة 776هـ/1375م. وسنة 780هـ/1379م. أي في فترة خلوته. وسوف لن ينقطع بعد ذلك، وإلى آخر أيام حياته، عن مراجعة وتنقيح هذا الأثر الأساسي، ولا سيما المقدمة. وآخر مؤلفات ابن خلدون هما كتاب التعريف، ويشتمل على ترجمة ذاتية لحياة المؤلف تقف عند حدود شهر ذي القعدة من سنة 807هـ/ماي 1405م. (ط. الطنجي، القاهرة 1951)، وكتاب شفاء السائل، وهو مؤلف في التصوّف وضع في أواخر حياته.

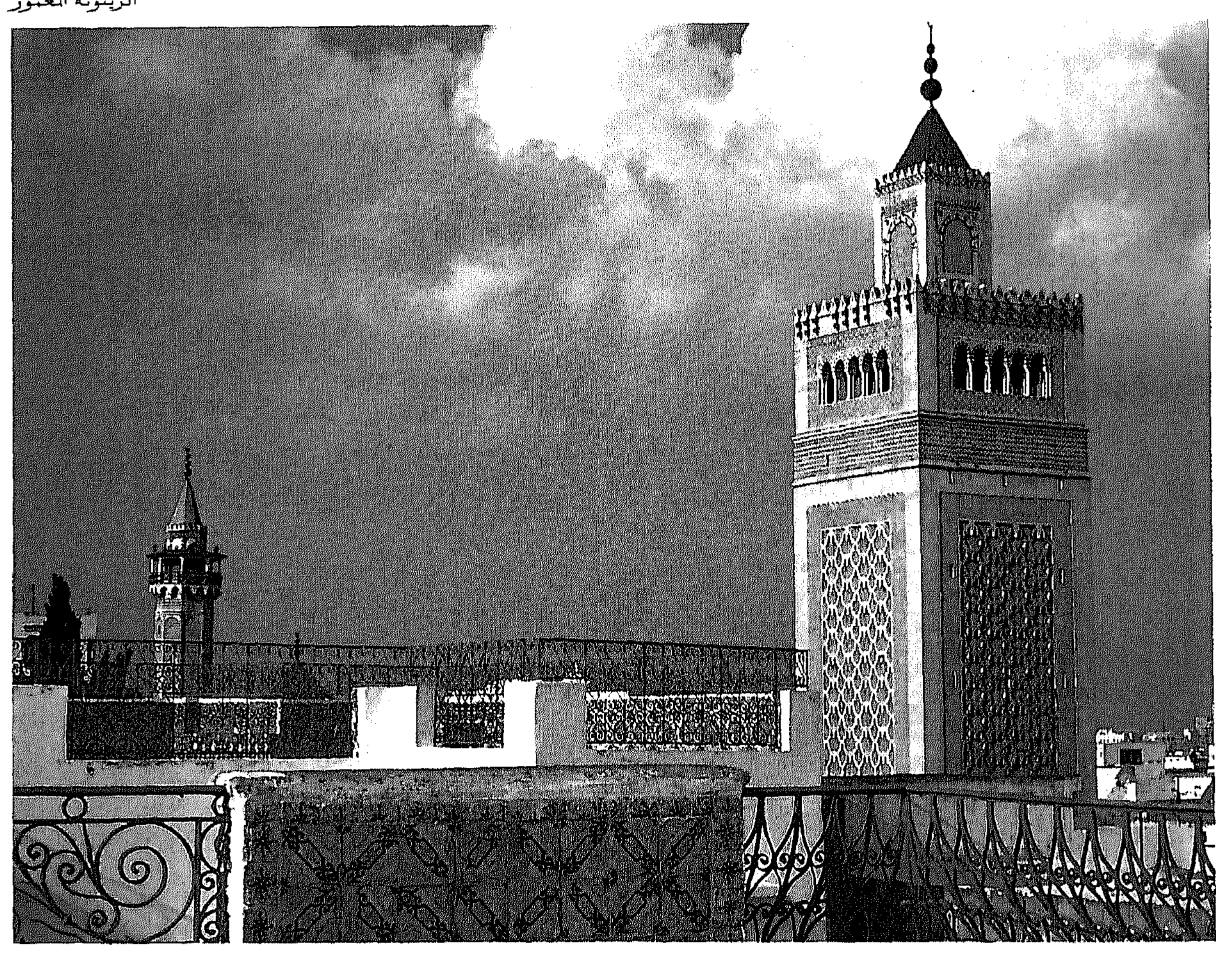
وأثنى المؤرّخ التركي نعيمة (المتوفى سنة 1128 هـ/ 1716م) على ابن خلدون في مقدمة كتابه وقدّم ملخصا لأفكاره. (وقد تمت ترجمة تركية لقسم من مقدمة ابن خلدون على يد شيخ الإسلام بيري زاده محمد في سنة 1143 هـ/1749 م (انظر الفهرس العربي (I.A) في مادة ابن خلدون، العمود 740ب) أما آخر الترجمات للنصّ الكامل فقد قام بها ذاكر قادري أوغن في مجلدين، ط. اسطنبول (1954) على أن الفضل في اكتشاف ابن خلدون وثراء مقدمته يعود إلى أوروبا، وبالتحديد إلى هاربلو (d'Herbelot) في المكتبة الشرقية (Bibliothèque Orientale)، سنة 1697 ، وإلى سلفاستر دي ساسي (Sylvestre de Sacy) في المختارات الأدبية العربية (Chrestomatie Arabe) سنة 1806 ، وإلى فونهامر بورغشتال (Von Hammer Purgstall) وفي كتابه (Ueber den Verfall des Islam...)، سنة 1812 ، وإلى كاترمار (Quadramère) بالخصوص، الذي قام بطبع النص الكامل للمقدمة لأوّل مرة في سنة 1858.

وقد نشرها كذلك في نفس السنة بالقاهرة نصر الهوريني معتمدا في طبعها مخطوطا آخر

يتضمن بالخصوص الإهداء إلى أبي فـارس سلطان فاس (796-799 هـ / 1394-1396م) - كمـا يعود الفضـل أيضـا إلى دوسـلان (De Slane) الذي تولّى بعد مرور سنوات إنجاز أوّل ترجمة للمقدّمة إلى اللغة الفرنسيـة (Les Prolégomènes، باريس، 1863-8)، ومنذ ذلك التاريخ ما انفكّت الطباعات والدراسات تتكاثر وتتزايد في الشرق والغرب شاهدة بالإهتمام المتنامي الذي ينيره الفكر الخلدوني.

والنقد الموجّه عادة إلى كتاب العبر هو عدم وفائه بوعود المقدمة. وهو أمر واضح للعيان لا محالة، لكنه لم يكن من الممكن أن تجري الأمور على غير هذا الوجه. وليس في استطاعة أي انسان أن يكتب بمفرده تاريخا عالميا يخضع للمقتضيات التي تفرضها المقدمة. والأدهى من ذلك أن ابن خلدون يبدي أحيانا في تاريخه نقصا غريبا في المعارف المقدمة، مثلما هو الشأن بخصوص دولة الموحدين وعقيدتهم. «وهو لا يتميز مع ذلك بتدقيق تواريخ الأحداث. فالمعطيات الزمنيـة تتضـارب غالبـا فـي ثنايـا كتابـه، حتى يضطـر فـي عديـد المرات إلى تفضيل المعلومات التي تقدّمها كتب أخرى أكثر تواضعا وأشدّ اقتضابا» (راجع كتاب برونشفيغ، الدولة الحفصيـة، R. Brunschvig, Les Hafsides ج. II ص. 392). إلاّ أن كتـاب العبر يبقى مع ذلك، بفضل ترتيبه الذكي للأحداث ودقة تفاصيل الأخبـار فيه واتساعها، حسب رأي أفضل اختصاصي استعمله على أوسع مدى، أداة عمل لا نظير لها ولا سيـما «فيما يتعلـق بأقـرب العصور إلـى المؤلّف وهما القرنان الثالث عشر والرابع عشـر» (Brunschvig،


مأذنة جامع
الزيتونة المعمور



المصدر السابق، ج.2 ص. 393). والملاحظ أيضا أنّ هذا الكتاب الذي يخيب الآمال في غالب الأحيان فيما يخصّ تاريخ المشرق يثبت قيمته بالخصوص بالنسبة إلى تاريخ المغرب الإسلامي وخاصة تاريخ البربر.

والمقدمة مدخل إلى عمل المؤرخ. لذلك جاءت في شكل موسوعة تأليفية للمعارف المنهجية والثقافية اللازمة للمؤرخ لكي يتاح له القيام حقا بعمل علمي. وفعلا فقد كانت شواغل ابن خلدون في بادئ الأمر من النوع الإبستمولوجي المتعلق أساسا باستقصاء المعارف. وبحكم انكبابه على التأمل في منهج التاريخ ومحتواه، فإنه سوف يحمل شيئا فشيئا على أن يستنبط بكامل الوعي ما أطلق عليه اسم «علم مستنبط النشأة» (ص 63). وسوف يتضح أن هذا العلم يتضمّن بصفة متفاوتة منطلقات عدة وتوجهات من البحوث المفضية إلى فلسفة التاريخ وإلى علم الإجتماع وعلم الإقتصاد وغير ذلك من العلوم وكل ما يلي ذلك، أي صلب المقدمة نفسها، فهو ليس سوى عرض مفصّل لهذا العلم الجديد المنفصل الذي اهتدى إليه المؤلف بحدسه. ويقدم ابن خلدون إذن مجموعة استدلالاته في شكل بناء محكم -على عكس ما قد يكون ذهب إليه بعضهم- يبيّن مع ذلك ويشرح بكل وضوح خطوطه الكبرى قبل الشروع في العرض المفصّل. وهذا العرض مصنّف في ستة فصول كبرى تتفرع بدورها إلى عدد كبير من الأبواب المتفاوتة من حيث الطول والمعروضة غالبا في شكل خاضع للمقتضيات الحسابية.

الفصل 1 : في العمران البشري على الجملة. ويرسم فيه ابن خلدون الملامح الأولى لدراسة الوسط وأثره في طبيعة البشر، كما يضع أسس علم الاتنولوجيا أو مبحث الطبائع السلالية، وأسس علم الأنثروبولوجيا أو مبحث الجنس البشري وطبيعة الإنسان وعاداته ومعتقداته.

الفصل 2 : في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل ويتناول المجتمعات البدائية إلى حدّ ما.

الفصل 3 : في الدول والممالك والخلافة والمراتب السلطانية، ويتناول مختلف أنواع الحكم والدول والمؤسسات.

الفصل 4 : في البلدان والأمصار وسائر العمران الحضري، ويتناول الأشكال الأكثر تطوّرا بل وحتى الأكثر تعقيدا من الحضارة.

الفصل 5 : في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع، ويتناول الصناعات ومجموع الظواهر الإقتصادية.

الفصل 6 : في العلوم وأصنافها والتعلّم وطرقه. ويتناول العلوم والآداب وجملة الظواهر الثقافية.

وهذا الترتيب يبين بوضوح أن ابن خلدون ذهب في مقدمته إلى الإهتمام بجملة الظواهر الإجتماعية. والمحور الذي تنتظم حوله ملاحظاته وتخضع له بحوثه هو دراسة مظاهر تقهقر الحضارات، أي أعراض وطبيعة الآراء التي تصيب الحضارات وتؤول بها إلى الزوال. ومن هنا كانت الروابط الوثيقة المتينة التي تشدّ بين المقدمة وبين التجارب السياسية التي عاشها المؤلف.

ويمثل فكر ابن خلدون تحوّلا جذريا بقي عقيما، من سوء الحظ، مثل مغامراته السياسية الفاشلة. ومثلما لم يكن له سابقون في اللغة العربية، فإنه لم يكن له كذلك في هذا اللسان إلى حدود الفترة المعاصرة، منافسون ولا تابعون. ولئن لم يكن تأثيره المباشر منعدما في مصر وفي بعض كتاب نهاية العصر الوسيط، فإنه يمكن الجزم بأنه لم يكن لمقدمته ولا لتعليمه الشخصي من أثر دائم في بلاد البربر مسقط رأسه. وإن ما تعرض إليه هذا المفكر من تنكر متواصل وعداوة مستميتة في نفس العالم الذي ينتمي إليه يشكل في الحقيقة مأساة من أشد المآسي تأثيرا في النفس وصفحة من أشدّ صفحات تاريخ الثقافة الإسلامية إثارة وادعاءا إلى الإعتبار.

المعالم والمواقع

قائمة التراث العالمي الثقافي والطبيعي

إن قائمة التراث العالمي تضمّ المعالم والمواقع التي أحدثها الإنسان، وكذلك المشاهد والمواقع الطبيعية التي تمتاز بأهمية استثنائية وبقيمة عالمية، بحيث أن صيانتها والحفاظ عليها يصبحان من الشؤون التي تعني وتهم البشرية بتمامها وكمالها.

وتحدد هذه القائمة وفقا لمعايير صارمة تضبطها «الإتفاقية الخاصة بحماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي» التي أقرتها الندوة العامة لمنظمة اليونسكو في سنة 1972 وصادقت عليها بعد أكثر من 100 دولة.

ويتم اختيار المعالم والمواقع والمشاهد الطبيعية التي تستحقّ أن تثبت بهذه القائمة من قبل لجنة التراث بعد اقتراحها من الدول التي وقّعت على الإتفاقية.

وتمثل المعالم والمواقع والمشاهد المسجلة بهذه القائمة أجمل المآثر التي صنعها الإنسان أو أحدثتها الطبيعة. وتعتبر تراثا عالميا مشتركا للبشرية جمعاء. ومن ذلك كان ينبغي العمل على حمايتها من التلف والدمار من مختلف أنواع التبديد والتشويه.

ويعود القيام بهذه الحماية في آن واحد إلى الدول التي توجد هذه الثروات بترابها وكذلك إلى المجموعة الدولية التي تساهم في صيانتها والحفاظ عليها.

واعتمادا على التضامن والتعاون تتولى لجنة التراث العالمي المؤلفة من خبراء، القيام بمهمة مزدوجة، تتمثل من ناحية أولى، في ضبط وتحديد هذا التراث، أي في اختيار الثروات الثقافية والطبيعية التي ينبغي أن يتألّف منها، كما تتمثل من ناحية ثانية في السهر على ضمان سلامتها، بإدارة «صندوق التراث العالمي» الذي يساعد على صون هذه الثروات

وحمايتها في مختلف أنحاء العالم. وعندما تكون إحدى الثروات المدرجة بالقائمة مهددة بخطر داهم ومحدّد، فإنه يمكن إدراجها بقائمة إضافية، وهي «قائمة التراث العالمي المهدد بالخطر». والبلاد التونسية مشاركة في هذه الإتفاقية التي وقّعتها يوم 10 مارس 1975.

وهناك سبعة مواقع تونسية مدرجة بقائمة التراث العالمي وهي : قرطاج، والمدينة بتونس، والملعب المدرّج بالجمّ، وكركوان، والمدينة بسوسة، والمدينة بالقيروان، ومنتزه إشكل الطبيعي.

ويرمز شعار التراث العالمي إلى استقلال الثروات الثقافية والطبيعية : فالمربع في الوسط يمثل شكلا من صنع الإنسان والدائرة تمثل الطبيعة. وهما ممتزجان بشكل وثيق. والشعار مستدير على غرار العالم، لكنه يرمز أيضا إلى الحماية.

قرطاج، تاريخ جليل

عبد المجيد النابلي

قامت قرطاج، التي أسسها الفينيقيون في أواخر القرن التاسع قبل الميلاد بطرف القارة الإفريقية، بدور بارز في كامل منطقة المتوسط الغربي. وقد أدخلت ونمت ونشرت في هذه القارة ولدى أهاليها حضارة أصيلة من النوع السامي الفينيقي في أوّل الأمر، وأصبحت هذه الحضارة فيما بعد بونيقية ثم لوبية بونيقية. وبعثت إمبراطورية بحرية حول الساحل المتوسطي الذي كانت تسيطر عليه سيطرة اقتصادية وسياسية وهو الساحل الخاص بشمال إفريقيا وصقلية وسردانيا ومالطة وجزر الباليار وشبه الجزيرة الإسبانية. وأقدمت على القيام بحملات بعيدة وراء مضيق جبل طارق الحالي وعلى سواحل المحيط الأطلسي. وقامت بالدفاع المستميت عن هذه الإمبراطورية وعن مصالحها ضدّ المدن والحواضر اليونانية والإيطالية التي ارتكزت بجزيرة صقلية. وقد اصطدمت قرطاج بروما. وسوف يدور الصراع بينهما على كامل ساحة البحر المتوسط، ويكون قائده حنّبعل. وسوف تكون آخر ساحة للقتال في هذه الحرب هي مدينة قرطاج نفسها، التي ستحاصر وتفتح عنوة وتغلب على أمرها، فتهدم عن آخرها ويذهب سكانها بين قتلى ومشردين وتصبح أرضها ملعونة. ثم سوف تعيد روما بناءها، وتصبح مستعمرة «Colonia Julia Concordia Karthago» مدينة مزدهرة وقاعدة لمقاطعة ثرية قام تطورها ونموها على الزراعة وعلى تعدد المدن والحواضر. وقد اكتسبت حلّة معمارية على شاكلة روما حتى أصبحت تلقّب بـ«المشرقة البديعة».

وفي هذا المتوسط الذي سماه أهل روما «بحرنا نحن» «Mare Nostrum» والذي أصبح بحيرة رومانية تحيط بها كل الأراضي التي آلت إلى مقاطعات تابعة للإمبراطورية في ظلّ الرومانية «Pax romana» سادت الحضارة اللاتينية طوال عدة قرون من الزمن. وتسببت ظهور المسيحية في انصهار العناصر الشرقية والغربية بإفريقية.

وفي أعقاب حكم الوندال القادمين من أقصى الشمال الغربي جاءت سيطرة الإمبراطورية

البيزنطية التي كانت في آن واحد وريثة روما وممثلة للحضارة اليونانية الشرقية. وفي خاتمة المطاف جاء الفتح العربي الذي قطع الروابط بين إفريقية والعالم اللاتيني وركز بها لغة الإسلام وعقيدته.

وقد كانت قرطاج الأولى التي أدخلت إفريقيا تحت نور التاريخ. وكانت قرطاج الثانية التي وسعت الآفاق أمامها لتبلغ أبعاد العالم بأسره.

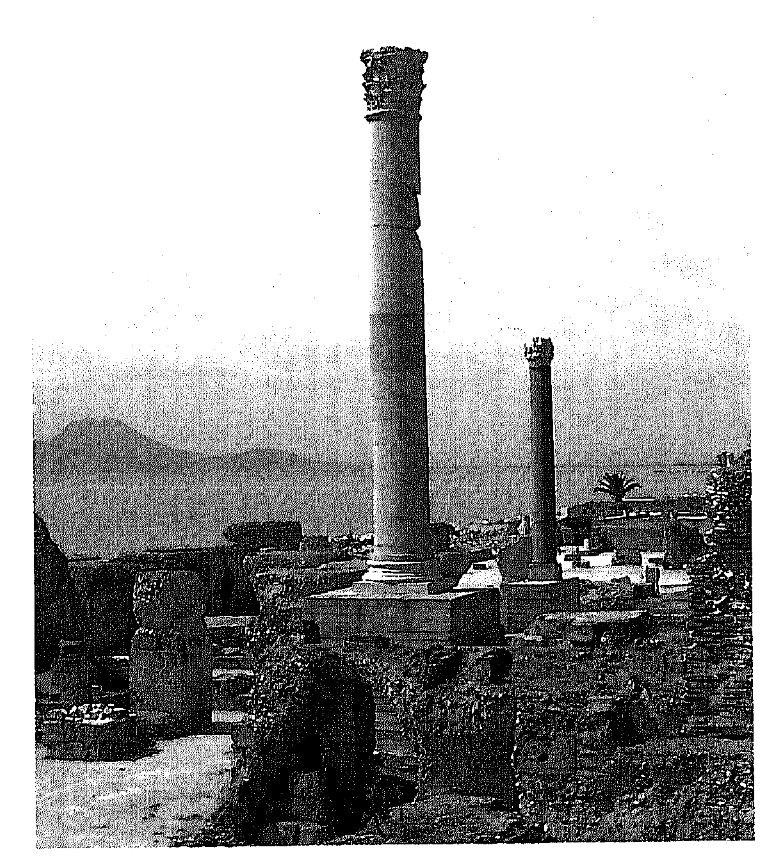
موقع طبيعي فخم

وسيكون مسرح كل هذه المغامرة الإنسانية هو شبه الجزيرة الواقعة بإفريقيا أو تكاد، والرابضة في عمق خليج شاسع مفتوح على الأفق، على عتبة الممر بين حوض وآخر من البحر، فوق ربوة مواجهة لأوروبا، في رأس القارة الإفريقية وفي قلب البحر المتوسط. وسوف تضاعف قرطاج في قيمة الموقع الجغرافي الممتاز بسعيها إلى إحياء الأرض وإقامتها شبكة تجارية واسعة حول البحر المتوسط تلتقي فيها جميع المسالك والطرقات البرية والبحرية. وسوف تنشأ المدينة انطلاقا من ربوة «بيرصة» المشرفة على السهل المجاور لها. هناك سوف تقوم القلعة ببيوتها المقدسة البونيقية، ثم سيمتد الميدان الروماني بمبانيه الضخمة الشامخة. وحول تلك البقاع وعلى سفوح الروابي وحتى ساحل البحر كانت تمتد الأحياء المحمية بالأسوار.

وفي مقدمة لسان من الأرض المستنقعية جرى حفر ميناء بأيدي البشر وتهيئته ليتسع لأسطول تجاري وعسكري، وكان منطلقا ونقطة تحول بالنسبة للطرقات والسلع.

وفي الطرف الآخر وعلى جانب الربى كانت تمتد المقابر، ومن ورائها «ميغارة» (Megara) المرج الزراعي المكسو بالبساتين والحقول. وكان برزخ واسع من الأرض يفصل بين البحيرة والسبخة ويربط شبه الجزيرة بأوائل التلال والروابي. وفوق أقرب هذه التلال تربض تونس. وفي الموقع المتقدم يقوم رأس سيدي أبي سعيد بتأمين حراسة مدخل الخليج. وفي المؤخرة يقوم جبل «بوقرنين» الأقرن.

وعن بعد وفي داخل الأراضي نرى



حمامات انطونيوس بقرطاج

جبل الرصاص، ونلمح في أقصى الأفق، وفي زمن الصحو، جبل زغوان، وهو أعلى جبل في شمال البلاد التونسية.

مجموعة متراكمة من الآثار

في إطار هذا المشهد الفسيح دار جزء من أحداث تاريخ العالم. وقد قامت إحدى الحضارات بالقضاء على الأخرى وحلّت محلّها على ركح الأحداث لتقوم بدورها.

وفعلا، دمّرت الحضارة الرومانية الحضارة الفينيقية البونيقية، وأطردت الحضارة العربية الإسلامية الحضارة البيزنطية المسيحية، بالحديد والدماء، والتدمير أو الإسترداد والإستحواذ، لكن مهما كان من أمر فإن الحضارة الغالبة ليست أبدا بمنتصرة تماما.

فآثار المغلوبين لا تزول بصفة كاملة. وبالرغم عن عمليات التخريب والنهب يبقى دوما ما يكفي من الآثار المخزونة والمتراكمة والمكدّسة التي يكتشفها متخصص الحفريات المدقق راسبة طبقة فوق طبقة.

تمثال امرأة
(متحف قرطاج)

إنها أرضيات وقطع من جدران يغطيها غبار الزمن. وإننا لنجد فيها تحت المواقع العربية، وكلما ازددنا تعمّقا، الطبقات الرومانية المتكوّنة من كتل البلاط ومن الفسيفساء، ومن الرخام ومن الفسقيات الواسعة، ثم نصل إلى الطبقات البونيقية المتكونة من حواجز من التراب وأرضيات من الفخار الأحمر فهو مليء بالأشياء والأدوات -الفارغة أو المكسورة- التي لا تنقل وتحرك. إنها عناصر متنافرة لا روح فيها، تمثل بقايا حادث غرق هائل عبر الزمن. إنها ليست سوى علامات مادية يسعى عالم الآثار والمؤرخ إلى أن يضفي عليها معنى وحياة.

وتوجد آثار أخرى أعمق. وهي تلك التي تبقى على الدوام كأجزاء من المشهد الطبيعي، مثل هذه الطرقات التي تشق الفضاء والمدن بأنشطتها، وآثار غيرها، أشد عمقا، تدخل ضمن التراث المشترك لبني الإنسان: وهي الكتابة والتجارة والزراعة والتعمير والملاحة. وإن تأثيراتها المتراكمة لا تزال تكيّف سكان هذه المنطقة.

فتونس توجد اليوم على مسافة بضعة كيلومترات من العاصمة الأمّ العتيقة. ميناءها بحلق الوادي، ومطارها بسكرة ومركز الحكم بقرطاج. وكل هذا يندرج في استمرارية مستميتة الدوام. وإن روح هذه البقعة هو الذي انطبع بطابع السكان الأوّل أكثر مما تأثر الواقع الذي صنعوه بأيديهم: إنها روح التفتح الدائم نحو الخارج، ونحو الغير، والقدرة على التقبل والإستقبال، وعلى الغزو والفتح، تماما مثل الهجرة والإغتراب، وعلى المبادلات وعلى التواصل، وعلى آخر أشكال هذا التفتح، وهو السياحة. وإن الزوار القادمين من كل أنحاء العالم ليحجون اليوم إلى قرطاج بالآلاف.

مقطع لمواد البناء تحوّل إلى حقل زراعي...

وأصبحت قرطاج بعد أن هجرها أهلها طيلة قرون مقطعا لمواد البناء.

وقد بنيت تونس من الحجارة والرخام والأعمدة والتيجان والأبلطة المقتلعة كلها من



أقنعة صغيرة
من عجين البلور
(متحف قرطاج)

مباني المدينة العتيقة. وإنّ أحد أبواب مدينة تونس (باب قرطاجنة) يشير إلى نهاية الطريق الذي يصل بين المدينة القديمة والعاصمة الجديدة والذي تسلكه العربات المحمّلة بهذه المواد. وإن جامع الزيتونة العظيم ليشمل على عدد هام من هذه المواد. وإن حلق الوادي وخاصة منها القلعة التي أقامها الإمبراطور كارلوس الخامس (Charles Quint) مدينة لقرطاج بالكتل الحجرية الضخمة، كما يدين لها العديد من القصور والبيوت الموجودة بسيدي أبي سعيد وبالمرسى. وقد كان لهذا النشاط من الشهرة والذيوع ما دفع بعدة دول إلى أن تأتي إليها لتستمدّ منها المواد الضرورية لإقامة معالمها. وقد استولت بالخصوص كلّ من إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وانجلترا، على الأعمدة الرخامية الضرورية لكنائسها وقصورها. وكان قرب موقعها من الشاطئ يساعد على عمليات شحن السفن التي تقوم بالتجارة مع تونس.

وقد أدّى هذا السطو المستمر على المواد في نهاية الأمر إلى تسوية المعالم بالأرض. وعندها أصبح الموقع أرضا زراعية اشتهرت بمنتجاتها. لكن استغلال المواد ما انفك متواصلا مع ذلك. وحفرت الأرض للإستحواذ حتى على المواد المدفونة تحت التراب.

وعندما شمل حبّ الآثار القديمة والبحث عن الحضارات الغريبة بلدان أوروبا أصبحت

قرطاج أحد حقول الإستقطاب والإهتمام فلم يتخلف الكاتب شاتوبريان (Chateaubriand) عن زيارتها، وأقام الكاتب غوستاف فلوبار(G.Flaubert) لإعداد وتصميم روايته «سلامبو»، (Salammbô) كما قدم الكثير من الرحالة الأوروبيين الآخرين لزيارة هذا المسرح الشهير من مسارح التاريخ العالمي.

ولم يجدوا في هذا المكان كل ما كانوا يأملونه، لكنّهم كانوا الدافع على الشروع في حفريات أثرية للبحث عن الأدلة والشواهد على الحضارات القديمة.

ومع انتصاب الحماية تم القيام بحفريات وبحوث جديّة من قبل عدد من كبار العلماء ووضعت المادة الأثرية في حماية المتاحف. لكن هذا المجهود الخاص بالبحوث يبدو ضئيلا جدّا إذا ما قيس بزحف حركة البناء.

منظر عام لبقايا منازل بونية على هضبة بيرصا

... قبل أن يصبح أرضا معدة للبناء

ولم تلبث عملية بناء أراضي هذا الموقع أن انطلقت بعد التمهيد لها بمدّ خط للسكة الحديدية يربط تونس بالمرسى مرورا بحلق الوادي. وكان ذلك وجها جديدا لهذا الموقع الذي لم يسلم قط يوما من الإستخدام.

وفي عرض الحقول وعلى امتداد السهل الساحلي قامت البيوت الحديثة وسط الحدائق المسيّجة، وكانت مواد البناء تستمدّ من نفس أرض المكان اعتمادا على الآثار والبقايا المدفونة في التراب. وإذا ما عثر على تحفة أثرية أو على فسيفساء فإنه يقتصر على استخراجها... وسوف تصبح أرض الموقع شيئا فشيئا وبصفة عشوائية متنافرة، مغطاة بالمساكن.

وقد تمّ إنشاء بلدية قرطاج في سنة 1919. ويسعى القانون المتعلق بحماية الآثار إلى الحفاظ على بقايا المعالم المهددة. لكن المعركة قد أصبحت اليوم غير متكافئة. فهناك مساع عديدة قد آلت إلى الفشل، كما تمّ إثر عملية تحيل اقتناء أرض كبرى بالبرج الجديد كان من المفروض أن تشكل منتزها أثريا. فجرى تقسيم القطعة وتم بناء جزء منها. وقد شهدت آخر سنوات الحماية الفرنسية إقامة عدد من المباني التي كانت بمثابة الكوارث، ومن أشدّها وقعا على النفس بنايتا حي الطيران على ربوة الأوديون (l'Odéon).

وبعد أن حصل الحدّ من تيار حركة البناء لفترة قصيرة غداة الإستقلال، استؤنفت من جديد، وأصبحت تهدد بأن تغمر كامل الموقع في غياب أي مراقبة أو أي تحديد. وعندها حصل نوع من عودة الوعي أمام خطر رؤية هذا الموقع الذي لا ينفصل تاريخه عن هوية البلد، يزول ويختفي إلى الأبد، تم توجيه نداء مشهود بواسطة منظمة اليونسكو يدعو العلماء والمسؤولين بكل البلدان إلى الحفاظ على مثل هذا الموقع المتألّق في التاريخ.

ومنذ سنة 1973 تمّ الشروع في حملة من الحفريات والأعمال الساعية إلى إبراز ثروات الموقع.

إعادة الإكتشاف عن طريق الحفريات والحملة الدولية

وفيما بين 1973 و 1983 أصبحت قرطاج -بإشراف منظمة اليونسكو- أكبر الحقول أو الورشات الأثرية بمنطقة البحر المتوسط. وقام اثنى عشر فريقا دوليا مؤلفا من عشرات العلماء والخبراء بالحفر والتنقيب والتحليل والدراسة للموقع القرطاجي في كامل تنوعه وتعدد عهوده. وقد توخّى كل فريق منهجه الخاص وإشكاليته في البحث. وهكذا تمّ الكشف عن كل من قرطاج الإسلامية، وقرطاج الرومانية المسيحية، والوندالية والبيزنطية، وقرطاج البونيقية الفينيقية، وباحت كلّ واحدة على الأقل ببعض الأسرار التي ظلّت مغبونة أو مجهولة إلى اليوم. ونتج عن ذلك مزيد الإطلاع والتعرف على تاريخها.

وحرصا على تقديم شهادة في ذلك على عين المكان، فإن البقايا والآثار المكشوف عنها قد تمّ تدعيمها وترميمها وإبراز قيمتها.



مسلة جنائزية بونية
(متحف قرطاج)

وبهذه الصفة يمكن أن نفتح في وجه الجمهور مجموعة من المعالم وأن نقدم معها جملة الآثار والأشياء المكتشفة بذلك الموقع معروضة في نطاق متحف صغير.

وعلى جانب الساحل يقوم حيّ بونيقي سمي بحي ماغون (Magon) وهو يستعرض ويصوّر فترة من حياة قرطاج البونيقية من القرن الخامس إلى القرن الثالث قبل الميلاد.

وقرب الجزيرة الصغيرة التي كانت مقرّا لإمارة البحر في وسط الحوض المستدير والتي أجريت بها حفريات، هيئت قاعة آثار تأوي مثالين للميناء كما كان في العهد البونيقي ثم في العهد الروماني.

وعلى طريق بيرصة وفي المنبسط الساحلي يوجد متحف صغير آخر يعرض بشكل تعليمي مجموعة المواد الأثرية التي عثر عليها أثناء الحفريات التي أجريت بموقع كنيسة مسيحية كبيرة.

وفي سفح التلّ وفي الدهاليز التحتية لإحدى البيوت العصرية تمت المحافظة على بقايا بيت عتيق أزيل عنه التراب وأجريت عليه عملية ترميم.

وأخيرا وفوق ربوة بيرصة في أعلى القسم الجنوبي منها يوجد حيّ بونيقي كامل نجا بأعجوبة من الإندثار والزوال بفضل كميات الرّدم المتراكمة فوقه والناجمة عن أشغال تسطيح الأرض التي كان يقوم بها الرومان. هذه هي أهمّ النتائج التي حققتها الحملة الدولية.

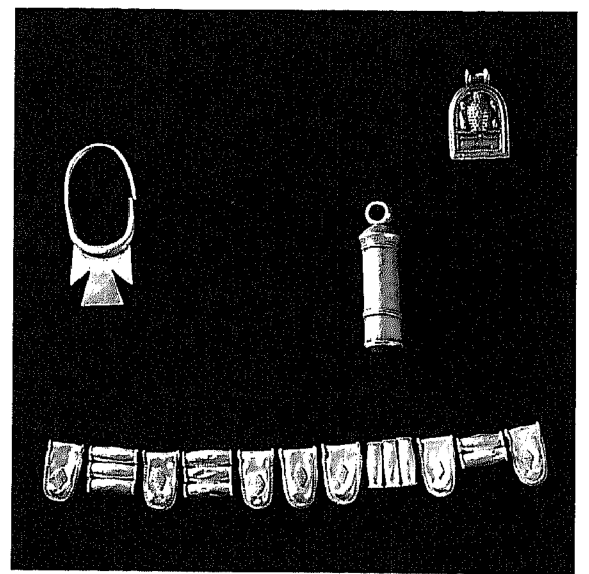
وينبغي أن نضيف إلى ذلك الأشغال التي أجريت لتحسين حيّ البيوت الرومانية، وخصوصا «فيلا المطيرة» وحمّامات «أنطونان» التي سمحت عدة عمليات ترميم

للأعمدة بإعطاء فكرة عن ارتفاعها وحجمها ومن ذلك عمود عظيم من حجر الكلس الرمادي يعلوه تاج أبيض، يرتسم على خلفيّة من ساحل البحر.

منتزه أثري وطني كإطار عيش جديد للتونسي

وقد واكب هذا المجهود الجبّار في مجال الحفريات وإبراز قيمة الآثار بشكل ميداني، عمل تشريعي لحماية الموقع. وقد تمّ إقرار مخطط للتهيئة استغرق إعداده مدة طويلة. وقد ترك هذا المخطط مجالا لحركة البناء والتعمير باعتبار ذلك ثمنا ضروريا يدفع من أجل الحفاظ على سائر الموقع. وقد جرى تدعيم هذا المخطط بعد بضعة سنوات بإصدار أمر تسجيل في سنة 1985 والبند الأوّل من هذا الأمر الذي يحدث المنتزه الأثري الوطني لقرطاج وسيدي بوسعيد، يضيف قائلا : «إن هذا التسجيل يشكل عملا لحماية وإبراز قيمة مجموعة من المواقع التاريخية التابعة للتراث الوطني الذي أقرت منظمة اليونسكو بصبغته العالمية : أي موقع قرطاج المدرج بقائمة التراث العالمي التي حددتها منظمة اليونسكو. وهذا التصنيف هو أيضا عمل تهيئة.»

مصوغ بوني



وهذا هو الإلتزام الذي عزمت تونس على تحقيقه وتجسيمه في نطاق الواقع. وقد اتخذ رئيس الجمهورية قرارا بإدخال هذا المنتزه حيّز الواقع بمناسبة مجلس وزاري عقد يوم 23 جويلية 1991.

وهذا المنتزه الذي سيكون فضاء خاصا بالثقافة والراحة والترفيه، سوف يمتد على البقية الباقية من منطقة قرطاج العتيقة التي سوف تجري حمايتها وصونها من البناء، وسوف يقدم كهدية إلى مجموع السكان ويفتح في وجه آلاف الزائرين الذين يحجّون إليه.

وبذلك تحصل إعادة الموقع إلى كامل المجموعة التي سوف تزداد شعورا وإحساسا بتراثها وبالرسالة التي يتضمنها، وذلك بحكم قيامها بزيارة هذا التراث، وقد كتب العبدري في القرن الثالث عشر يقول :

«يقال أن مدينة قرطاجة قد كانت من أجمل وأعجب مدن الأرض. وكانت تزدان بمبان شامخة كما تدل على ذلك آثار قناة المياه. وبها مقاطع أحجار شهيرة يستخرج منها في كل العصور المرمر الصالح لجميع مدن إفريقية. أمّا اليوم فإنها خراب لا حياة فيها. ويتردد أهل تونس على زيارتها من حين إلى حين للإطّلاع والإعتبار».

متحف قرطاج، موقع مجيد، وإحياء لذكرى القرون

يقوم متحف قرطاج فوق ربوة بيرصة. وقد تم إنشاؤه منذ سنة 1875 اعتمادا على ما يجمع بالموقع من آثار مبعثرة. وجرى تطويره انطلاقا من سنة 1881 مع حفريات الآباء البيض المستقرين بالمدرسة الإكليريكية، وبفضل جهود الآباء دولاتر ولابير وفرون (Delattre, Lapeyre, Ferron) إلى حدود سنة 1964. ثمّ تمت تونسته وتجديده ابتداء من سنة 1966.

ويضمّ هذا المتحف بالإشتراك مع متحف باردو أهمّ قسم من أنفس الوثائق الأثرية المكتشفة بقرطاج، من لوحات فسيفساء وقطع من المباني ونقوش وتماثيل ونصب وأدوات فخارية وتصاوير صغيرة وأدوات خزفية ومسارج ورسوم على بلاطات مربعة وأدوات مصنوعة من معادن ثمينة، ومن حديد وبرنز ورصاص، وحجارة نفيسة للمصوغ، وأدوات من عظام ومن عاج.

ويحتل المتحف اليوم مجموع محلات مدرسة الآباء البيض السابقة، ويشتمل على قاعات للعرض وقاعات ترصيد وتخزين وورشات وفضاءات للترميم والصيانة. وتحيط بالمتحف مساحات معشّبة أو مشجّرة أو مشتملة على بقايا معالم تمّ التنقيب عنها كانت تابعة لميدان المدينة.

كما يمتدّ على المنحدر الجنوبي من الهضبة حيّ سكني بونيقي تمّت إزالة التراب عنه خلال العقود الأخيرة من السنوات.

ويشكل المتحف المركز والمحور لجميع أنشطة البحث والحماية والإدارة بموقع قرطاج. ويقوم بدور أساسي لدى الجمهور قصد ربط الصلة مع تراث قرطاج وبعث الوعي بهذا التراث. وهو نقطة الإنطلاق بالنسبة إلى كل سعي للتعريف بهذا الموقع وبتاريخه. /.



مسلة بونية
(متحف قرطاج)

توابيت من
العهد البوني
(متحف قرطاج)



كركوان
المدينة البونية بالوطن القبلي

محمّد حسين فنطر

على بعد 12 كلم شمال قليبية صخور تشرف على البحر ومن ورائها تتمطط الأرض وتعلوها تربة سوداء تنم عن مكمونات زراعية ثرية. على أن سكان المنطقة من أهل الريف يزعمون أن الحقول التي تعرف باسم «دار السعفي» كانت تخصص لزراعة الحبوب كلما أمكن افتكاكها من قبضة الاشواك وأقزام النخيل وغيرها من النباتات التي كانت تستفيد من أديم الاطلال.

ملامح المدينة

انطلقت أول حفرية خلال سنة 1953. ولكن الجزء الكبير من المدينة الذي كشف عنه الغطاء كان فيما بين 1958-1959 ، ولا تزال بعض أجزاء المدينة تحت الرّدم. لكن المعطيات التي لدينا اليوم تساعد على تصوير ملامح مدينة بونية في الشكل الذي كانت عليه فيما بين نهاية القرن الرابع والنصف الأول من القرن الثالث ق.م.

على أن أسبارا أقيمت في نواحي مختلفة من المدينة أظهرت أطلالا تعود إلى القرن السادس ق.م. وبهذا تكون لدينا مدينة مؤرخة بكل دقة، ومن حظّ الآثاريين هذه المرة أن خلا الموقع بعد سقوط المدينة البونية، تتطأ أديمه أقدام الرومان أو غيرهم واحتفظ بخباياه وأسراره إلى بداية النصف الثاني من هذا القرن.



منزل بوني
نهج الاسفنج
رقم 1
القرن الثالث
قبل الميلاد

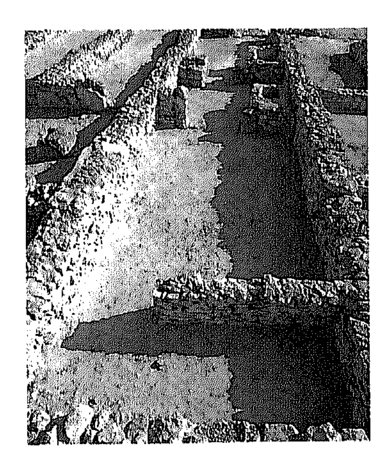
التهيئـة العمرانيـة

تمثل كركوان كسبا كبيرا من حيث التهيئة والهندسة العمرانيـة : شـوارع فـسيـحـة الأرجاء حيث تسهل حركة المارّة إذ معدّل عرضها يفوت الأربعة أمتار وهي مستقيمة تتعامد وتصور رقعة شطرنج تتربّع بين خطوطها الأحياء السكنية والبنايات الدينية وغيرها. وقـد بينت الاسبار أنّ الشوارع والأنهج جاءت نتيجة تصوّر مسبق من قبل المهندس المعماري. ثم



الباب الغربي
مدخله مكوّع
القرن الثالث
قبل الميلاد

من تحت :
منزل ذو هيكل
متصاف وهي
خاصية المعمار
اللوبي
القرن الثالث
قبل الميلاد



كان الإنجاز. ولقد لاحظنا بعض الطمس لهذا المخطط في بعض الأحياء فهو طفيف له أسباب اجتماعية واقتصادية مرّت بها المدينة فيما بين القرنين الرابع والثالث ق.م. وتوجد ضمن هذا النسيج العمراني بطاح عديدة ومختلفة المساحات والأشكال هيئت لتستجيب لحاجيات اقتصادية واجتماعية فيها يعرض الفخاري والايقوني والتاجر بضاعته فهي تقوم محلّ السوق. كما أنها تنقلب إلى قاعة اجتماعات إذا دعت الحاجة لذلك. أو كان هناك مشكل هام يخص المدينة ومصيرها فتقع بها الاستشارة والمناقشة.

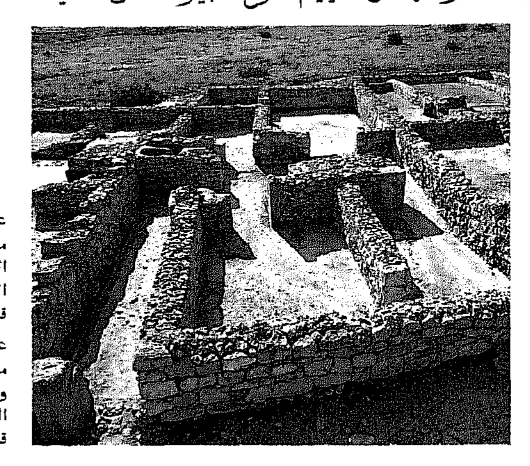
وكان يحيط بهذا النسيج العمراني حزام مقوّى مزدوج كالهلال بأطرافه المتجهة نحو البحر إذ كان لمدينة كركوان

سوران يتميّز الأول بتقنية بنائه وتتمثل في ترصيف الحجارة على شكل سنبلة القمح أو الحسكة. ويبدو أنه حطّم في نهاية القرن الرابع ق.م.

العمارة السكنية

كشف الغطاء عن أحياء فسيحة تمكننا بعد درسها من تقييم تنوع البيوت من حيث





على اليمين : منزل الأعمدة القرن الرابع- القرن الثالث قبل الميلاد.

على اليسار: منزل له صحن ورواق مكوّع القرن الثالث قبل الميلاد.

أشكالها وثرائها. والنموذج الشائع فيها هو الذي تتمحور غرفه حول فناء بسيطا كان أو مروقا. وقد تدخل على هذه البنية تغييرات أو قل خانات تزيدها رونقا دون أن تبعدها عن الأصل. فكان من يزور المدينة يتوقف عند المدخل المنعكف الذي يعزل المارّ في الشارع عمّا يجري داخل البيت وحرمة ساكنيه. ثم غرفة الإستحمام التي تتركب دائما من معبر صغير



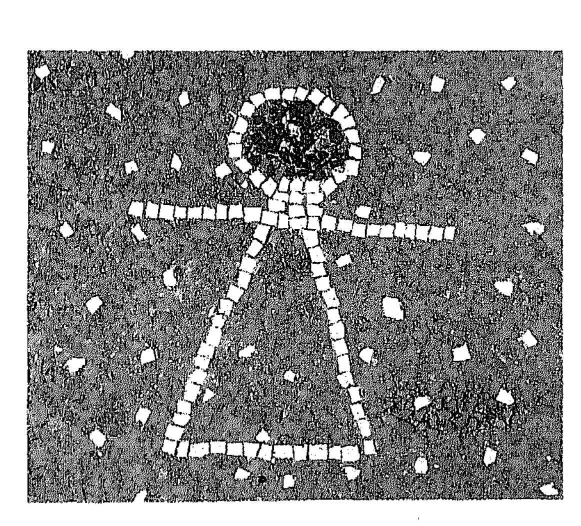
مغطس ثنائي منزل نهج الأسفنج رقم 1

يقوم مقام حجرة الثياب ثم الحوض الحذائي الشكل الحاوي لمقعد للمستحم. فوجود هذه الغرفة الطريفة في كل بيت يثبت مستوى اهتمام سكان المدينة بنظافة الجسم وقواعد الصحة. زد على ذلك أن لكل بيت بئرها الخاصة القريبة من غرفة الاستحمام. وفيما يخص قواعد الصحة فقد سهر المسؤولون من نقاشين وبنائين ومهندسين على تجهيزات البيوت لدفع المياه المستعملة نحو الخارج وربطها بقناة المدينة التي تشق وسط الشارع على طوله وكان مغطى حتى لا تعلو الرّوائح الكرهة أجواء المدينة.



المعبد
القرن الثالث
قبل الميلاد.

من تحت :
فسيفساء
رمز التانيت.



العمارة الدينيــة

لا بد من الإشارة إلى معبد تم كشف الغطاء عنه في المدينة وهو في ملف العمارة الدينية يعتبر من أعظم المعابد البونية في غربي البحر الأبيض المتوسط. فمن حيث تصميمه تراه مطابقا للنموذج السّامي بمدخله ذي العمودين الأماميين وسقيفته والصحن حيث وضع الناووس المخصص للصورة المقدسة وأمامه المذبح. كما للمعبد لواحق تفتح على الصحن. ومن ممـيّزاتها ورشة أقيمت لصناعة الايقونات الفخارية التي قد يشتريها الزائر

العابد هديّة للآلهة- وقد تمّ العثور على بعض بقاياه في داخل التنور. وأخرى في الغرفة المجاورة أين توضع القطع لتجف قليلا قبل وضعها في التنور، كما توجد بها أكداس الطين غير المستعمل.

فمن وراء هذه التهيئة العمرانية والعمارة السكنية والدينية نقف على برامج تشمل كلّ العناصر الضرورية التي تستجيب إلى الحاجة المادية والروحية وكذلك نتبين كم نحن بعيدون عن تهم الخلط والتشويش التي كثيرا ما وجهت إلى العمارة البونية التي تستمد جذورها من الشرق القديم.

الزخرفة

العطاء سخي في هذا القطاع. لقد جاءت المدينة بمجموعات متعددة ومختلفة النماذج والأنواع. هناك الزخرفة العضوية من أساطين وعقود وتيجان وغيرها والزخرفة التجميلية لواجهات المنازل والبناءات العمومية كالمئزابات المختلفة الأشكال: منها من تأخذ شكل رأس ثور أو الافريز المصري الذي يعلو الحيطان وأخرى تجمل الفناءات والغرف من مجوفات ومقورات وغيرها من الأشكال المنحوتة أو المسبوكة من الجص وإبداع الجصّاصين فيها الذين يحسنون استخدام القالب والمنحت. وكثيرا ما تتحلى المساحات المجصّصة والمسبوكات بألوان زاهية كالأحمر والوردي دون زهد في الألوان الداكنة كالأسود والرّمادي.

مشكاة ومحملها مقبرة عرق الغزواني القرن الرابع- القرن الثالث قبل الميلاد.

الإقتصاد

بحثا عن ملامح الحياة الإقتصادية بمدينة كركوان سألنا المعالم وسألنا اللّقى التي تم العثور عليها أثناء الحفريات: كالأدوات المنزلية والنقود والفضلات والآلات وغيرها. تتمثل الظاهرة الأولى في غياب الرّيف بل تتميّز الحياة في مدينة كركوان بالطابع الحضري فليس في البيت شيء يتعلّق بالرّيف أو يشير إلى الحقول وليس في البرنامج المعماري ملجأ للدّواب. أمّا الحرف فآثارها موجودة ومتعدّدة نستقيها من ملامح المدينة نفسها بجزئياتها من النقاشين والجصّاصين والبنّائين. كما نجد كلّ ما يتعلّق بقطاع النسيج والصباغة والملاحة وركوب البحر والصيد فيه واستغلال ثروته، كما لا ننسى توفّر بقايا صناعة الفخارين والايقونيين، كما لا ننسى توفر بقايا صناعاتهم عبر المدينة وأهمها أماكن أعمالهم من بقايا الأفران التي

مبخرة في شكل رأس الآلهة ديميتير القرن الرابع- القرن الثالث قبل الميلاد.





جرار صغيرة من عجين البلور مقبرة عرق الغزواني القرن الرابع- القرن الثالث قبل الميلاد.

تنقسم إلى نوعين : أفران الفخاريـن والايقونيين وأخرى لصناعة الجصّ من أ
البحر الذي يستخرج منه أيضا الأرجوان للصباغة. كما تم العثور بأحد أحياء المدينة
فرن لصانع عجين البلّور وعلى عناصر لسكب الحلي وصناعة الصوغ.

السكـــــان

هناك مؤشرات تدعم فرضية وجود عنصر لوبي متين، منها البرامج العمرانية وأبرزها التركيبة المد



ومنها بعض الأواني المجبولة، إلى جانب النقائش وبعض التقاليد الجنائزيّة كاستخدام المغرى ودفن الميّ
جنبه كالجنين، وإن لم تكن هذه التقاليد الجنائزيّة من خصائص اللوبيين فلقد وجدت في أفريقة
مساعدا على حضورها وانتشارها.

مذبح من الفخار
عنقاءان منقضتان
على أيل
القرن الرابع-
القرن الثالث
قبل الميلاد.
من تحت على
اليسار:
مرش في شكل
رجل زنجيّ مقرفص
مقبرة عرق الغزواني
القرن الرابع-
القرن الثالث
قبل الميلاد.

اسم المدينة العتيق

وفيما يتعلق باسم المدينة العتيق تصطدم البحوث بصمت المصادر المباشرة ويبدو من المجدي عدم اعتبار اسم كركوان بالرغم من شياعه بين الناس وتواتره في الكتب والدراسات ذلك أنه في الواقع اسم جغرافي لمكان يسمى كركوان أطلقوه بصفة اعتباطية على مدينتنا، على أن شهادات أخرى وأخص بالذكر منها الوثائق العقارية والرواية الشفوية تسمح بإعطائها اسم «تامزرات» وهو من أصل لوبي قديم..

الخاتمة

تمثل إذن مدينة كركوان أو تامزرات عطاءا سخيّا : فلقد تكلّست بأكملها في منتصف القرن الثالث ق.م.: المدينة ومروجها وحقولها ومدافنها. وإن لم تتوفر لدينا المعطيات الكافية لتحديدها بكل دقة فالمدينة مازالت تحتفظ بجزء كبير من أسرارها والقبور التي تم كشف الغطاء عنها مازالت تترقب الدرس والتحليل والنشر ثم لا ننسى أن قطاعات فسيحة من المدينة مازالت تحت الردم مستأثرة بكمية وافرة من المعلومات الثمينة.

فحفريات المستقبل والأبحاث التي قد نتناولها سنساهم في تجلية الملامح وتقليص الزوايا المظلمة بالنسبة لمدينة كركوان والعالم البوني عامة.

ومن المعلوم أن المدينة كانت تتعامل كأحسن ما يكون التعامل مع اليونانيين. ولنا في الواردات شهادة ولكن لا ننسى ثقل الشرق السّامي. فباعتبارها مجموعة بشرية وباعتبارها نسيجا حضريا ونتاجا ثقافيا تبدو مدينة كركوان مرتبطة ارتباطا وثيقا بالتقاليد الشرقية دون رفت الرصيد اللوبي ولا رفض الحوار مع الثقافات الأخرى.



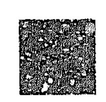


من فوق :
تمثال صغير
من الفخار
الآلهة عشترت
جالسة على أريكة
القرن الرابع-القرن
الثالث قبل الميلاد.

أسد من فخار
مقبرة عرق
الغزواني
القرن الخامس
قبل الميلاد.

القيـــروان

مراد الرمــاح



« في سهل فلاة منبسط ككف اليد، وتحت سماء مستمرة الصفاء تلوح من بعد للقادمين مـديـنـة عربية مكللة بقباب بيض كتوم النعام مسورة بسيران مشرقة تذهل الناظر بهجة وجمالا...»
تلك هي القيروان، تلك هي المدينة المباركة، تاج البلاد المغربية ومدخر الآثار العربية.

حســن حسني عبد الوهـــاب

تعمير القيروان

«القيروان أم أمصار وعاصمة أقطار، أعظم مدن العرب قطرا وأكثرها بشرا، وأيسرها أموالا وأوسعها أحوالا وأتقنها بناء وأنفسها هِمما وأربحها تجارة وأكثرها جباية» هكذا أثنى الإدريسي في نزهة «المشتاق» على القيروان، وهي أعظم من ذلك في إشعاع حضارتها وانتشار معارفها وعلومها وإسهام رجالاتها وفقهائها.

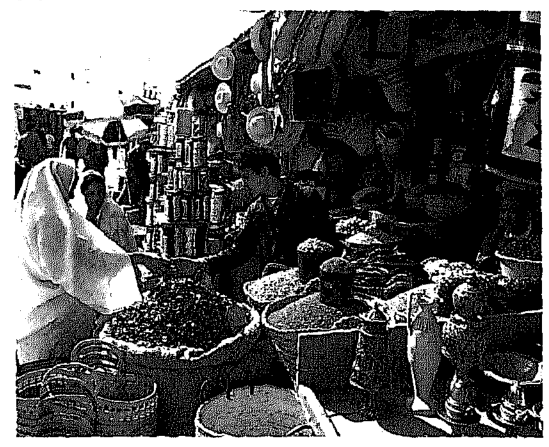
ولما أرسى عقبة المستجاب قواعدها في منبسط من الأرض مد يد، لم يكن يدري وهو يدعو ربّه لمنعها من جبابرة الأرض، أي مصير تخبئه لها الأيام إلا أنه استراتيجيا كان موفقا في اختياره. فالقيروان توجد على مسيرة يوم من البحر حيث مازال البيزنطيون يسيطرون على عبابه، وهي تبعد بمثل ذلك على الجبال حيث تعتصم القبائل البربرية المناوئة للإسلام، وتمثل القاعدة المحدثة رأس الحربة في وسط خط المواجهة المتخذ بين المسلمين والبيزنطيين.

ولما اختط عقبة المدينة أقام بوسطها المسجد الجامع حيث أن الدين يمثل محور حياة كل مسلم، ثم أسس دار الإمارة بجانبه واخـتـط الجـادّة الكبرى التي أصبح يطلق عـلـيـهـا اسـم «السماط الأعظم» قبل أن يتولى توزيع الخطط في معسكره على جنده المندفع معه برسالة

الإسلام فعمرت القيروان وشد الناس إليها المطايا من كل أفق. ولم تفلح انتفاضة كسيلة البرنسي (64هـ) ولا تمرد الكاهنة على حسان بن النعمان (78-82هـ) في وأد المولود الجديد الذي نشأ وترعرع في ظروف قاسية حيث ضاقت المدينة ذرعا بهجمات الخوارج من البربر الذين قاموا يدعون بالمساواة بين الأجناس واستباحوا دماء بناتها وحرمة نسائها وأطفالها في أكثر من موقف. وإن صمدت المدينة أمام جحافل جنود عكاشة الخارجي سنة 124-هـ/742م. بموقعة القرن، فإن قبائل ورفجومة قد استطاعت دخولها عنوة بعيد ذلك وإعمال السيف في رقاب القريشيين من أشراف العرب وساداتها. وكان لابد من تداركها قبل أن تفسد، فبادر محمد بن الأشعث الخزاعي، وهو أول قائد أمر بتحصينها ليقيها تجدد مثل هذه الكارثة فطوّقها بسور من طوب سعته عشرة أذرع أمر ببنائه سنة 144هـ/762م، وقد أصبح يشتمل فيما بعد على ستة أبواب هي باب أبي الربيع جنوبا وباب عبد الله ونافع شرقا وباب أصرم وسلم غربا وباب تونس شمالا. وكانت توجد بالقيروان آنذاك سبعة محارس لحمايتها وترصد حركة الأعداء.

ثم إن الخليفة العباسي المنصور كتب إلى الأغلب بن سالم التميمي واليه على إفريقية «يأمره بالعدل في الرعية وتحصين مدينة القيروان وخندقها وترتيب حرسها». وإن لم تمنع هذه التدابير القيروان من الكوارث، فإنها قد ساعدت بدون شك على توفير الأمن لها، ووطدت بالتالي لتمصيرها وتبحر عمرانها، وكان من أوكد مقتضيات ذلك توفير الماء الصالح للشراب نتيجة تفاقم عدد سكانها. وقد أصبحت الحاجة ماسة لذلك منذ خلافة هشام بن عبد الملك (105-124هـ) الذي يرجع له الفضل في بناء بعض البرك المقامة عند أبواب المدينة.

وفي ولاية آل المهلب نعمت القيروان ردحا من الزمن بالأمن، فتولى يزيد بن حاتم (155-170هـ) توسيع جامع عقبة بن نافع وفي ذلك معيار على اتساع المدينة وتوافد الناس لتعميرها، وقد أمنت واستطاب العيش فيها. كما قام يزيد بترتيب أسواقها وجعل كل صناعة في مكانها، فتعددت وكثرت ومنها سوق البزازين والزجاجين، وسوق إسماعيل التي أحدثها سنة 71هـ إسماعيل بن عبيد الانصاري، والقيسارية وسويقة المغيرة نسبة إلى عبد الله بن المغيرة الكوفي وهو من كبار المحدّثين الوافدين على القيروان، وسوق بني هاشم المنسوبة إلى صالح بن حاجب بن هاشم، وسوق دار الإمارة لقربها منها وسوى ما ذكرنا كثير. فمنذ النصف الثاني من القرن الثامن ميلادي أخذت القيروان تعد نفسها لتصبح مقرا عربيا هاما وافر العمران، غير أنه ينبغي الا نتصور القيروان عاصمة باذخة ذات أبهة وجلال، فلقد كان عمرانها على غاية من البساطة، ويعود إلى بني الأغلب (184-296هـ/800-909 م) شرف تأهيلها لتصبح إحدى أمهات العواصم الإسلامية وتبلغ أوج حضارتها وسؤددها، حيث قام زيادة الله الأول منذ سنة 221 هـ بإعادة بناء جامعها بما يتلاءم ومنزلة عاصمته الروحية

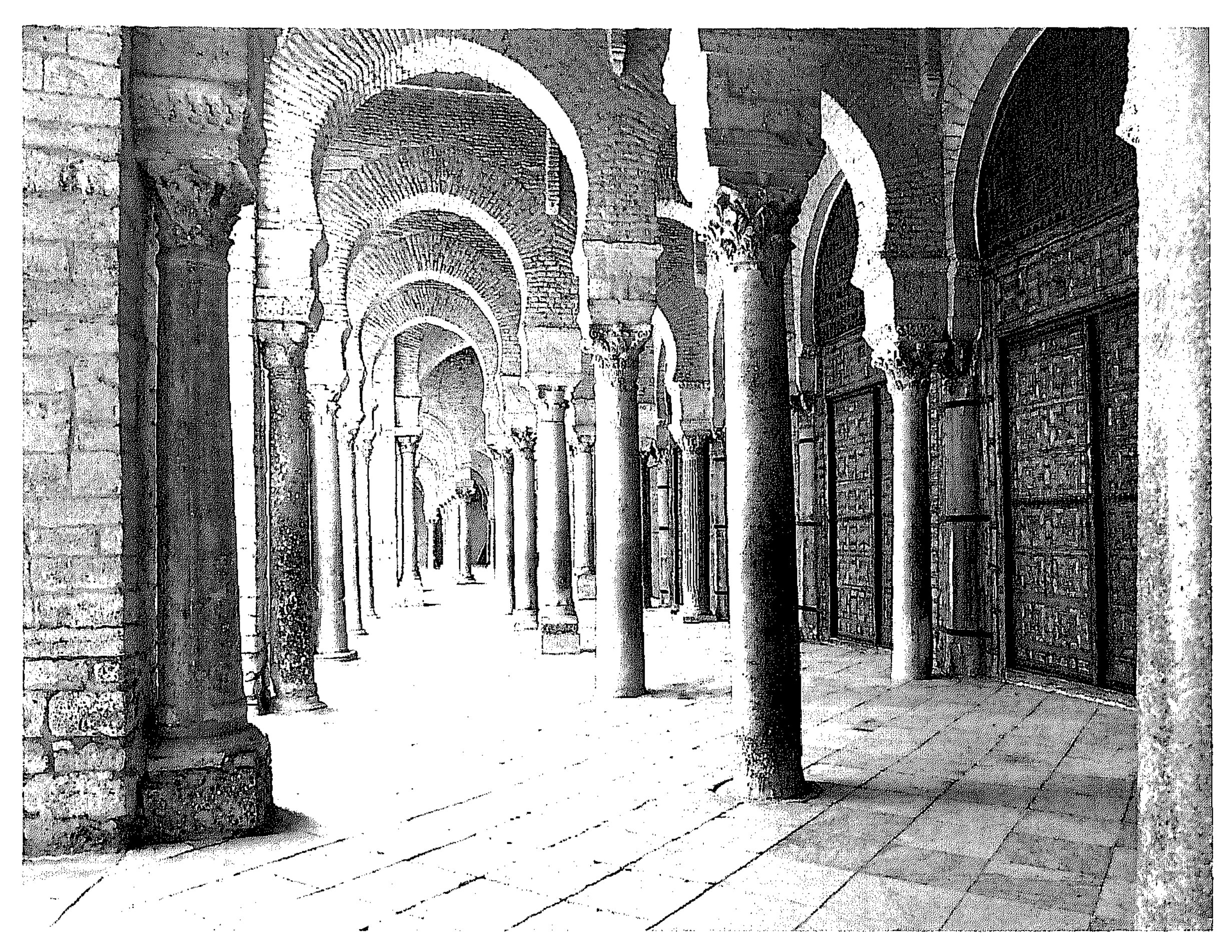

أسواق
مدينة القيروان

والسياسية وقام بتوسيع بيت الصلاة وجعل لها محرابا من الرخام المخرم. ولقد دعت الحاجة أبا إبراهيم أحمد لاضافة بلاطة أخرى تتوسطها قبة تعرف بقبة البهو تعتبر من روائع الفن الإسلامي.

وأبو إبراهيم وهو الذي تولى تكليف خادمه خلف الفتى (246هـ) ببناء البركة فكانت من أعظم المنشئات المائية في الإسلام وهي بأبعادها الشاسعة تعدّ إسهاما تذكاريا لمجد المدينة الصامدة وعطاءا للجانب المختل من حياتها والمعبر عن معركتها القديمة ضد العطش والقحط. ويبدو جليّا من خلال المصادر التاريخية أن القيروان عرفت خلال حكم الأغالبة أسرع نسق في نموها، حيث حباها أمراؤها بأروع مآثرها.



القيروان
محراب
الجامع الأعظم



القيروان
الجامع الأعظم
الاروقة المحاذية
لبيت الصلاة

ولما انتصب الفاطميون بافريقية سنة 296هـ/909م. لم يولوا القيروان اهتماما خاصا وهي التي تمردت على المذهب الجديد وقاومته حتى أجبرته على الخروج من بين ظهرانيها للإحتماء بقلعة المهدية، إلا أنه ليس هنالك ما يدلّ على أن تطور المدينة قد تعطّل بل أنّ المعزّ أجرى لأهلها قناة تصب في بركها بعد أن تملأ قصر البحر بصبرة المنصورية. وتبدو القيروان من خلال وصف المقدسي والبكري في أوج تطورها العمراني واتساع رقعتها حتى فاق ضلعها الثلاثة أميال (ما يربو عن 5,5 كلم) وأصبحت تشتمل على خمسة عشر دربا تنطلق جميعها من الجامع الأعظم مما قد يفيد أن تخطيط المدينة كان مشعا على شاكلة بغداد المدينة المدورة.

ويذكر البكري أنّ سماط سوق القيروان كان «متصلا من القبلة إلى الجوف وطوله من باب أبي الربيع إلى الجامع ميلان غير ثلث، ومن الجامع إلى باب تونس ثلثا ميل وكان سطحا متصلا فيه جميع المتاجر والصناعات وخارج المدينة خمسة عشر ماجلا سقايات لأهلها... وفي القيروان ثمانية وأربعون حماما وأحصى ما ذبح بالقيروان في بعض أيام عاشوراء من البقر خاصة، فانتهى تسعمائة وخمسين رأسا، ومن عجائب القيروان أنهم يحتطبون الدهر من زيتونها ليس لهم محتطب غيره، وأن ذلك لا يؤثر في زيتونها ولا ينقص منه.»

ومهما كانت أوجه المبالغة في هذا الوصف، فإن عدد سكان القيروان كان يناهز في ذلك التاريخ المائة ألف نسمة. ولا غرو فقد كانت المدينة آنذاك محطّ رحال التجارة الرابطة بين شطري العالم الإسلامي تردها قوافل الأندلس وبلاد غاو حيث مناجم الذهب وتصل مرافئها مراكب المحيط الهندي وبحر عمان معبأة بالبضاعة الشرقية والهندية، فتتولى توزيعها في كامل ديار المغرب، وكانت تحيط بالقيروان القرى العامرة والآهلة كسردانية وجلولة وحصر وصدف وغيرها، وهي تتولى تزويدها بما تحتاج إليه من أطعمة وخضر وغلال، كما أن المدينة أصبحت إحدى أهم مراكز صناعة الثياب الرفيعة والخزف والفخار. فتكون بذلك قد استوفت جميع مقومات كبريات المدن في ذلك العصر ولعلها كانت إلى جانب قرطبة والفسطاط من أكبر مدن دول البحر الأبيض المتوسط.

ولم يكن تحول المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر سنة 361هـ/972م. محمّلا بخزائن المال وبرفقته أمهر صناع افريقية ليفل في هذا الهرم الشامخ لولا أن توالت النكسات على إثر ذلك، بل إنّ الجرح ازداد بلاغا من جراء استفحال العداوة بين صنهاجة وزناتة ونتيجة احتداد الصراع من أجل السلطة والسيادة في المغرب بين بني زيري وبني حماد، وقد استدعى ذلك تعبئة كل الطاقات واستنزاف جميع موارد البلاد مما حال دون التفرغ لمواجهة النصارى في البحر الأبيض المتوسط، فغلبوا عليه وبدأوا يستأثرون بطرقه البحرية فتقلصت موارد افريقية والقيروان، وقد وافق ذلك سنوات عجاف كانت أشأمها سنة 395هـ إذ يذكر الرقيق أنه «كان بإفريقية في ذلك التاريخ شدّة عظيمة خلت فيها المنازل والمساجد بمدينة القيروان وتعطلت الأفران والحمامات ومع هذه الشدّة وباء وطاعون هلك فيه أكثر الناس.»

وتبين هذه اللوحة القاتمة أن عمران القيروان كان ينبئ في أوائل القرن الخامس هجري بالتراجع والركود وأن الصرح المقام بدأت تتزعزع هياكله فأتت الزحفة الهلالية بقاسمة الظهر، ولم تستطع المدينة رغم ضخامة السور الذي أقامه المعزّ والذي يبلغ قطره 22.000 ذراعا، الصمود أمام جحافل



خزف من الفترة الأغلبية (متحف الفنون الاسلامية برقادة).



صحن من الفترة الفاطمية (متحف الفنون الاسلامية برقادة).

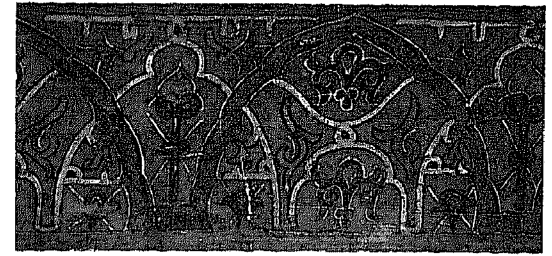
القبائل الهلالية من أثيج ورياح وسليم الذين دخلوا القيروان سنة 449هـ وعاثوا فيها فسادا وأجلوا أهلها فاندرس عمرانها، وانتقل مشعل الحضارة عنها إلى غيرها من مدن المغرب الاسلامي كبجاية وفاس وتونس وقد هجرتها الممالك التجارية وأصبحت أثرا بعد عين.

إلاّ أنّ القيروان لم تتلاش نهائيا، وهي التي طبقت شهرتها الآفاق، فقد استطاع رصيدها الحضاري الذي تركه فقهاؤها وعلماؤها أن يشفع لها من غوائل الدهر وأن يبقي على ذكرها إذ أصبحت المدينة محل تقديس واعتبار فصرف لها الملوك الحفصيون بعض اهتمامهم وأعيد إحاطتها منذ القرن السابع بسور يبلغ طوله ثلاثة كيلومترات، إلاّ أنه يمسح رقعة لا تفوق ربع مساحة القيروان أيام عزّها وامتداد عمرانها، واهتمّ المستنصر والأمراء الذين خلفوه بالمسجد الجامع فتمّ تدارك جدرانه وسقوفه وأخذت تعمّ المدينة المقامات والزوايا والقباب التي أقامتها شخصيات صوفية وفقهية فأضفت على المدينة هالة من الاجلال وأصبحت محلّ تبرّك وقد عاد إليها بعض أهلها واستوطنها بعض البدو ممن كان يتربص بها، فعمرت المساجد كمسجد ابن خيرون والمسجد المعلق، ورتّبت الأسواق كسوق المواجل، ودبّت الحياة من جديد واستطاع أهل القيروان التأقلم مع الإطار المحيط بالمدينة، فتحوّلت إلى مركز لصناعة الجلود والدباغة والملابس الصوفية والحياكة وإلى سوق تعول أهل البوادي المحيطة بما تحتاج إليه من مواد.

وان كان الحسن الوزّان الذي زارها سنة 1516م. لم يسترع اهتمامه الا فقر أهلها الذين كانوا يتعاطون الدباغة وصناعة الجلود، فإن الوزير السراج المتوفي سنة 1736 م يذكر في حلله في شأنها أنه «لم نعلم الآن بعد تونس مدينة في الوطن الافريقي أعظم منها مدينة، وأهلها أثبت الناس علما وأكثر حذاقة وأدرى الناس بتعاطي المتجر». وقد كانت القيروان محلّ اهتمام الحسينيين الذين أرادوا تدارك الإهمال الذي لقيته المدينة في عهد الولاة العثمانيين وأيام المراديين فيما عدا حمودة باشا الذي تولى بناء المقام الصحابي، بل أنّ مراد الثالث غضب على أهل القيروان فهدم دورهم وأجلاهم عنها، فقام حسين بن علي بإعادة بناء سور المدينة واهتمّ بها اهتماما خاصا، وبنى المدرسة الحسينية وأكرم أهلها وكذلك البايات من بعده الذين حفظوا للقيروان موقفها من الفتنة الباشية حتى أن الرحالة الفرنسي «دي فونتان» الذي رآها سنة 1784 يذكر أنّها «أعظم مدن الايالة بعد تونس، وهي أحكم بنيانا وأقل أوساخا ويقدّر الرحالة فيران عدد سكانها سنة 1861 باثنتي عشر ألف نسمة، وتعتبر ثانية المدن التونسية قبل صفاقس (10 000 ساكن) وسوسة والمهدية والمنستير التي كان عدد سكانها بين 5 000 و 8 000 شخصا.

فقد حافظت القيروان اذن على مرتبة معتبرة نسبيا من بين المدن التونسية ولم تتراجع مكانتها الا في العهد الاستعماري حيث تدحرجت في السلم العمراني.

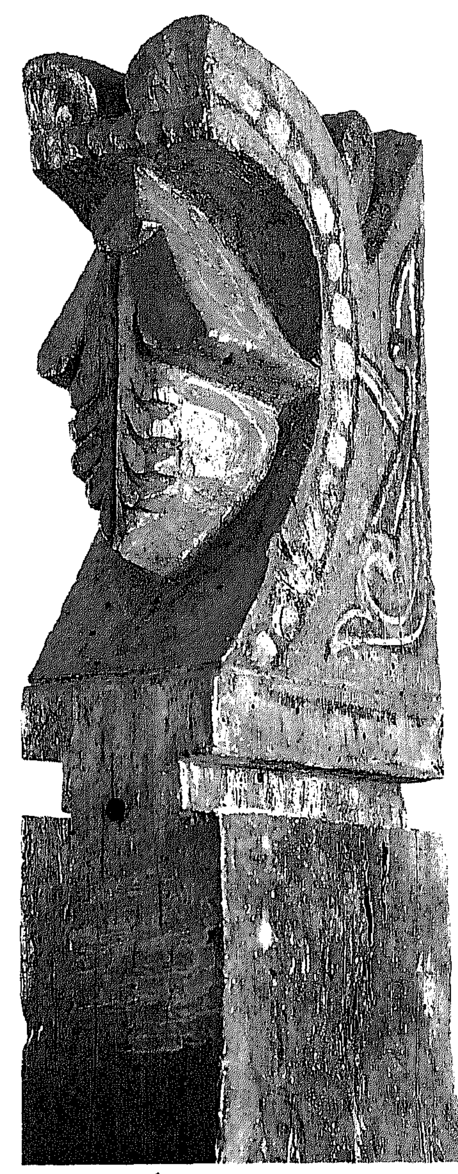
القيروان
خشب مزركش
سقف الجامع
الأعظم



اسهامات القيروان الحضارية

استطاعت القيروان أن تفرز طوال اربعة قرون متتالية مدرسة متعددة الخصائص أبقت على ذكرها خالدا

وحافظت على مجدها التليد، وكانت المدينة آنذاك سوقا للمعرفة طبقت شهرتها الآفاق وعمّ رواجها كامل أرجاء المغرب الاسلامي يغترف من معينها الواردون إلى أحواضهـا والمتعطشون لمعارفها، وانتصب بها منذ أواخـر القـرن الثالـث هجـري (التاسع ميلادي) بيت للحكمة محاكيا لمثيلتها ببغداد في التبحر في مجالات العلوم الطبية والفلكية والهندسية والترجمة وركزت مقومات النهضة الفكرية والعلمية بالبلاد. فقامت مدرسة طبية متميزة على يدي اسحاق بن عمران الوارد من بغداد وبما تولاه من نشر المعارف الطبية التي كانت نافقة بالمشرق على إثر حركة الترجمة التي ازدهرت على يدي الخليفة المأمون، وكان حاذقا عارفا بتركيب الأدوية وهو أول من انصرف بإفريقية لاعتماد التجربة الطبية وكتب في مجالات عدّة ككتابه في «الأدوية المفردة» وكتابه في «الصفد» وكتابه في «النبض»، وتميز بمؤلفه في «الماليخوليا» الذي لم يسبق للعرب أن ألفوا فيه، كذلك نحا نحوه اسحاق بن سليمان الواصل من مصر وكان له الفضل في نقل الكثير من العلوم الطبية اللاتينية والإغريقية ووضع كتابا في «الحميات» وآخر في «الأغذية»، فاستحكمت على يدهما قواعد المعارف الطبية والصيدليّة بإفريقية وتتلمذ عليهما نخبة من الأطباء كعلي بن إسحاق بن عمران ودوناش بن تميم، وتواتر ذكر الأطباء في كتب الطبقات الموضوعة في أبواب مختلفة إلى أن بلغت المدرسة الطبية الافريقية نضجها في العهد الفاطمي وفي أيام صنهاجة على يدي أحمد بن الجزار (المتوفي سنة 369 هـ)، الذي كان إمامها بدون منازع، واسع المعرفة والإطلاع في مختلف الاختصاصات صيدلانيا ممارسا. ألّف في مختلف العلوم حتى فاقت تآليفه الأربعة والأربعين كتابا، أهمها «زاد المسافر» الذي حظي بمنزلة كبيرة جدا في المشرق العربي وفي الأندلس وكتاب «طب الفقراء» الذي لم يسبق أن ألّف فيه واستطاعت مدرسة القيروان الطبية بفضل ابن الجزار أن تضاهي مثيلتها بالمشرق وأن تشع على الثقافة الأوروبية في القرون الوسطى. وكان لها أبلغ الأثر في نقل المعارف الطبية العربية إلى بلدان الحوض الشمالي للبحر الابيض المتوسط عبر جامعات سالرن ومونبيلي وبلاد الاندلس وقد ترجمت العديد من المؤلفات الطبية الافريقية إلى اللاتينية واليونانية والعبرية - حتى أننا لا نعرف أي طبيب عربي حظي مما حظي به ابن الجزار من الترجمات إلى مختلف اللغات العالمية خاصّة عن طريق قسطنطين الإفريقي - ومن ذلك كتاب «الماليخوليا» لاسحاق بن عمران و «زاد المسافر» وكتاب «الخواص» وكتاب «العمدة» وكتاب «طب الفقراء والمساكين» لابن الجزار.



غراب من خشب سقف الجامع الأعظم محفوظ بمتحف الفنون الاسلامية برقادة

وقد تواصلت هذه المدرسة رافدا كبيرا من روافد المدرسة الطبية الأوروبية.

والقيروان اشتهرت إلى جانب ذلك بأدبائها وشعرائها ونقادها، فبعد طور التلقي والمران والدربة على الأساليب الشعرية والبلاغية العربية وبعد أن تم صقل المجتمع الافريقي ليصبح مجتمعا عربيا فكرا ولغة وعقيدة، انبرى «المولدون» لتقليد أفذاذ الادب العربي فسطع نجم ابن هاني الاندلسي (المتوفي سنة 362هـ) بشعره الناضج والمتجبر حتى سمي بمتنبي المغرب ثم تبسط أهل افريقية والقيروان في «العيش وركنوا إلى البذخ والترف... وجنحوا إلى الاداب الرفيعة فزها الأدب... وراجت سوق الأفكار أيما رواج.»

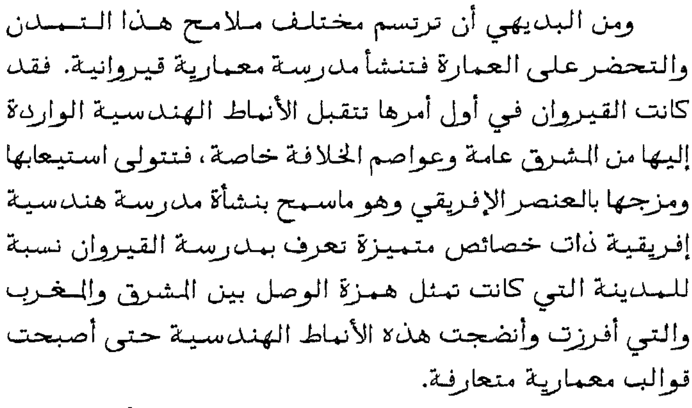
وبلغت حضارة القيروان أوجها في العهد الصنهاجي فغطر الأدب من نثر ونظم في حلة التفنين والرقّة وظهر فيه الاختراع والجيد وتأليف المعاني الرقيقة وهو ما حصل للأدب في العراق في مبدأ الدولة العباسية، فتفتقت القرائح وتولد الابتداع العجيب لتأثير المدنية على الخيال الشعري به وبرز استقلال المغرب عن المشرق في ابداعاته ومصادر إيحاءاته ووجوه بيانه وليس أدل على ذلك من ظهور حركة نقدية مساوقة للإبداع الشعري فكان عمدة ابن رشيق (المتوفي سنة 456هـ) وسبقه «ممتع» إبراهيم النهشلي وتلاه كتاب «رسائل الانتقاد» لمحمد بن شرف.

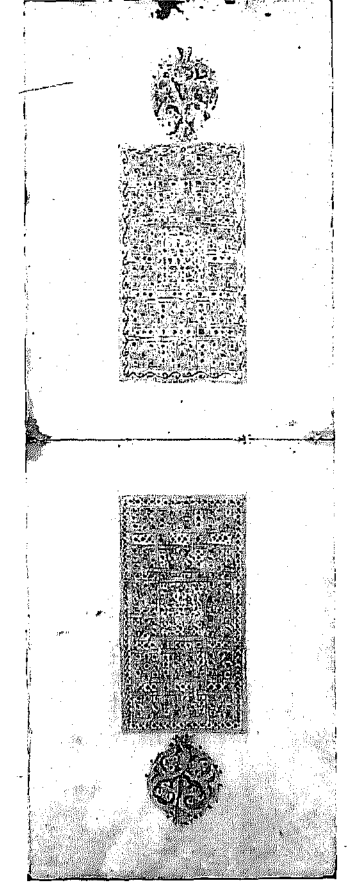
ويقول ابن خلدون في شأن العمدة هو «الكتاب الذي انفرد في صناعة الشعر واعطاها حقها ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله». وتميز من الشعراء الحصري القيرواني (المتوفي سنة 488هـ) برقة شعره وابن شرف (المتوفي سنة 460هـ) وكان لهما شرف تمثيل أدب الهجرة واللوعة إلى الأوطان الذي تأثر به شعراء الأندلس فيما بعد ويضاف إليهما تميم ابن المعز (المتوفي سنة 501هـ) الذي أبقى على ديوان ضخم ينبض وجدانا ومرارة.

ولعلّ من أبرز إسهامات القيروان في الحضارة العربية المغربية دورها الديني والرّوحي في ترسيخ العقيدة الاسلامية بالمغرب الإسلامي وكان السبق في ذلك للفقهاء العشرة الذين بعث بهم عمر بن عبد العزيز لتفقيه أبناء افريقية ومساعدتهم على فهم مناسك دينهم فتعدّدت المكاتب والحلق وانتشرت المعارف الدينية حتى إذا ما آل الأمر إلى الأغالبة ظهرت طبقة يمتاز رجالها بالعكوف على أقوال الايمة المجتهدين في التشريع يجمعون شتاتها ويؤلفون بين موضوعاتها ويبوبون مسائل الفقه وينسقون أحكامها بعد أن وقفوا على تفسير القرآن وعرفوا رواية الحديث والسنن، ومن أعلام هذه الطبقة أسد بن الفرات (213هـ) وعبد الله بن فروخ. ثم انبرت القيروان بعد ما انضجته الإختلافات المذهبية من مناظرات وتيارات دينية، إلى المالكية، وإن نشأ هذا المذهب بالمدينة فقد كان للقيروانيين شرف تدوينه على يدي أسد بن الفرات، ثم سحنون بن سعيد (234هـ) المؤسس الأول لمدرسة الفقه المالكي بافريقية وأبرز علم في المعرفة الدينية بالمغرب الإسلامي قاطبة. وقد واصل تلاميذه انضاج هذا المذهب بالتبحر في أبوابه وتفسير أقوال من تقدم وإيضاح آرائهم ومحاولة تعميم مشاربه ليكون مستوفيا لحاجة المجتمع ومعبرا عن مآربه، فكانت مؤلفات محمد بن سحنون (255هـ) في «البيوع» ويحي بن عمر (289هـ) في «احكام السوق» ومحمد بن عبدوس (260هـ) في «تفاسيره». ورغم الإضطهاد الذي تعرض إليه أعلام المالكية على يد الشيعة فإنهم استطاعوا

ترسيخ المجتمع الإفريقي خلال العهد الفاطمي، في انتماءاته السنية واستيفاء مقومات المذهب وتنويع فروعه. ومن أبرز شخصيات هذا الطور عبد الله بن أبي زيد القيرواني (386هـ) صاحب «الرسالة» و«النوادر» و«الزيادات» على المدونة وأبو الحسن القابسي (403 هـ) وأبو عمران الفاسي.

وبذلك يعود الفضل إلى القيروان في إنضاج الفكر المالكي ونشره في كامل بلاد المغرب فكان أحد مقومات وحدة الديار والمصير وحاميا للمجتمع المغربي من آفات التناحر المذهبي.





تزويق على ورق قضيم لمصحف من القرآن الكريم

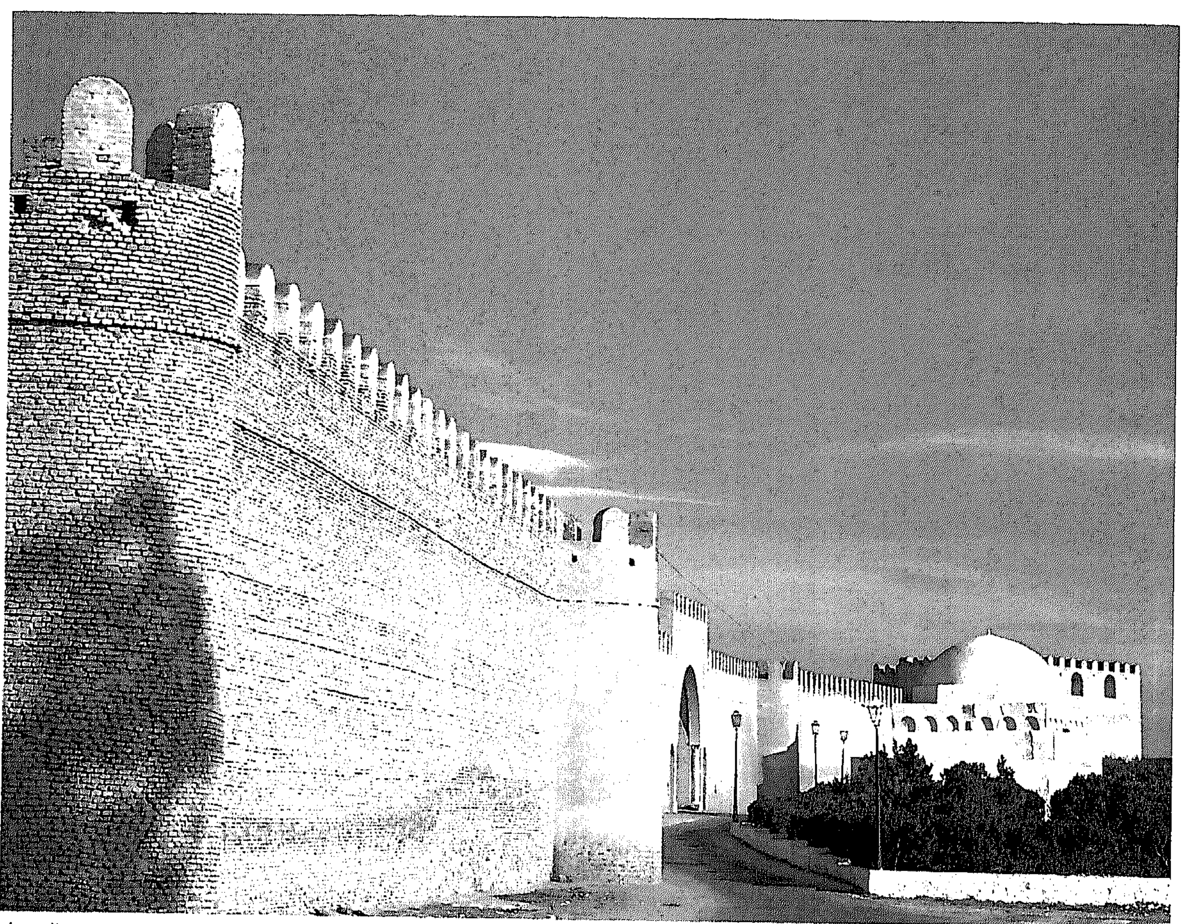
ومن البديهي أن ترتسم مختلف ملامح هذا التمدن والتحضر على العمارة فتنشأ مدرسة معمارية قيروانية. فقد كانت القيروان في أول أمرها تتقبل الأنماط الهندسية الواردة إليها من المشرق عامة وعواصم الخلافة خاصة، فتتولى استيعابها ومزجها بالعنصر الإفريقي وهو ماسمح بنشأة مدرسة هندسية إفريقية ذات خصائص متميزة تعرف بمدرسة القيروان نسبة للمدينة التي كانت تمثل همزة الوصل بين المشرق والمغرب والتي أفرزت وأنضجت هذه الأنماط الهندسية حتى أصبحت قوالب معمارية متعارفة.

وتختص مدرسة القيروان المعمارية بتشبثها بأنماطها التي بلورتها منذ أواسط القرن الثالث هجري وفي وفائها لمناهلها الشامية الأصلية رغم مواكبتها لبعض التيارات الزخرفية والمعمارية التي ظهرت في العالم الإسلامي خلال العصر العباسي خاصة فيما يتعلق بالقباب ذات الحنايا الركنية والزخارف المتأثرة بطراز سامراء وإن كان الفضل يعود إلى إفريقية في المحافظة على المدرسة الأموية، فإنها استطاعت كذلك تطويرها وإثرائها لتصبح متميزة بها من خلال التخطيط المتعامد وإقامة قبة ملاصقة لجدار القبلة عند التقاء البلاطة المحورية والبلاطة الموازية لجدار القبلة، وكذلك بالإنفراد من دون المدارس المعمارية الإسلامية بإضافة رواق للقبلة وإقامة قبة في وسطه، وتبدو العمارة القيروانية مبسطة وممتدة أفقيا تتحاشى الإرتفاع والأبهة. كما تختص الزخارف القيروانية من نباتية وهندسية بنضجها بالنسبة لمثيلاتها في الفن الأموي.

وقد امتازت مدرسة القيروان بتواصلها الزمني بإفريقية وبانتشارها الجغرافي شرقا إلى مشارق النيل وغربا عند بحر الظلمات.

فقد استطاعت الأنماط القيروانية أن تفرض لجذرها بإفريقية إلى العصر الحديث ولم تتراجع عن سيطرتها المطلقة إلا بمجيئ العثمانيين ومن خلال ما لحق افريقية من تأثيرات أندلسية ومغربية بعد طرد المسلمين من الأندلس.

وقد شملت مدرسة القيروان صقلية النورمانية حيث أن أغلب كنائسها ككنيسة سن جيوفنّي دلي أرميتي وقصر العزيزية وقصر القبيبة وقصر القبة. وقد استمدت أشكالها من المعالم الإفريقية خاصة من حيث استعمال المحاريب كعناصر زخرفية واتخاذ القباب ذات الحنايا الركنية.



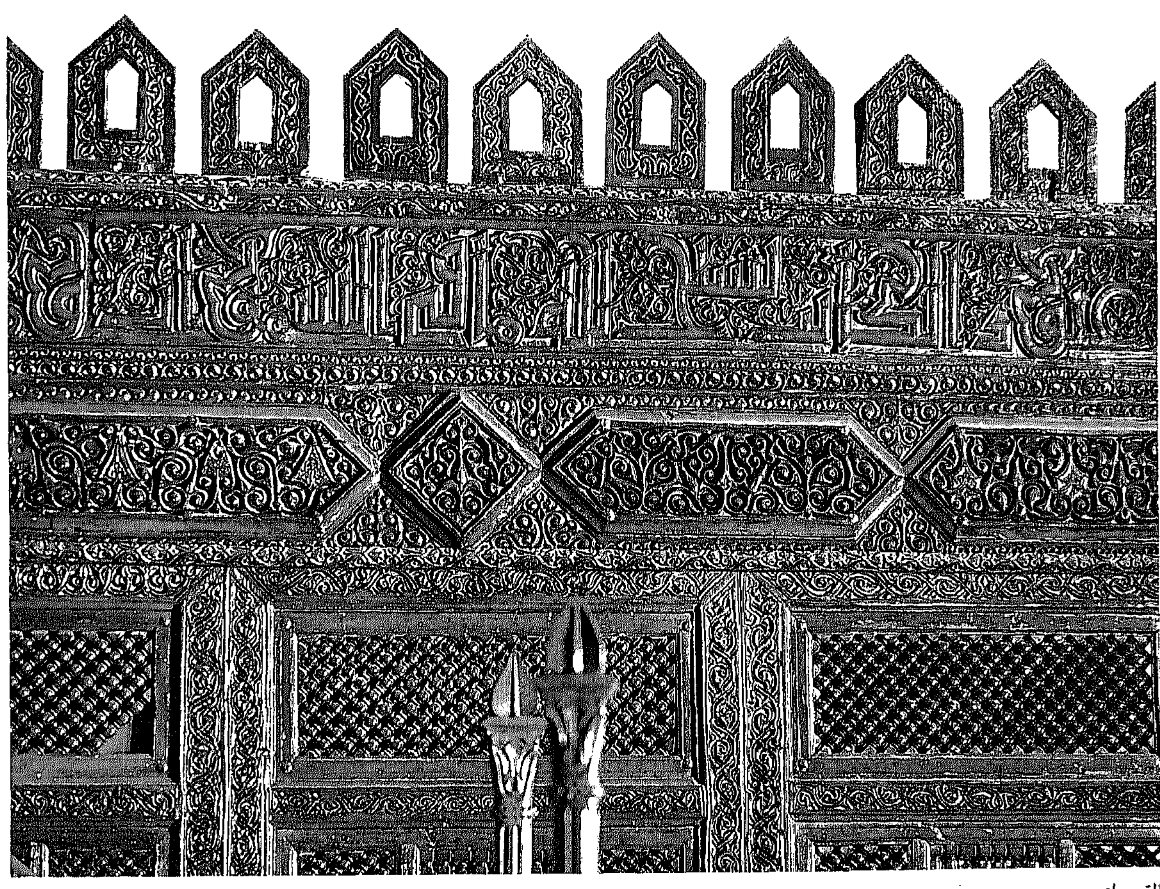
القيروان
الاسوار ومقام
سيدي السيوري
(الجهة الشرقية)

ويمكن الجزم بأن المناطق المغربية التي كانت مرتبطة سياسا وتاريخيا وعقائديا بإفريقية، قد تأثرت بالمدرسة القيروانية، من ذلك فإن حفريات قلعة بني حماد أثبتت وجود علاقة بين التخطيطات الإفريقية وتخطيطات معالم القلعة إلى جانب الزخارف وشواهد القبور التي كشف عنها. كما أن منارة جامع قلعة بني حماد من طراز المنارات القيروانية. ونلاحظ أن مجموعة من المنارات المغربية كمنارات جوامع تلمسان ومراكش وخاصة القرويين التي تنسب إلى عائلة بني فهر القيروانية المهاجرة إلى فاس يلتقي جميعها مع مقطع وطراز المآذن القيروانية وكذلك فإن تخطيط الجوامع القيروانية يتواتر في الجوامع المغربية وأبرز مثال لذلك يظهر في جامعي تنمل (1153م) وتلمسان.

كما وصلت الأنماط المعمارية القيروانية إلى مصر مع جحافل جيش المعز لدين الله الفاطمي وصناعه، فلا جدال في أن تخطيطات جامع الأزهر (970 م) وجامع الحاكم (991-1004 م) والجيوشي تمثل تواصلا لتخطيطات الجوامع القيروانية من خلال مثال جامع المهدية الفاطمي.

المسجد الجامع

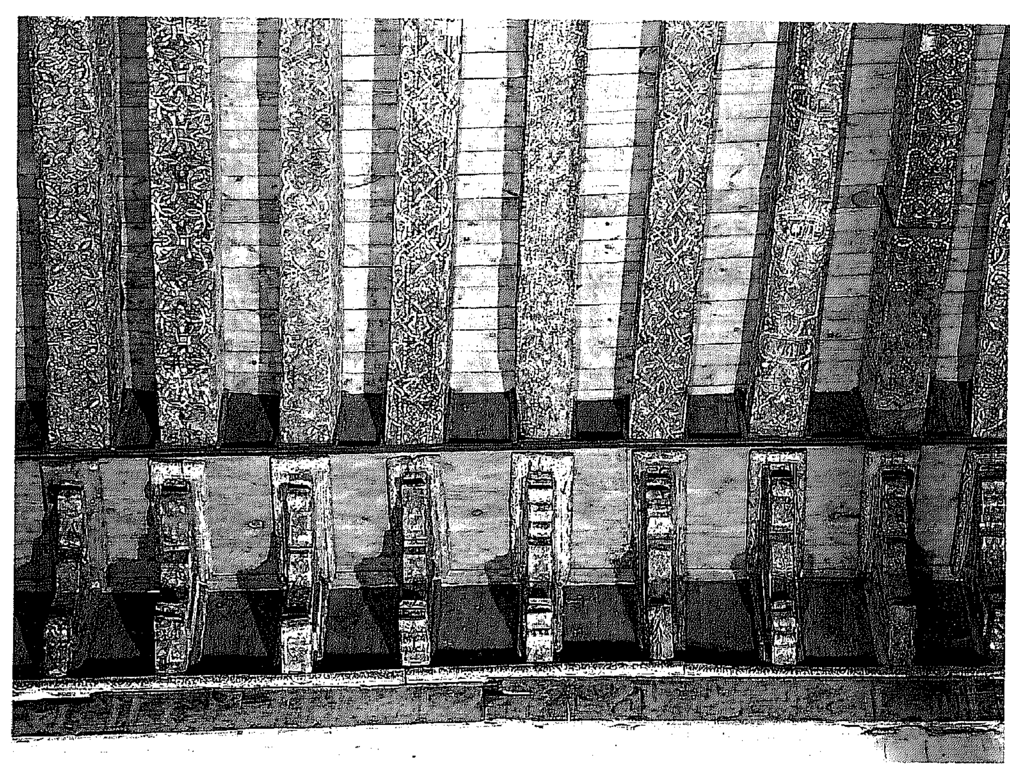
وإن أبرز ما جاءت به العمارة القيروانية، آبدة الحضارة الإسلامية بالمغرب، جامع عقبة بن نافع الذي أسس سنة 50هـ وكان محل تعهد من طرف الولاة والأمراء الأفارقة ويعود الفضل



القيروان
الجامع الأعظم
مقصورة المعز

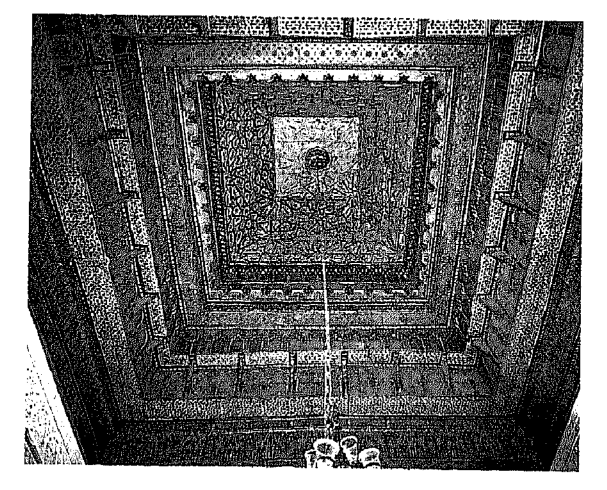
لزيادة الله الأول في رسم ملامحه وتخطيطه النهائي (220-226هـ). وهو يشتمل على 17 بلاطة وثمانية أساكيب ويستمد تخطيطه من الجوامع الاموية مع الإقتداء بمثال جامع الرسول بالمدينة ويتولد عن التقاء البلاطة الوسطى وأسكوب المحراب قبة مربعة القاعدة مقامة من الحجارة المنحوتة وهي تعتبر من أجمل القباب ذات المحاريب في الفن الإسلامي بما تنطوي عليه من زخارف هندسية متواجدة في الرصيد العباسي وما تتميز به من تناسق في

جزء من سقف
الجامع الأعظم
تزويق على الخشب

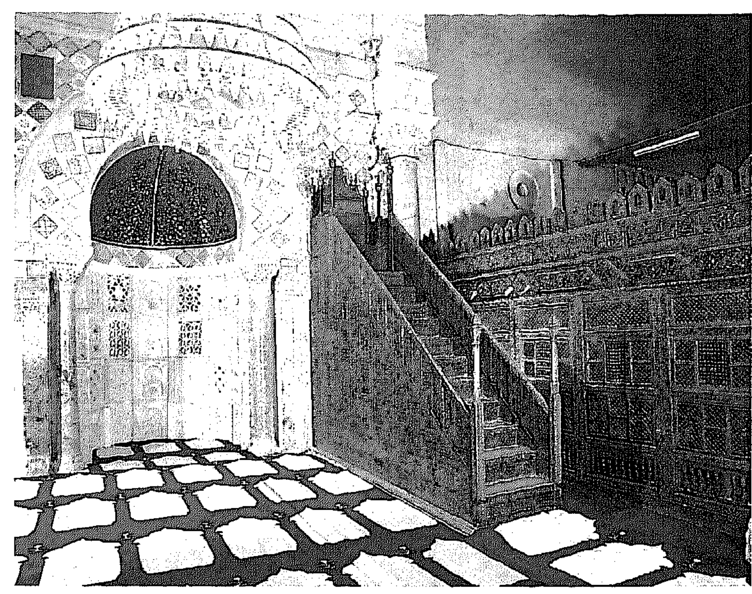


أحجامها. ويواصل بيت الصلاة الصحن الذي تحيط به الأروقة ذات العقود النصف دائرية المتجاوزة من جوانبه الأربعة ويتوسط رواق القبلة قبة البهو في حين يتوسط الجدار الشمالي منارة مقامة من الحجارة المصقولة وهي مربعة القاعدة وكانت المثال الذي اقتدى به العديد من المنارات الإفريقية عبر التاريخ. وإذا استعرضنا أهم جوامع العالم الإسلامي بما في ذلك جوامع عواصم الخلافة فإن جامع القيروان يتميز بالإضافة إلى معماره وتركيبه الهندسي بالمحافظة على أغلب أثاثه الأصلي الذي يرجع إلى فتراته الأولى وحسبنا للتدليل على ذلك أن نذكر المنبر الخشبي (248 هـ) وهو أقدم المنابر الإسلامية التي سلمت من تقلب الأزمان وهو مصنوع من خشب الساج. ويشتمل على ما يربو عن 106 لوحة تحمل زخارف نباتية وهندسية بديعة وتعبر عن تمازج التأثيرات البيزنطية والإيرانية وتوحدها في روح إسلامية. كما أن جامع القيروان يختص بسقوفه الخشبية المدهونة والمصقولة ترجع إلى فترات تاريخية مختلفة تمتد بشريطها الكتابي المورق على ما يربو عن الألف سنة وهي تنضاف إلى المقصورة الفريدة والتي حبا بها المعز بن باديس جامع القيروان (حوالي 425هـ). وإن من بدائع هذا الجامع الخزف ذي البريق المعدني

قبة مقام سيدي
عبيد الغرياني



التي تحلي واجهة المحراب : (248هـ) وهي مجموعة متكاملة تسمح بتتبع خطوات نشأة الفن التجريدي المعاصر.



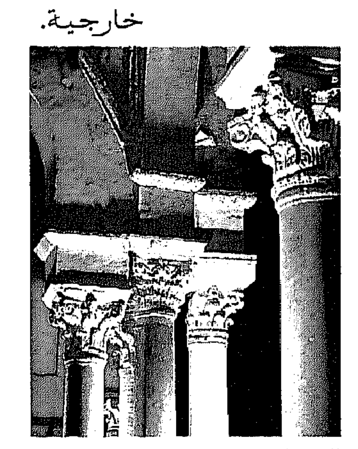
القيروان
الجامع الأعظم
المنبر والمحراب
وجانب من
مقصورة المعز

بركة الأغالبة

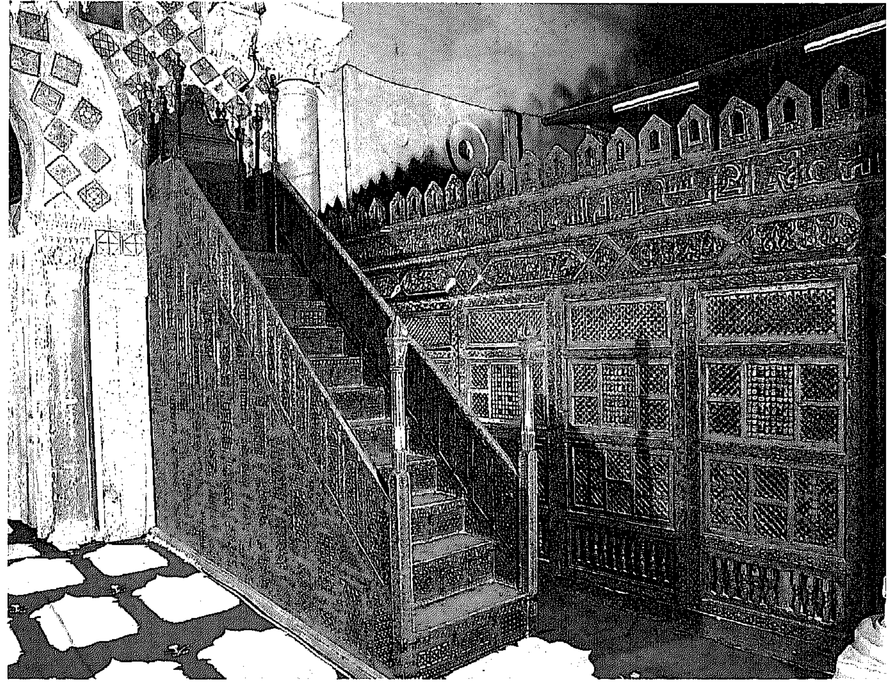
تعد بركة الأغالبة من أشهر المؤسسات المائية في الحضارة الاسلامية وقد أقامها الأمير أبو ابراهيم أحمد بن الأغلب سنة 248هـ بعد عامين من العمل المتواصل وتأنق في مظهرها وإبراز تفاصيلها الهندسية بما يتناسب مع مظهر عاصمته القيروان.

وتعتمد هذه البركة على ثلاثة عناصر أساسية :

- حوض للترسيب يبلغ قطره 34م وحمولته 3000م^3 يستند على دعائم داخلية (17) وأخرى خارجية (26).
- الحوض الكبير وهو يتصل بالحوض الأول عن طريق فتحة تسمى السرح ويمتاز بأبعاده المترامية حيث يبلغ قطره 127,7م وعمقه 4,8 م ويحتوي على 64 دعامة داخلية و 118 دعامة خارجية.



القيروان
الجامع الأعظم
جانب من تيجان
بيت الصلاة

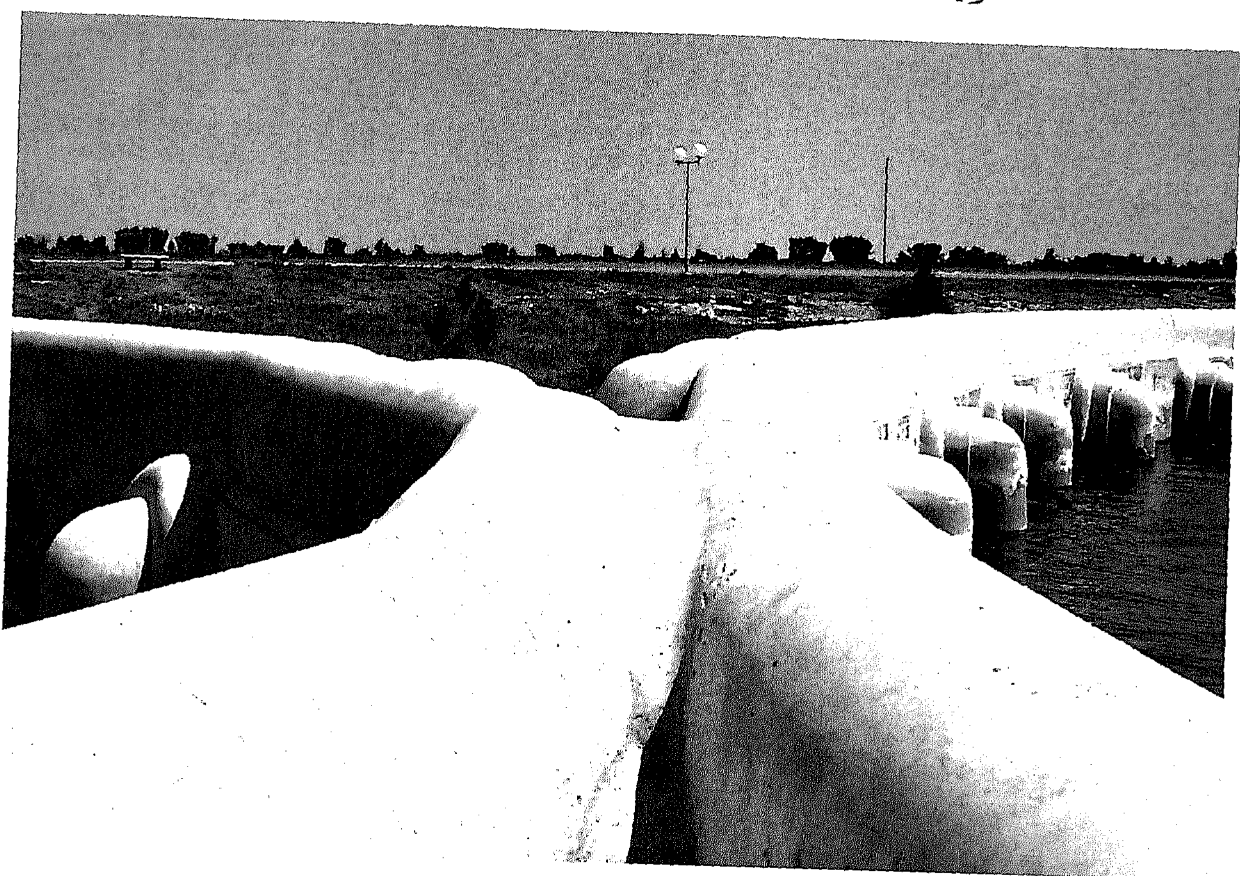


القيروان
الجامع الأعظم
المنبر

القيروان
صومعة الجامع
الأعظم



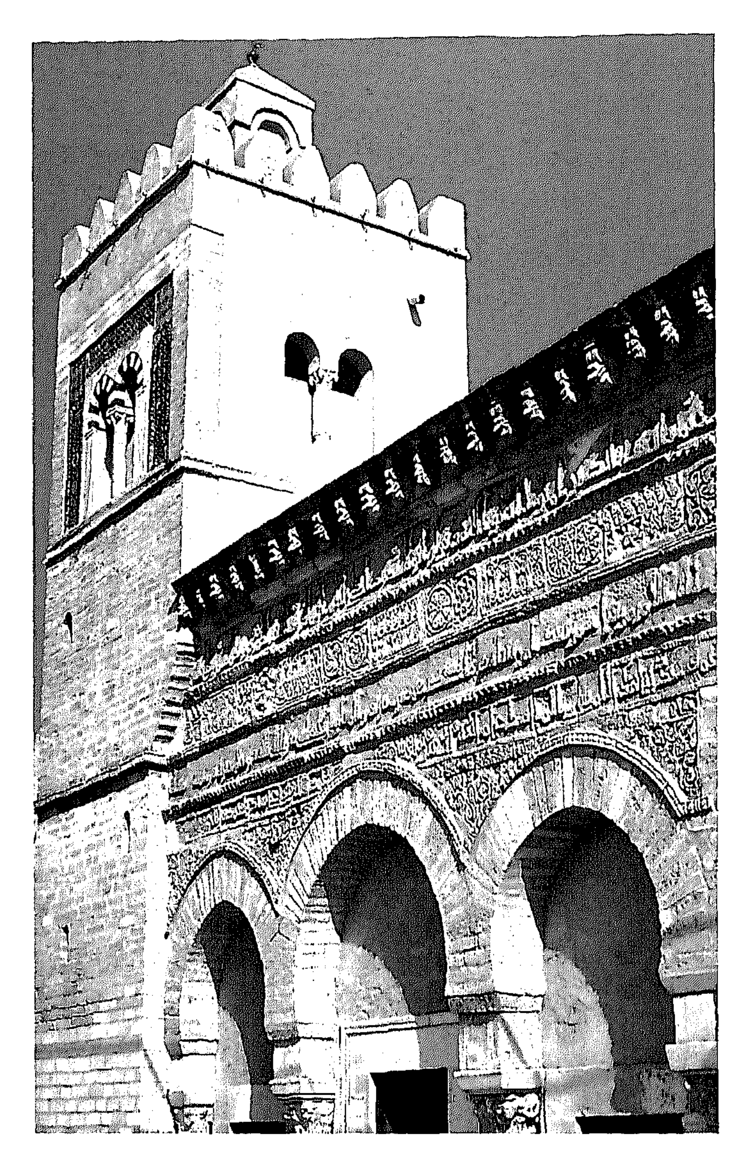
- إن هذه البركة الكبيرة بأبعادها الشاسعة، هي إسهام تذكاري لمجد المدينة الصامدة، وعطاء الجانب المختل من حياتها والمعبر عن معركتها القديمة ضد القحط، وتعتبر هذه العمارة التي كانت وليدة الحاجة نموذجا فريدا من نوعه يمتاز بصلابته وتناسق أحجامه.



القيروان
بركة الأغالبة
ملتقى الحوض
الكبير والحوض
الصغير

مسجد بن خيرون

وهو يتميز باحتوائه على أقدم واجهة منقوشة ومزخرفة في الفن الاسلامي سلمت من غوائل الدهر. فقد أفضى استعمال الحجر الرّملي والجيري المنحوت وقارا على المظهر العام وأتاح استخدام سطوحها الواسعة تحقيق ثراء من الزخارف والأحجار مكنها من دخول فن العمارة من بابه الواسع، وتتكون الواجهة من تركيب محوري متناظر يتمثل في ثلاثة أبواب يتوسط الواجهة أكبرها وتتواتر معها ألواح ذات زخارف نباتية وهندسية متناسقة تتكون من عنصر الورقة الخماسية والثلاثية والمطوية. وتعلوها أشرطة مكتوبة بخط كوفي بارز تنسب بناء المعلم لمحمد بن خيرون (سنة 252هـ) ويحتل المسجد مساحة صغيرة ويتكون من بلاطات متوازية مع جدار القبلة في كل من البائكتين المسهمة في حمل السقف ثلاثة عقود نصف دائرية متجاوزة. وينتصب عند الركن الشمالي منارة مربعة القاعدة قد أضيفت في العهد الحفصي وهي تحمل تأثيرات أندلسية واضحة.



القيروان
مسجد ابن خيرون

مدينة تونس: تاريخها ومعالمها

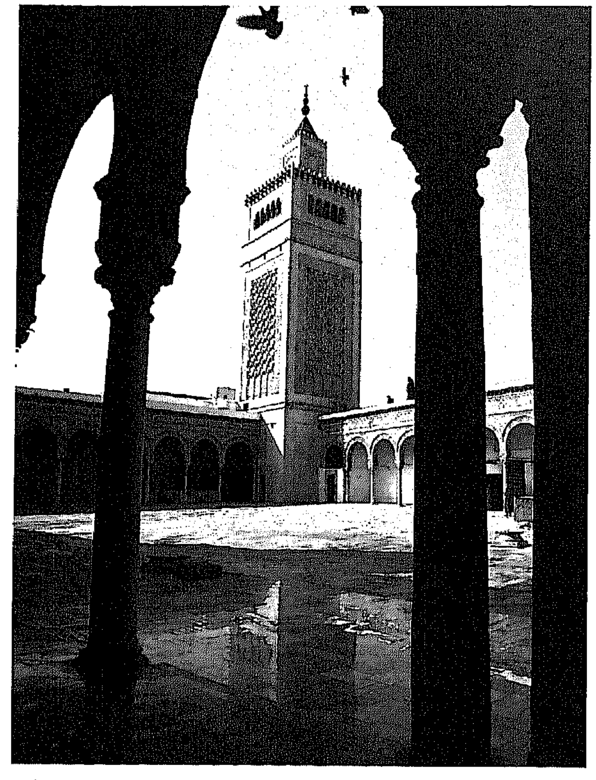
عبد العزيز الدولاتلي

إن مدينة تونس - التي كانت قديما قرية بربرية صغيرة (Oppidum Tunicense) ممتدة فوق الربوة المنحدرة في يسر حتى ضفاف البحيرة المعروفة- تمثل واحدا من تلك المواقع الممتازة التي حبتها الجغرافيا واصطفاها التاريخ. ولم يكن هنالك في بادئ الأمر ما قد يهيئها لكي تصبح عاصمة لإفريقية التي كان يطلق عليها اسم أفريكا في العصور القديمة. وكان جوارها لقرطاج العظيمة الشامخة في عهديها البونيقي ثم الروماني يجعل الإهتمام لا ينصرف إليها إلا في القليل النادر طوال كامل العهود القديمة، باستثناء حالات ثورة أهاليها - ومعظمهم من أصل بربري- على مستعمريهم البونيقيين أو الرومان. وقد بقيت هذه المدينة المشاغبة على ما عرفت به من ملازمة الخروج والتمرّد على الحكام حتى بعد الفتح العربي، حين تحوّلت منذ أوائل القرن الثامن إلى قلعة حصينة تتجمّع فيها جيوش المسلمين وينطلق منها الفاتحون نحو كبريات جزر البحر المتوسط. وقد انحصر دور تونس الممتدة بين البحيرة والسبخاء، في أنها الأرض الخلفية لمدينة قرطاج، وكانت تراقب طوال العهود القديمة معبرا لمرور الأراضي الرابطة بين العاصمة وبقية أنحاء البلاد. أما المسلك الآخر عبر البحيرة عن طريق رادس فقد كان هو أيضا يتيح الإتصال بقرطاج لكن بواسطة العوّامات الطافية على سطح الماء (per-rates).

تونس ترقي إلى خلافة قرطاج

على أن هذا الموقع الحريز الذي لم يكن لصالحها في العهود القديمة قد أعطاها بعد الفتح العربي مكانة دفاعية واستراتيجية من الطراز الأوّل. فقد ورثت تونس في الواقع مزايا مدينة قرطاج مع تحاشي العيوب والمساوئ المتصلة بموقعها، فلم تبعد كثيرا عن البحر ولا كانت شديدة

التعرض لمخاطره. فورثت عن قرطاج بيئتها الجغرافية والإقتصادية الملائمة مما وفر لها الثروات الزراعية والأنشطة الصناعية ومسالك الإتصال وبشئ من النزوع إلى الصبغة البحرية، دعّمه لديها حسان بن النعمان القائد العربي الشهير الذي أطاح بقرطاج البيزنطية وقضى على المقاومة البربرية التي جسّمتها الكاهنة. وقد أقام على الأرض المهملة الفاصلة بين المدينة والبحيرة دارا للصناعة جلب إليها من مصر ألف رجل من الأقباط المختصين في بناء السفن. وفي نفس الوقت أحدث بوسط المدينة مسجدا جامعا -عرف بمسجد جامع الزيتونة- أخذ مكانه داخل كنيسة قديمة أو على أنقاضها. وقد حدد كلّ من دار الصناعة وجامع الزيتونة مصير مدينة تونس مكرسين لمدة قرون طويلة نزعتيها المزدوجة : البحرية والدينية.



تونس
جامع الزيتونة المعمور
الصحن والصومعة

لكنها ظلت مع ذلك مدينة ذات أهمية ثانوية بالقياس إلى مدينة القيروان عاصمة الأغالبة (القرن التاسع) أو إلى مدينة المهدية التي أسسها الفاطميون ثم أصبحت، بعد رحيلهم إلى مصر (في سنة 970م) قاعدة لدولة بني زيري البرابرة.

وينبغي أن ننتظر أواسط القرن الحادي عشر لنرى مدينة تونس تحرز أوّلا على صفة القاعدة لإمارة محلية، وهي إمارة بني خراسان (من أواسط القرن الحادي عشر إلى أواسط القرن الثاني عشر) ثم تتحوّل إلى عاصمة لولاية إفريقية تابعة لخلفاء الدولة الموحدية القائمة بمراكش (من 1160 إلى 1229 م)، قبل أن تصبح أخيرا عاصمة لملوك دولة بني حفص (من 1229 إلى 1574م). وقد كانت مدينة تونس تراقب بالإشتراك مع صقلية التي لا يفصلها عنها سوى ممر لا يتجاوز عرضه 140 كيلومترا، حركة العبور بين المتوسط الغربي والمتوسط الشرقي، وهي ميزة كبرى في مجال التجارة الدولية.

وقد كان للجمهوريات الإيطالية المزدهرة في ذلك العصر (مثل بيزة وجنوة وفيرنزة والبندقية...)، ولمدينة مرسيليا وبعض المدن التجارية الإسبانية مثل برشلونة، مبادلات مكثفة مع تونس ولا سيما في موادّ البذخ الفخمة المخصصة لإرضاء رغبات أهل البلاط وأعيان البلاد من قواد عسكريين وأكابر الفلاحين والتجار. وقد امتدت حول الجامع الأعظم أسواق عديدة تباع فيها وتشترى السلع النفيسة، من منسوجات حريرية وعطور وكتب ومصنوعات جلدية، في حين كانت البضائع الأكثر ابتذالا أو الملوثة أو المتعلقة بالريف تصنع وتباع خارج أبواب المدينة في نطاق ما شرع الناس بعد في تسميته بالأرياض (مثل «الدباغين» و«الحلفاوين» و «التبانين» و «رحبة الغنم» و «المركاض» الخاص بالخيل وغير ذلك). وهذا الرخاء الذي نستشفه من خلال كتابات الرحالة

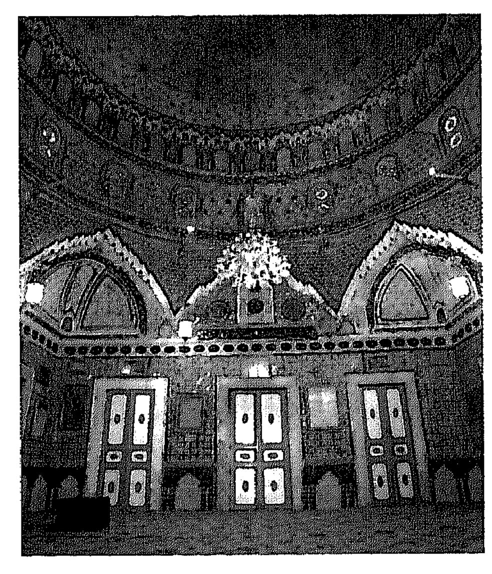
العرب أو الأوروبيين أمثال عبد الباسط بن خليل المصري والعبدري الأندلسي و أدرن أصيل مدينة «بروج»، يذكرنا لا محالة بالقرن العاشر حيث كان ابن حوقل قد سبق إلى التأكيد على وفرة السلع والمنتجات ويسر عيش السكان، بل وحتى بالقرن الحادي عشر حيث كان البكري لا يملك إعجابه سواء فيما يتعلق بالأسواق الغنية العامرة بالخيرات أو بما كان يحيط بالمدينة من أجنة ثمار وبساتين خضر.

عاصمة في عهد الحفصيين

كانت تونس تعدّ مدينة كبيرة في عهد الحفصيين (وقد بلغ عدد سكانها في القرن الخامس عشر ما يناهز مائة ألف شخص)، وكان العيش يطيب فيها، وتحميها أسوارها وقلعتها المعروفة بالقصبة حيث كان يقيم السلطان إذا لم يكن بأحد منتزهاته الموجودة خارج المدينة مثل حدائق رأس الطابية أو جنان أبي فهر.

ومن أعلى مراقي جامعها الأعظم الإثنتي عشرة -أعني جامع الزيتونة- فإنه يمكن للمرء أن يرى دار الصناعة التي أنشأها حسان وكذلك الميناء والبحيرة التي لم تكن ضفافها تبعد عن المدينة بالقدر الذي نجده اليوم، وبالتحديد عن بابها الشرقي، وهو باب البحر. وكان باب الجزيرة جنوبا، وباب سويقة شمالا، وباب قرطاجنة بالشمال الشرقي، وباب الخضراء غربا تشكل المنافذ الأربعة الأخرى المعروفة منذ القرن الحادي عشر أو الثاني عشر بل وحتى قبل ذلك على أغلب الظن.
وقد تولى التدريس بجامع الزيتونة منذ القرن التاسع عدد من أجلّة العلماء منهم علي بن زياد، ونشروا المذهب المالكي بربوع إفريقية قبل أن يرفع رايته الإمام سحنون. وقد كان من نتائج الحركة المعمارية التي شهدتها تونس منذ القرن الثالث عشر أنها جعلت من مدينة بني خراسان الصغيرة عاصمة مساوية للمدن الكبرى في ذلك العهد، لائقة خصوصا بدولة بني حفص التي جعلها السلطان أبو عبدالله المستنصر عاصمة خلافة في منتصف القرن الثالث عشر.

تونس
مقام سيدي
ابراهيم الرياحي



مركز ديني وفكري ومدينة يعمها الرخاء والإزدهار

كانت مدينة تونس العاصمة السياسية والإقتصادية لمملكة الحفصيين الكبرى. (وكانت إفريقية تضم بالإضافة إلى البلاد التونسية الحالية إقليم طرابلس شرقا وإقليم بجاية وقسنطينة غربا). كما كانت مدينة تونس أيضا مركزا دينيا وثقافيا كبيرا. وقد انضاف فيها منذ القرن الثالث عشر إلى جامع الزيتونة خمسة جوامع خطبة جديدة كبرى (وهي جامع القصبة غربا، وجامع أبي محمد شمالا، وجامع باب الجزيرة البراني جنوبا وجامع التوفيق في الشمال الغربي وجامع باب البحر شرقا). وأنشئت المدارس (وهي معاهد معدّة في آن واحد لاسكان الطلبة وتعليمهم)، وأولى هذه المدارس بشمال إفريقيا هي المدرسة الشماعية التي بناها مؤسس الدولة الحفصية في نفس الوقت الذي بنى فيه جامع القصبة (أي حوالي سنة 1230 م). وأقيمت

«الزوايا» (وهي مقامات أضرحة الأولياء الصالحين ومواطن خشوع وتقوى للجماهير)، والكتاتيب (وهي مدارس قرآنية) والأسبلة (وهي مساقي لعابري السبيل طلبا للثواب)، والحمامات وغيرها من المنشآت المقامة لوجه الله أو المصلحة العامة.

وهذه المعالم كلها تشهد بالنهضة الحضارية الكبرى وبالتجديد المستمر في الطابع المعماري. أما التيار الغربي الذي قوي واشتدّ في القرن الثالث عشر بسبب وفود الأندلسيين بأعداد كثيفة بعد أن تمّ طردهم من إسبانيا، فقد أخذ يزاحمه منذ القرن الخامس عشر تيار القادمين من مصر. ومازلنا نقف اليوم بإعجاب كبير أمام المعالم ذات الطابع الموحدي أو الأندلسي المميز مثل منارة جامع القصبة وقبته (القرن الثالث عشر)، أو زاوية سيدي قاسم الزليجي (القرن الخامس عشر)، أو المعالم التي تحمل أثرا شرقيا واضحا (مثل ميضاة السلطان) (القرن الخامس عشر)، أو طابعا تأليفيا

تونس
المدرسة
الشماعية



يمزج بين الإتجاهات مثل المدرسة الشماعية (القرن الثالث عشر) أو المدرسة المنتصرية (القرن الخامس عشر) أو جامع الهواء (القرن الثالث عشر) الذي أذنت ببنائه الأميرة عطف زوجة أبي زكرياء مؤسس الدولة الحفصية.

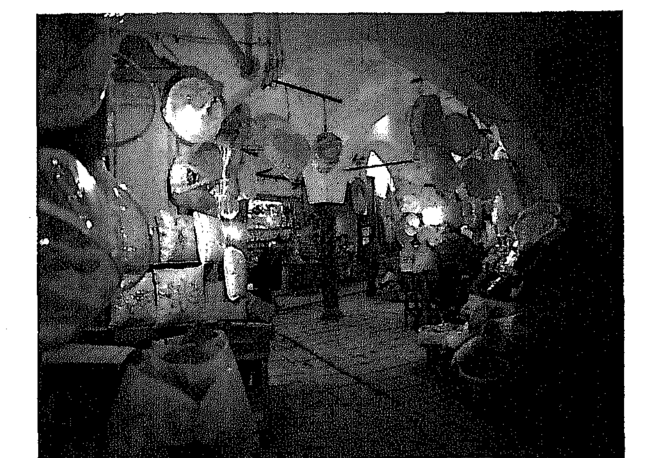
مدينة مفتوحة على كل تيارات الفكر

لم يحتفظ لنا التاريخ من هذه النهضة الحفصية بمجرد المعالم فحسب، بل أن صور رجال أعلام، من شعراء وعلماء وأتقياء ورعين، لا تزال حية في ذاكرة أهل مدينة تونس. وسواء أكانوا من أرومة إفريقية عريقة أو من أصل أندلسي أو بربري أو شرقي، فقد ساعدوا على تبادل الأفكار والمناهج التقنية وساهموا بتنصيبهم في رقي الحضارة بوجه عام. ولست بذاكرهم جميعا بل سوف اقتصر على أجدرهم بالذكر هنا وهو ابن خلدون المولود بتونس يوم 27 ماي 1332. وقد اشتهر ابن خلدون بالخصوص بأنه مؤلف «المقدمة»، وامتاز بمنهجه في تحليل التاريخ الذي استطاع أن يسمو به إلى بعد كوني بأتمّ معنى الكلمة، رغم إرادته الإقتصار على الحديث عن البربر. وقد ذكر أن غايته هي «النظر في الإجتماع الإنساني» لا «سرد الحوادث والوقائع». وبهذا العنوان استحق أن يعتبر بحق مؤسسا لعلم الإجتماع الحديث.

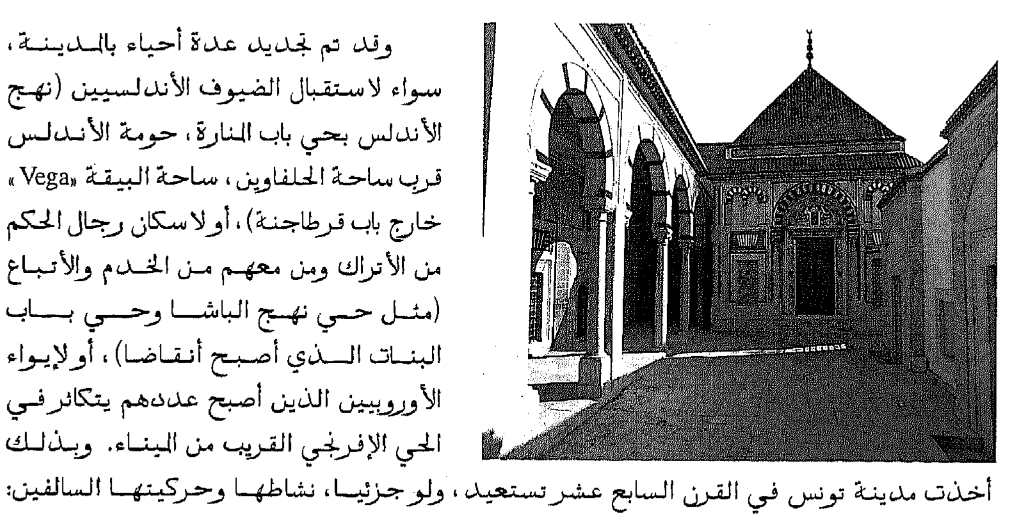
ولقد كان العهد الحفصي بدون منازع، الفترة الأكثر استرعاء للإنتباه والنظر -إن لم نقل الفترة الجوهرية- في تاريخ المدينة العتيقة. وهي فترة جوهرية لا فقط لأن المدينة قد بلغت أوج نموّها، قبل ظهور الأحياء الجديدة في نهاية القرن التاسع عشر، بل ولأنها قد جسمت أيضا بشكل ملموس المثل الأعلى الإجتماعي والحضري الخاص بالإسلام، فقد اكتملت في ذلك العهد الملامح الكبرى لشكلها كمدينة ولهياكلها المعمارية ولأسلوب سيرها، وهي عناصر حافظت عليها إلى حد ما حتى يومنا هذا.

إسبانيا الكاثولوكية تهددها، والأتراك يستولون عليها

تونس
الأسواق

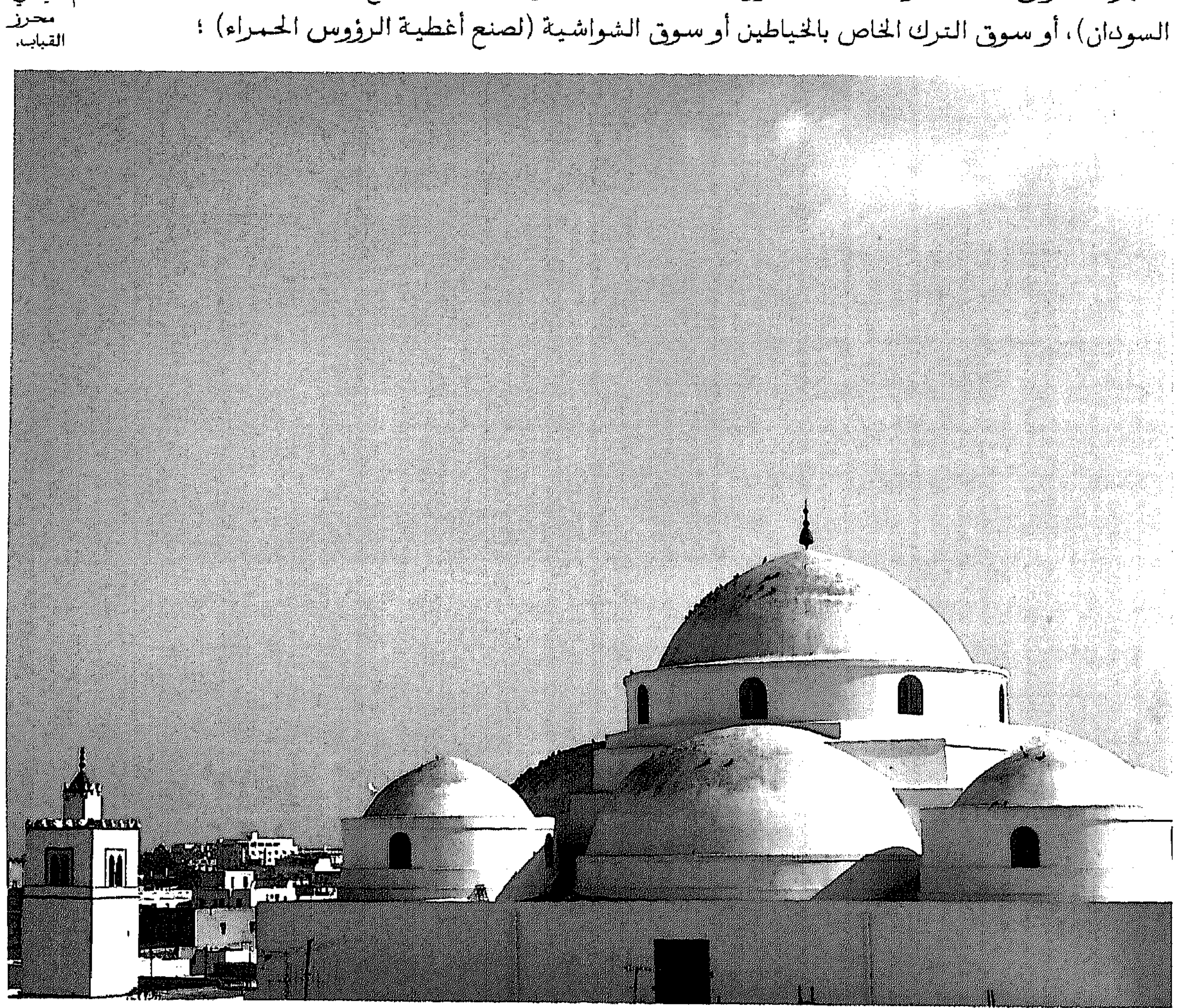


ومن سوء الحظ كانت نهاية حكم هذه الدولة العظيمة في شكل كارثة فقد عاث فيها فسادا جند خيرالدين باباعروج في سنة 1534. ثم أباحها للنهب (شارل كان) في سنة 1535، وأعاد عليها الكرة (فرديناند الثاني) بعد مرور أربعين سنة على ذلك. وعرفت في تلك الفترة أحلك أيام تاريخها. وأنقذها القائد التركي سنان باشا في سنة 1574. وقد احتاجت بعد ذلك إلى نصف قرن على الأقل لإعادة بناء أحيائها التي سواها المحتل الإسباني بالأرض تماما ولترميم معالمها، ومراجعة نظام التدريس بجامع الزيتونة، وإحياء صناعتها وتجارتها. فقد سخّر الباشوات والدايات الأولون الذين ولاهم عليها سلاطين اسطنبول كامل جهودهم للقيام بأعباء هذا العمل الشاق، مستعينين على ذلك بمجموعة من السكان المختلطين القادمين من كل صوب، من تونسيين عريقين، وعثمانيين حديثي العهد بنزول البلاد، وأندلسيين أطردهم (فيليب الثاني) في سنة 1609 واستقبلهم كل من عثمان داي ويوسف داي، بالإظافة إلى المرتدين عن دينهم لاعتناق الإسلام والقادمين في الأصل من جميع مناطق البحر المتوسط وأوروبا.

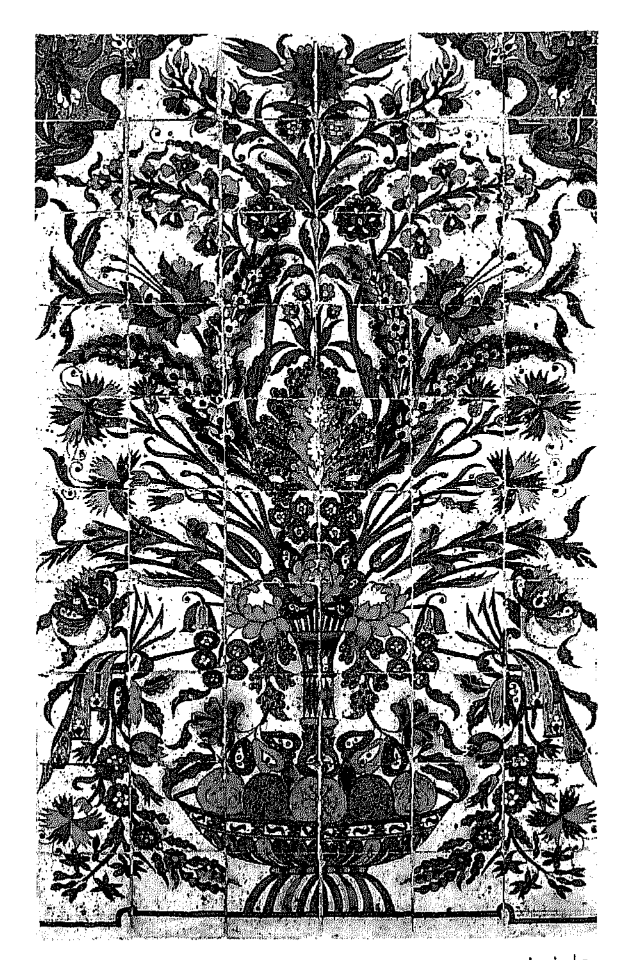


وقد تم تجديد عدة أحياء بالمدينة، سواء لاستقبال الضيوف الأندلسيين (نهج الأندلس بحي باب المنارة، حومة الأندلس قرب ساحة الحلفاوين، ساحة البيقة «Vega» خارج باب قرطاجنة)، أو لاسكان رجال الحكم من الأتراك ومن معهم من الخدم والأتباع (مثل حي نهج الباشا وحي باب البنات الذي أصبح أنقاضا)، أو لإيواء الأوروبيين الذين أصبح عددهم يتكاثر في الحي الإفرنجي القريب من الميناء. وبذلك أخذت مدينة تونس في القرن السابع عشر تستعيد، ولو جزئيا، نشاطها وحركيتها السالفين: فظهرت أسواق جديدة واسعة مثل سوق البشامقية أو سوق البركة (لبيع الرقيق من السودان)، أو سوق الترك الخاص بالخياطين أو سوق الشواشية (لصنع أغطية الرؤوس الحمراء)؛

تونس
جامع حمودة باشا.
من تحت
مقام سيدي محرز
القباب.



وأحدثت الجوامع : مثل جامع يوسف داي أو جامع حمودة باشا أو جامع محمد باي (المشهور بجامع سيدي محرز والذي يسترعي الإنتباه بقبابه التي تذكرنا بالجوامع العثمانية باسطنبول) ؛ وأقيمت القصور مثل دار الباي بالقصبة التي سوف يتولّى توسعتها فيما بعد الباي حمودة باشا، ودار عثمان، ودار الحدّاد (وهما حاليا بصدد الترميم)، وهناك ميضاة (توجد حاليا بحديقة البلفدير) كانت قائمة بجانب مقهى المرابط بسوق الترك، ومارستان (أي مستشفى) بنهج العزافين، وغير ذلك من المعالم العديدة : كبيوت الأضرحة مثل تربة المراديين (بنهج سيدي بن عروس) وعدد من المباني المعدة لخدمة المصلحة العامة كالاسبلة المعدة للشرب، والأحواض الخاصة بسقي الدواب والكتاتيب المهيأة لتعليم القرآن...



جليز من صنع القلالين القرن التاسع عشر

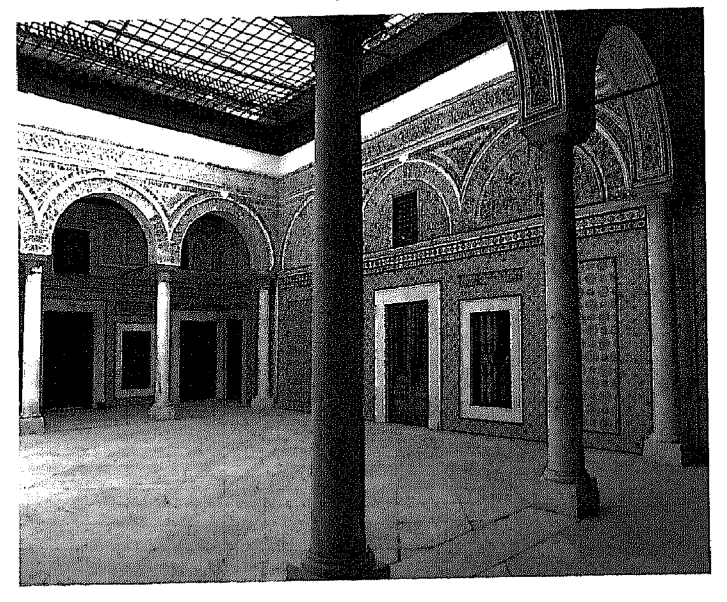
وبالرغم من زوبعة القرن السادس عشر وما أعقبها من إعادة بناء فقد حافظت تونس فيما يبدو في القرن السابع عشر على نظام المدينة القديم المتميّز بموقع الجامع والأسواق في المحور من المدينة، وبغلبة الطرق الكبرى المتجهة إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب والمتقاطعة في مستوى الأسواق، ووجود أسوار تحمي المدينة العتيقة المركزية وأخرى تحمي الأرباض، وتمييز وظيفي بين الفضاء والعالم الخاص، وبالتدرج في ترتيب المسالك... وبعبارة أوجز كل الخصائص التي يمكن تسجيلها اليوم انطلاقا من التحليل الخاص بتشكل النسيج المدني. فقد كانت الأزقة الضيقة آنذاك مثل اليوم تضمّ داخل أبوابها المزركشة بالمسامير البيوت الفخمة والمنازل البورجوازية والمساكن المتواضعة. وليس من علامة خارجية للتمييز بينها سوى الباب وبعض النوافذ، بل ان كل شيء في الداخل : من دهاليز وأروقة تتفاوت ثراء وعددا بحسب مرتبة صاحب البيت ودرجة غناه، ومن ساحة داخلية متكونة من فناء يحيط به اثنان أو ثلاثة أو أربعة من الأروقة ذات العماد، وغرف ذات «قبو ومقاصير» (وهي غرف على شكل حرف T اللاتيني، ذات إيوان في الوسط وحجرتين صغيرتين على الجانبين ومقصورتين في أقصى طرفي الغرفة)، وأرضية مبلطة بالرخام الأبيض أو بالكذّال، وأصنافا من الزليج تكسو أسافل الجدران ونقوش من الجصّ تزيّن أعاليها أو تغطّي سقوفها المعقودة أو المقببة في حال غياب السقوف الخشبيّة ذات الروافد الناتئة الفاصلة بينها الأغوار.. لا شيء يبدو قد تغيّر بالنسبة إلى العهد السابق. ومع ذلك فقد ظهرت جوانب جديدة في المناظر والزينة، من أشكال نباتية مثل شجر السرو، ومن صور أوان تفيض بالزهور جاءت لتعوّض أو لتلاصق الأشكال القديمة الهندسية أو المقتبسة من النباتات، ومن تيجان أعمدة حجرية ذات حلية معمارية على شكل حلزوني بدل تيجان الأعمدة المعروفة بـ «الحفصية» والتي استمر مع ذلك صنعها حتى القرن التاسع عشر.

البايات الحسينيون

وفي سنة 1710، وبينما كانت دولة البايات الحسينيين قد حلّت بعد محلّ البايات المراديين، توفيت الأميرة عزيزة عثمانة وهي امرأة شهيرة فاضلة لا يزال التونسيون يكنون لها المحبة والتقدير، ودفنت بتربتها الواقعة خلف مقام ضريح الولي الصالح سيدي بن عروس بالقرب من سوق البلاغجية. وقد تركت هذه المرأة -التي كانت بنتا لحفيد عثمان داي- كثيرا من المبرّات التي كرست لها ثروتها الضخمة. وطلبت في مقابل ذلك أن يوضع على قبرها باقة من الزهور كل يوم جمعة، وهو يوم الصلاة الجامعة.

رائد من رواد البناء والتعمير

وفي مطلع القرن الثامن عشر كانت مدينة تونس تنبعث من رميمها فيما يبدو، وتعود إليها الحياة رغم تلك الأزمة الحادة وذلك الصراع بين حسين بن علي التركي وصهره علي باشا. فأنشئ بنهج الصباغين الجامع الجديد الذي أضيفت إليه بعد بضع سنوات المدرسة الجديدة. وأقيمت مدارس أخرى أجمل منظرا وأكثر عددا من مدارس القرون السابقة، بنى معظمها علي باي قاهر حسين بن علي، أملا منه بدون شك، في التكفير عمّا فعله بعمّه الذي قطع عنقه أثناء آخر معركة دارت بينهما بالقرب من القيروان. وقد تمّ إثر ذلك جلب رأس المغلوب إلى مدينة تونس حيث تمّ دفنه بمقام الولي سيدي قاسم الصبابطي الملاصق للجامع الجديد. ومن تلك المدارس مدرسة النخلة، والمدرسة الباشيّة، والمدرسة السليمانية والمدرسة العاشورية ومدرسة بئر الأحجار، وغير ذلك مما هو كثير. وقيام كل هذه المدارس يشهد بنهضة لا جدال فيها سواء على الصعيد الإقتصادي أو في المجال الإجتماعي والفكري. وقد عادت تونس في القرن الثامن عشر إلى سالف عهدها كمدينة تجارية كبرى يهابها الأوروبيون، وتتميز بوفرة المواد الغذائية والبضائع النفيسة الفخمة الآتية من كل صوب، وأنها مسرحا لقيام ثروات طائلة بفضل التجارة الدولية والقرصنة. وقد كان الوزير يوسف صاحب الطابع واحدا من أصحاب تلك الثروات وإليه يرجع فضل بناء جامع ساحة الحلفاويين الرائع حوالي سنة 1800 وكذلك مجموعة «كلولية» التي جمعت حسب السنة العثمانية بين السوق الجديد والقصر والمدرسة والتربة و«سبالة» السقاية. وإلى نفس الفترة التاريخية (أي أوائل القرن التاسع عشر) يعود أيضا ترميم الأسوار الخارجية للمدينة على يد الباي حمودة باشا الشهير بإقباله على البناء والتعمير الذي استعان على هذا العمل الدقيق بالمهندس



تونس
دار الاصرم

الهولندي هومبرغ. وقد أمر حمودة باشا كذلك ببناء عدد كبير من الثكنات بقلب المدينة القديمة مثل ثكنة سوق العطارين (وهي الآن فرع للمكتبة)، وثكنة نهج جامع الزيتونة (وهي الآن فرع للمكتبة)، وثكنة المستشفى الصادقي... وأذن في نفس الوقت بتشييد قصور جديدة أو توسيع قصور قديمة مثل دار الباي بالقصبة ودار حسين بساحة القصر وقصر الوردة الجديد بمنوبة (وهو متحف الجيش حاليا). وإلى هذه الفترة أيضا يرجع بناء مقام العالم الصالح سيدي إبراهيم الرياحي بالنهج الذي يحمل نفس الإسم قرب دار الأصرم (مقر جمعية صيانة المدينة) التي بنتها أسرة الأصرم وهم من رجال بلاط البايات ومن كبار أصحاب الأراضي. أما دار بن عبدالله التي تأوي حاليا متحف الفنون والتقاليد الشعبية بالقرب من نهج الصباغين، فإنها تحفة انموذجية من المعمار الحسيني الجميل الذي يدلّ على درجة من إرادة القوة لا تتناسب في الغالب مع الموارد الحقيقية لأصحاب الثروات. وأحسن مثال على ذلك هو بدون شك القصر الذي أقامه أحمد باي في أواسط القرن التاسع عشر في عمق الريف على طريق زغوان. وكان مؤسس هذا القصر يطمح إلى رؤية قصره يتجاوز بجماله قصر باردو (الذي بني في سنة 1400 ثم تمّ توسيعه وتجميله مرارا عديدة على يد الملوك الذي تعاقبوا على حكم تونس. وهو مقسم اليوم بين متحف باردو ومجلس النواب)، بل وينافس من حيث العظمة والتألق قصر فرساي الفرنسي الذي كان قد فتن فيما يبدو حاكم تونس وملك إعجابه.

وعندما توفي أحمد باي في سنة 1855 اختار خلفه محمد باي أن يقيم بقصر آخر بضاحية المرسى تاركا قصر المحمدية للإهمال والخراب. وإن خراب المحمدية يفاجئك اليوم بطابعه العملاقي، وهو يصوّر ذكرى حلم سرعان ما تلاشى بمجرد ظهوره بعد أن تردد زمنا في خاطر باي حليم الطبع وهو أحمد باي (1837-1855). وفي أواسط القرن التاسع عشر وخصوصا منذ سنة 1830 تاريخ احتلال فرنسا للجزائر أصبحت ممارسة القرصنة بالبحر المتوسط أصعب فأصعب، كما باتت تدخلات الدول الأوروبية في الشؤون الداخلية للإيالة أكثر جرأة ووقاحة مع مرور الأيام. وارتكز أمام باب البحر قبل فرض الحماية الفرنسية في سنة 1881، حي جديد يسكنه الأوروبيون القادمون من كل مكان من مالطيين وإيطاليين ويونان وفرنسيين وغيرهم... وأقيم بهذا الحي في عام 1861 مقرّ فخم لقنصل فرنسا بدلا عن المحلات القديمة لفندق الفرنسيس الواقع بالحي الإفرنجي حيث اعتاد قناصل الدول الأوروبية منذ القرون الوسطى بناء مساكنهم المردفة بمحل يسمى بالفندق لإيواء الأشخاص والدواب والسلع.

عالم جديد ومدينة مهملة

لم يكن إحداث مدينة جديدة خاصة بالإستعمار بجانب المدينة القديمة، دون إلحاق أفدح الأضرار بهذه المدينة القديمة. وكذلك كان الشأن بخصوص مزاحمة المواد الأوروبية المصنوعة وسقوط التجارة الخارجية بأيدي الجالية الأجنبية. وبعد حرمان البورجوازية الحضرية والأرستقراطية والسياسية والعسكرية من موارد الدولة ومن المداخيل التجارية في آن واحد، فقد أصبح هؤلاء الناس غير قادرين -إلاّ في بعض الحالات النادرة- على صيانة بيوتهم الجملية، ومن باب أولى وأحرى على بناء بيوت جديدة من نفس الطراز الرفيع. ولم يقدر العلماء والشيوخ المدرسون بجامع الزيتونة، هم أيضا على الوقوف طويلا في وجه التأثير البيداغوجي والعلمي

للتعليم العصري الذي كان يزاول سواء في نطاق المعاهد الفرنسية أو بالمدرسة الصادقية التي أسسها منذ سنة 1875 الوزير المصلح الجنرال خيرالدين. وبذلك كان فجر القرن العشرين يشهد دخول جامعة الزيتونة، ومن ورائها كامل المجتمع التونسي في غمار أزمة عميقة. وسوف تكون المعركة بين أنصار القديم ورواد الحداثة طويلة ومحملة بالعواقب البعيدة. من ذلك أن النخب سوف تفضّل تكوينها وتربيتها بالمدارس الفرنسية أو الفرنسية العربية. وسوف تجسّم المدينة القديمة هذه الأزمة المتعلقة بالأصالة في صميم الحجارة، على غرار المجتمع الذي يسكنها. ذلك أن أكثر السكان حظوة سوف يتخلون عنها أو يكادوا يهجرونها تماما، بعد أن جلبهم واستهواهم انموذج السكن الأوروبي داخل الشقق أو بالفيلات. فتتحول هذه المدينة في ظرف نصف قرن إلى ملجأ خاص بأكثر الناس عوزا، وبأبناء الريف النازحين إلى المدينة بحثا عن العمل.

ملجأ لسكان الأرياف

أصبحت المدينة القديمة موقعا لاستقبال أقل السكان دخلا وموارد، كما أصبحت أيضا مركزا اقتصاديا شعبيا مفرط الحجم. وتسللت ورشات الصنائع ومحلات تعاطي التجارة حتى داخل النوى السكنية مما يزيد في حدة تدهور نوعية الحياة. وعمدت السلطات الإستعمارية إلى اعتبار أحياء كاملة -مثل منطقة الحفصية التي كانت من قبل حيّا مزدهرا لليهود- مناطق غير صحية وحكموا عليها بالتهديم.

تونس
جامع الزيتونة
المعمور
بيت الصلاة



وظهرت مشاريع لإحداث فتحات تخترق المدينة العتيقة التي كانت تقدّم في شكل عقبة قائمة في وجه حركة النقل بل وفي وجه النموّ والرقي. وكان من اللازم إذن إدماجها في صلب «محيطها» وهو في نظرهم المدينة الإستعمارية المزدهرة والمتبخترة في خيلاء الإنتصار. وكان من الضروري إذن أن يخضع النظام القديم للنظام الجديد. وهكذا تم تصميم العمارات الجديدة ذات الطوابق الأربعة قصد «السكنى بثمن زهيد» بحي الحفصية، وأقيمت هذه العمارات ضمن شبكة من الشوارع المتقاطعة بشكل تعامدي والمعدة بالخصوص لمرور العربات.

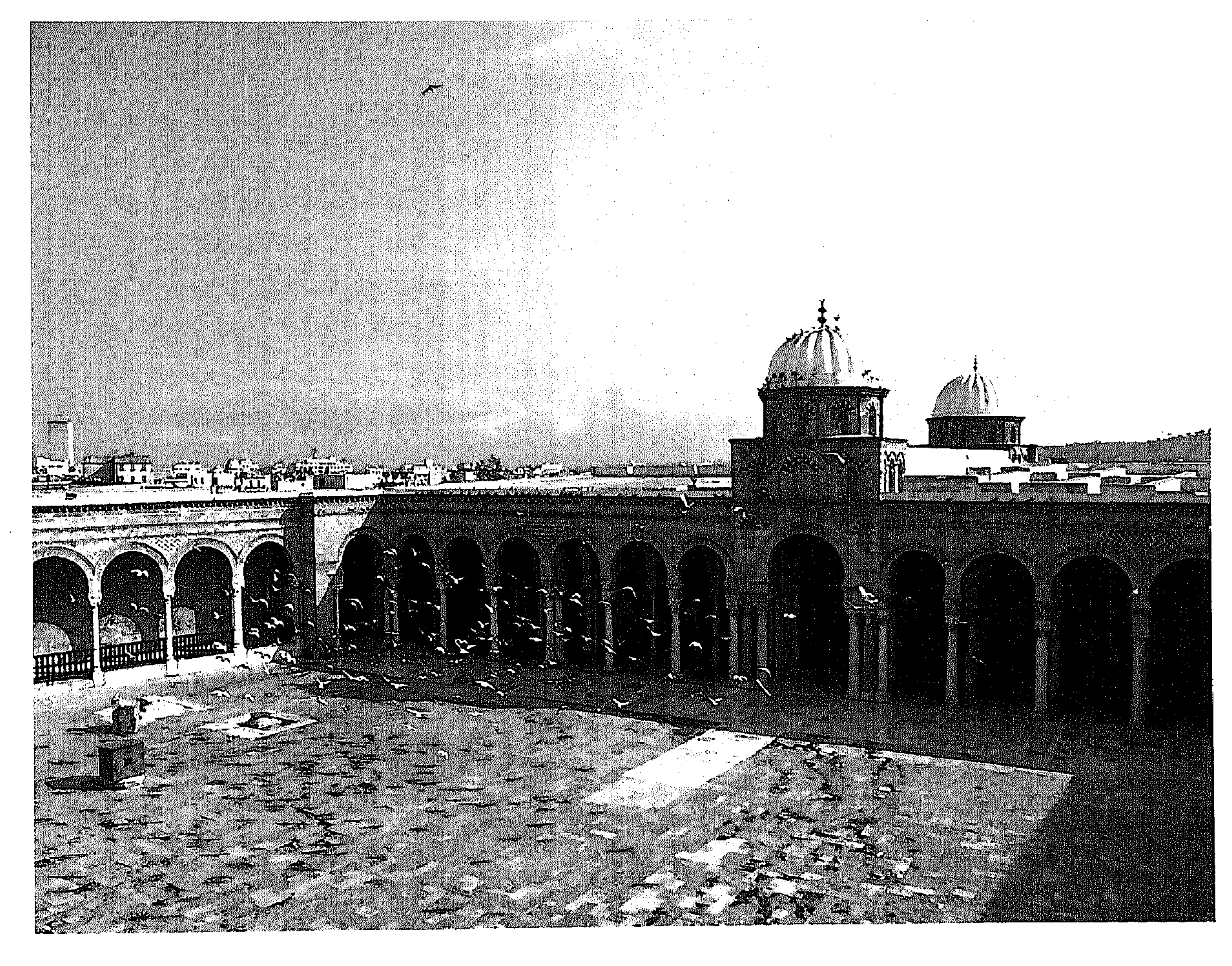
أثر حيّ ووعاء ثمين لحضارة

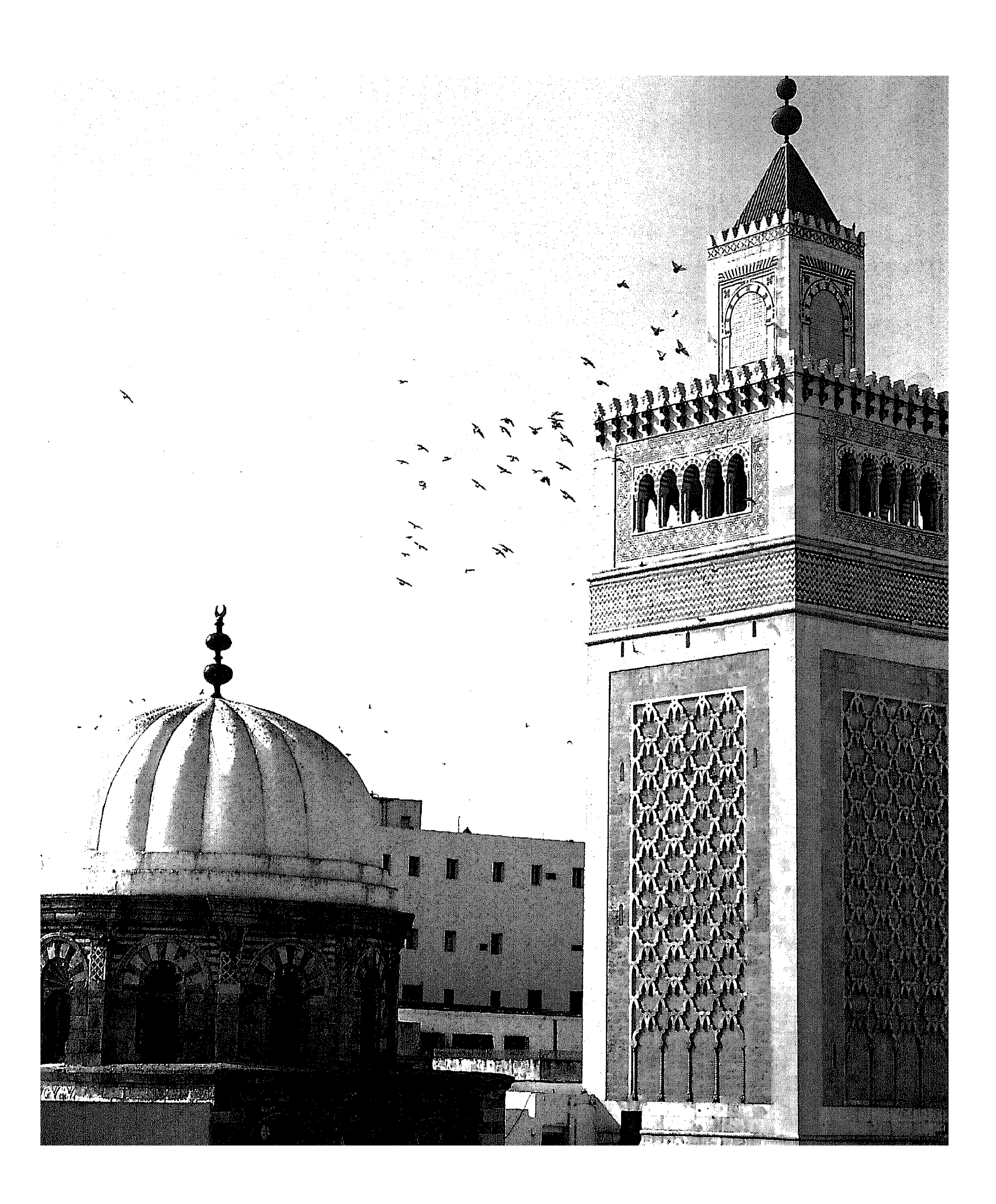
وقد تغيّر اليوم مفهوم الإندماج تغيّرا كبيرا. وهو يدعو إلى الحفاظ على النظام القديم دون رفض لمبدإ تعصير التجهيزات

أو تجديد السكن تجديدا كاملا إذا تحتّم ذلك. لكن ينبغي لهذا التجديد أو الإصلاح أن لا يفقد المجموع تناسقه ولا انسجامه ولا طابعه المعماري المميّز ولا وظائفه الغالبة. فتنمية السياحة مثلا عن طريق استغلال منظم وذكي للمعالم الموجودة والمعاد توظيفها لأغراض ثقافية أو ترفيهية، يمكن أن تكون حلا يوفّق -إذا ما أحسن استعماله- بين مستوجبات الحفاظ على التراث ومتطلبات التنمية. فهناك ستمائة معلم تاريخي -عبر العديد منها قرونا قبل أن يصل إلينا- يمكنها أن تتلاءم بشكل جيد ورائع، كلّ منها في نوعه وحسب ما يناسبه، مع ما يفرضه الظرف الحاضر من عملية التحوّل التكيّفي مع الحياة المعاصرة.

فالمساجد سوف تستمرّ بطبيعة الحال في أداء مهمتها الدينية كأماكن عبادة في مجتمع شديد التمسك بمعتقداته. لكنه يمكنها أيضا أن تكون محل زيارات تتيح الفرصة، لمن يستهويهم التاريخ والفنّ، للإطلاع على هذه الكنوز من الفنّ الإسلامي ومشاهدة جمالها الرائع. وجامع الزيتونة لا يزال محافظا تماما على معماره الذي يعود إلى القرن التاسع الميلادي، وهو أحد أشهر المعالم بشمال إفريقيا وأعظمها قدرا. وقد أسسه حسان بن النعمان (حوالي سنة 703م) وبناه في المرة الأولى والي إفريقية عبدالله بن الحبحاب في سنة 732م ثم أعيد بناؤه في سنة 864م بأمر

تونس
جامع الزيتونة المعمور
الصحن وقباب بيت الصلاة





من الخليفة العباسي ببغداد. وقد ظلّ هذا الجامع إلى القرن التاسع عشر الجامعة العلمية الكبرى بالمغرب العربي مثلما كانت جامعة القرويين بفاس أو الجامع الأزهر بالقاهرة. وتقابل جامع الزيتونة بسوق العطارين الميضاة الفخمة التي عني السلطان الحفصي أبو عمرو عثمان عناية كبرى بتزويقها وكساء أرضها وجدرانها بالرخام الأسود. وفي نفس مربع الأسواق بقلب المدينة يمكن أن نرى أيضا أولى «مدرسة» أقيمت بشمال إفريقيا (في القرن الثالث عشر للميلاد) وهي المدرسة الشماعية التي تحولت إلى مركز للتدريب على الصناعات التقليدية، على غرار المدرسة المرادية (القرن السابع عشر للميلاد) الواقعة بسوق النساء. وغير بعيد عنها وبسوق القشاشين توجد مدرسة النخلة التي يدرّس فيها اليوم تجويد القرآن، والمدرسة السليمانية مقرّ الجمعيات الطبية، والمدرسة الباشية المعدّة لتكون مركز التكوين المهني، والتربة الباشية التي سوف تكون مقرا لقدماء تلميذات المعهد الثانوي بنهج الباشا. أما المدرسة العاشورية الواقعة بنهج حوانت عاشور قرب دار الأصرم فقد تحولت إلى دار للجمعيات الثقافية. وفي نفس هذا الحي يوجد المجمّع السكني العصري بالحفصية الذي أجريت فيه عملية تجديد وإصلاح داخل المدينة أحرزت بفضلها جمعية صيانة المدينة في سنة 1983 على جائزة آغاخان للهندسة المعمارية.

وفي الجانب الجنوبي من المدينة القديمة يمكن تكملة زيارة متحف الفنون والتقاليد الشعبية (دار بن عبد اللّه)، بزيارة دار عثمان حيث سوف يتم تركيز متحف الصناعات التقليدية، والإطلاع كذلك على تربة الباي، التي دفن بها انطلاقا من سنة 1775 أفراد الأسرة الحسينية وبعض رجال دولتهم المقربين إليهم. أما في جهة باب سويقة فإن أشغال تهيئة الساحة لا تزال جارية. على أنه يمكننا أن نشاهد من الآن المجموعة المعمارية العصرية الجميلة التي تسعى إلى إبراز أحجام قباب سيدي محرز المهيبة (القرن السابع عشر) ومركّب الحلفاوين الذي أقامه الوزير الأكبر يوسف صاحب الطابع (في القرن التاسع عشر) والذي جرى تسجيله بصورة كاملة. وبعد ذلك بمسافة وفي أقصى الربض الشمالي يمكن أن نشاهد ما تبقّى من الأسوار التي قد كان أعيد بناؤها في أوائل القرن التاسع عشر: باب الخضراء وباب العسل والأبراج ثم باب سعدون الذي تمّ ترميم بنائه منذ ما يقرب من القرن. وقد أحرزت مدينة تونس في عام 1985 بفضل كل هذه العمليات المتعددة والشاملة، على جائزة منظمة المدن العربية لصيانة التراث المعماري.

هذا وان التجربة الجارية في نطاق مدينة تونس القديمة جديرة بالتعريف والإطلاع من عدة أوجه. وبسعيه إلى صيانة التراث فإن هذا العمل يقتحم في الحقيقة عالما هشّا ونفيسا يمتزج فيه الإنسان بالطبيعة والرسالة الروحية والعناصر المادية للثقافة إلى أعمق حدّ. وإن إنقاذ هذه الحواضر الحية المشبعة بالثقافة والمشحونة بالتاريخ، وإدماجها ضمن عالم آلي ومتطوّر يخترق غمار تحوّل تكنولوجي عميق، ليس بالعمل الهيّن. لكننا قد أعلنّا عن انطلاقنا في السعي لكسب هذا التحدي سواء بتونس أو بفاس أو بالجزائر أو بغيرها من عديد المدن بالمغرب العربي. والمستقبل هو الكفيل بإعلامنا هل أن المقاربة التونسية قد تميزت بما يكفي من المرونة والنجاعة، ومن السرعة والإعتدال ومن السداد والعمق، ومن التفتح على المستقبل والوفاء للماضي. /.

سوسة

رشيد غريب

«سوسة مدينة بين الجزيرة والمهدية، طيبة، رفهة خصبة على نحر البحر، ولها سور حصين وماؤها معين، وبها مواجل قليلة وأعمال صالحة نبيلة، وأهلها موقورون عقولهم وافرة ومعاملتهم حسنة والغالب عليهم السلامة، ولها أسواق حسنة وفنادق وحمامات طيبة، وهي من القيروان على مرحلة وكانت لها ضياع جمة ووجوه من الجبايات غزيرة وغلات واسعة ورباطات كثيرة.»

ابن حوقل

سوسة مدينة ضاربة في التاريخ، حازت على مكانة مميزة في عصورها التاريخية، اكتسبت تاريخا حافلا بالأحداث والمواقف الخالدة، فهي نموذج لمدينة الماضي والحاضر.

إن مدينة سوسة تعدّ من المدن المتميزة لاحتفاظها بأكبر عدد من المعالم التاريخية التي لا زالت قائمة والتي تحظى بالعناية والرعاية فهذه المعالم التاريخية تكشف عن العمق الحضاري للمنطقة وعن تشابك العلاقات الحضارية بها، وترجع بالمدينة إلى عمق التاريخ من القديم إلى الحديث وتكشف الحركة الإنسانية نحو المعرفة ونحو الحضارة، فمن أجل هذا سجلت مدينة سوسة ضمن قائمة التراث العالمي، والتراث في المفهوم الحديث أصبح تراثا للإنسانية.

تقع مدينة سوسة على الساحل الشرقي الأوسط على بعد 140 كلم جنوب مدينة تونس، ذات مناخ معتدل شبه قاري، تتميز منذ القديم بغابات الزيتون وبالأراضي الزراعية التي تحيط بها، كما تتميز بالصناعات التقليدية والصيد البحري.

ويمتد تاريخ سوسة من الناحية الزمنية على حوالي ثلاثة آلاف سنة، حين جاءت السفن الفنيقية من شرقي البحر الأبيض المتوسط ورست على مقربة من الشواطئ الغربية منه. وأنشئت محطات ساحلية، وكانت محطة سوسة التي أخذت فيما بعد اسم هدروماتوم «HADRUMETUM» من أهم المحطات التي أنشئت على الساحل الأوسط وكان ذلك في حوالي أوائل القرن الحادي عشر قبل الميلاد.

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت هذه المحطة مركزا هاما يتوافد عليها الفينيقيون ومن بعدهم الرومان بأعداد كبيرة قصد ترويج سلعهم وتنمية تجارتهم. وأصبحت سوسة دائرة ومحطة تخرج من أطرافها التجارة إلى كلّ سواحل البحر الأبيض المتوسط.

وانتصبت على ساحلها كل خيرات العالم شرقه وغربه ليتمّ بينها التبادل التجاري الذي ساهم بتطور الحضارات القديمة وازدهارها.

سوسة إذن بدورها البحري عبر التاريخ القديم أكملت الدور الذي قامت به منطقة الساحل حضاريا وتاريخيا.

الفتح الإسلامي

عند الفتح الإسلامي لإفريقية تولى عبد الله بن الزبير فتح مدينة سوسة، وتمّ له النصر بعد معارك ضارية ضدّ البيزنطيين بقيادة البطريق نقفور وكان ذلك سنة 667م.

وفي سنة 800 م تولى الأغالبة حكم البلاد وجعلوا مركزهم القيروان وأصبحت سوسة ميناءها الحربي، كما واكب قيام الدولة الأغلبية حركة عمرانية واسعة النطاق، وتعربت مدينة سوسة. وشرع في تعميرها كما هي العادة في بناء المدن الجديدة، وازدهرت المدينة وامتدت في اتجاه الجنوب الشرقي، وتنافس الحكام والأمراء في بناء المساجد والمدارس والأسوار والرباط، والواقع أن ما نشاهده في سوسة من المعالم التاريخية الرائعة في جميع أحيائها داخل الأسوار والتي ترجع إلى عصور مختلفة هو مشاهد حق على ما اتسمت به المدينة من الإزدهار المعماري الرائع كما يشهد بذلك الرحالة العرب وغيرهم بذكر أخبارها وأوصافها.

إسهامات سوسة الحضارية

اهتمّ أمراء بني الأغلب، زيادة الله وأبو عقال وإبراهيم أحمد، بتعمير مدينة سوسة فشيّد قصر الرباط سنة 821م ومسجد بوفتاته سنة 837م والجامع الكبير سنة 851م ومنار خلف الفتى سنة 844م وأسوار المدينة سنة 859م ودار الصناعة التي أنشئت بجانب الميناء.

واحتفظت هذه المدينة بكافة جوانب النشاط التجاري والبحري وصارت لها السيادة البحرية في المنطقة، ومن مينائها انطلق الفاتحون في فترات مختلفة لفتح الجزر الواقعة على شعاع مدينة سوسة مثل قوسرة ومالطة وسرقوصة وصقلية. ثم انقطع المسلمون عن غزو تلك المدن لاهتمامهم بإخماد الثورات الداخلية، فتجرأت عندها سفن الروم على مهاجمة السواحل الإفريقية، فأسس هرثمة بن الأعين رباط المنستير ثم أسّس الأغالبة رباط سوسة وكذلك تمّ تحصين المدينة بسور لحماية هذه المنطقة، وواصل الروم مهاجمة هذه السواحل في أيام إبراهيم ابن الأغلب إلى أن اتفق البطريق جريجوري مع الأمير الأغلبي سنة 813 على هدنة لمدة عشر سنوات، غير أن هذه المعاهدة نكثت بعد أربع سنوات وتجددت الهجمات والغارات على المنطقة مما دعى إلى ضرورة الإستعداد لغزو صقلية. فظهرت طبقة من علماء المالكية المتفقهين الذين كان لهم أعظم الأثر في غلبة الروح الدينية والإتجاه إلى الزهد والرغبة في المرابطة بالثغور بقصد الجهاد في سبيل الله، فتواصل بناء الرباطات والقصور على السواحل الإفريقية وركزت هذه المعالم خاصة في منطقة سوسة وضواحيها. ويذكر ابن خلدون أنه بهذه البلاد عدد كبير من الرباطات. ويقول البكري : «وخارج مدينة سوسة محارس وروابط

ومجامع للصالحين وبداخلها محرس عظيم كالمدينة مسوّر بسور متقن يعرف بمحرس الرباط هو مأوى للأخيار الصالحين داخله حصن ثاني يسمى القصبة وهو بجوفي المدينة». ويمكن ذكر البعض منها: رباط لمطة، رباط هرثمة، رباط سيدي ذويب، رباط السيدة، قصر ابن جعد، رباط سوسة، قصر الطوب، قصر سهل. وساعدت الأربطة على تكوين طبقة من الصالحين والعلماء الذين كرّسوا حياتهم للجهاد ضدّ الروم، والمرابطة والتعبد في فترات السلم، وكان الخروج لغزو الروم في صقلية غاية هؤلاء الصالحين، ولكي يعبر روح الجهاد المسيطرة على الفاتحين. ولى زيادة الله قيادة الأسطول إلى القاضي أسد بن الفرات، ويذكر المؤرخون أنه في سنة 827م أقلع الأسطول نحو صقلية وتمّ فتحها بعد معارك ضارية، كما تمّ فتح الجزر والمدن القريبة من صقلية مثل ميقش ومسية وطرمية وساحل إيطاليا الجنوبي الغربي وجنوة واستقر العرب حتى سنة 1089م.

وتوافد على صقلية في فترات مختلفة عدد كبير من العلماء ونخبة من أرباب الصناع من كلّ فنّ ونقلوا اليها الأساليب الفنية التي عرفوها في سوسة أو في غيرها، وظهرت آثار ذلك في العمارة وفي الفنون الصغرى (نسيج، خزف، عاج وزخارف) فنجد آثار التقاليد الإسلامية في معظم مظاهر الحياة العمرانية ولا زالت تحتفظ بتراث هائل من هذه العمارة الإسلامية في قصر العزيزة وقصر الفوارة وصان جيوفاني. فقد ترك الفنّ الإسلامي بصمات واضحة في هذه العمائر، وكانت هذه مساهمة هامة في نقل الحضارة العربية إلى الحضارة الإنسانية.

سوسة
الرباط



معالم سوسة التاريخية

تعتبر مدينة سوسة بحكم كونها عاصمة الساحل في العصر الإسلامي أغنى مدينة على الإطلاق بالآثار الإسلامية فقد اعتنى الأمراء الأغالبة ومن بعدهم الصنهاجيين ثم الحفصيين والحسينيين بتشييد العديد من المساجد والمدارس كما اعتنوا بإقامة الرباط والأسوار والقصبة والاسبلة والأسواق والحمامات.

الرباط

ويعرف أيضا بقصر الرباط وقد وصلت إلينا عمارته في حالة جيدة وهو من بناء الأمير زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب الذي أسسه سنة 821م وتاريخ الإنشاء مسجل على لوحة رخامية بأعلى مدخل المنارة، والرباط ذو تخطيط مربع الشكل بكلّ ركن من أركانه برج مستدير المقطع ما عدا الركن الجنوبي الشرقي فهو مربع المقطع وتعلوه المنارة الأسطوانية الشكل، وبين كل برجين برج نصف اسطواني.

ومدخل الرباط بارز يتوسط الواجهة الجنوبية، يؤدي إلى ممرّ ومنه إلى صحن مكشوف تحيط به غرف لإقامة المرابطين. وفي الطابق العلوي يوجد مسجد لإقامة الصلاة كما توجد غرف أخرى. ومن هذا الرباط خرج القاضي القائد أسد بن الفرات على رأس جيش لفتح صقلية وتمّ له ذلك سنة 827م.

مسجد بوفتاته

أسسه الأمير أبو عقال الأغلب بن ابراهيم الاول سنة 838م وهو من أعمال البناء فتاتة مولى الأمير أبي عقال. يتألف المسجد من بيت صلاة مربعة الشكل وتتكون من ثلاثة أروقة مغطاة بأقباء محمولة على بوائك مربعة المقطع، ويتقدم بيت الصلاة رواق. وقد ظهر هذا الرواق الخارجي لاول مرة في عمارة المساجد ومنه انتشر في العالم الإسلامي. ويحيط بأعلى الجدار الخارجي للصحن شريط كتابي بالخط الكوفي به آيات قرآنية واسم مؤسسه.

الجامع الكبير

عندما تزايد عدد السكان اتسعت رقعة المدينة، فأمر الأمير الأغلبي أبو

سوسة
الجامع الأعظم
جانب من الصحن
وجزأ من الكتابة
الكوفية



العباس محمد بتأسيس مسجد قرب الرباط وكان ذلك سنة 851م. فهو مستطيل الشكل ويتألف من بيت للصلاة وصحن تحيط به أروقة من الجهات الغربية والشمالية والشرقية وعلى أعلى جدران الصحن شريط كتابي بالخط الكوفي به آيات قرآنية وتاريخ إنشائه، وقد عرف هذا المسجد عدّة تحويرات وإضافات حصلت عليه في فترات مختلفة وخاصة في الفترة الصنهاجية.

السـور

يحيط بالمدينة العتيقة سور يبلغ ارتفاعه ما بين 7 و 8 أمتار قد يكون من أعمال زيادة الله الأول سنة 819م. ولما تولى الإمارة أحمد بن الأغلب جدّد هذا السور وقد سجل تاريخ تجديده بشريط



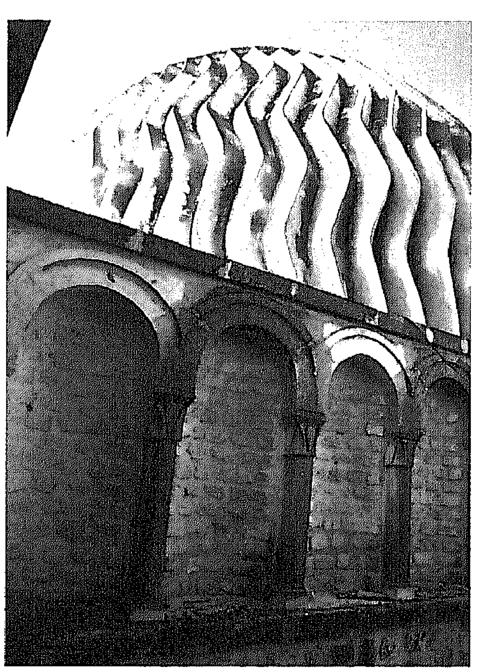
سوسة
الأسوار
وبرج خلف

كتابي بالخط الكوفي يقع على الجدار الجنوبي من الداخل تقرأ عليه العبارة التالية : «وكان تجديد لسورها سنة سبع وأربعين ومائتين» (859م)، ويمكن الدخول إلى المدينة عبر ثمانية أبواب لا زالت قائمة إلى يومنا هذا ما عدا باب البحر الذي هدم أثناء الحرب العالمية الثانية وبين هذه الأبواب توجد أبراج مربعة أو مستديرة أو مثمنة وهي مأوى للمجاهدين لحراسة المدينة.

منارة خلف الفتى

تقع في جنوب السور، أقيمت على ربوة، وهي من أعلى تلوح كأنها تحتضن المدينة وتحرسها، أسسها الأمير الأغلبي أبو عقال الأغلبي سنة 844م، وأتمّ بناءها ابنه أبو العباس، وهي عبارة عن مدينة

صغيرة يحيط بها سور وتتكون من ثلاثة أقسام : قسم خاص لإقامة السلطان أو الوالي، وقسم إداري وقسم للجيش. ولا زلت الأقسام قائمة تعبّر عن العظمة المعمارية، وقد استغلّ جانب كبير منها كمتحف للفنون الكلاسيكية.



سوسة
قبة بين القهاوي

السفـرة

تقع في وسط المدينة العتيقة جددها إبراهيم الثاني وهي عبارة على ماجل كبير تحت مستوى الأرض مستطيل الشكل سقفه محمول على أقواس ضخمة تستعمل لخزن ماء المطر لتموين المدينة بالماء الصالح للشراب.

قبة بين القهـاوي

ترجع هذه القبة إلى العهد الصنهاجي، شيّدت بمهارة فنيّة وعناية فائقتين، فالقبة شيّدت من الخارج بعنصر معماري بديع تتمثل في خطوط بارزة ومتقطعة أضفى عليها المعماري حركة ممتازة، ويلعب الظل دورا كبيرا في إبراز جمال هذه القبة. أما الواجهة فهي غنية بالعناصر المعمارية والزخرفة الرائعة من أقواس تعلو المدخل ومحاريب عمياء على الواجهة.

مدرسة الزقـاق

تقع هذه المدرسة قرب الجامع الكبير وتنسب إلى أحد كبار علماء سوسة وهو أبو جعفر أحمد الزقاق. وتتكون هذه المدرسة من عدة غرف لإيواء طلبة العلم وعلى بيت للصلاة وعلى قاعة كبيرة مربعة الشكل مغطاة بقبة وهي متأخرة بالنسبة لبقية المعلم وعلى مئذنة مثمنة المقطع. وتاريخ هذا المبنى قد يرجع إلى الفترة الصنهاجية. أما المئذنة فهي ترجع إلى الفترة الحسينية نظرا لعمارتها المتميّزة عن بقية المآذن المجاورة.

وبالمدينة معالم تاريخية أخرى لا زالت قائمة وهي شاهد حي على حضارة عظيمة، وقد أحصى فريق الخريطة القومية ما يزيد عن 80 معلما تاريخيا.

الأعـــلام

شهدت مدينة سوسة نهضة ثقافية واسعة النطاق لا تقلّ بحال عما كانت تتمتع به عواصم العالم الإسلامي من تقدّم وازدهار، وقد ساعدها على ذلك أنها كانت عاصمة الساحل والمدينة الحربية للقيروان، وكانت من جانب آخر طريقا سهلا ميسورا نحو المشرق والمغرب، فعرفها على إثر ذلك العديد من العلماء والفقهاء وقد اتخذها البعض منهم مقرّا لهم حتى وفاتهم فأنشئ بها تبعا لذلك العديد من المدارس والمساجد التي تعتني بتدريس الفقه والعلوم وما إلى ذلك. وقد توافد على المدينة عدد كبير من طلاب العلم والمعرفة. ومن الفقهاء الذين ذاع صيتهم في أوائل القرن التاسع ميلادي يحي بن عمر بن يوسف بن عامر الكناني وكنيته أبو زكرياء ولد بقرطبة سنة 828م، وتتلمذ



سوسة
الأسوار

على أيدي علمائها ثم تحول إلى مكة لأداء مناسك الحج واتجه بعد ذلك إلى مصر وتلقى العلم بها ثم تحول إلى القيروان لملاقاة الإمام سحنون ومنها استقرّ بسوسة والتحقت به أسرته، وتخرّج على يده عدد كبير من الطلبة. فيقول ابن الحارث الخشني : «كان يحي مقدما في الحفظ، وسكن مدة القيروان فشرفت بها منزلة عند العامة والخاصة وجل الناس إليه، فكانوا لا يرون المدوّنة والموطأ إلا عنه». وقال تلميذه عبد الله الابياني : «ما رأيت مثل يحي في علمه وورعه، كان حريصا على أهل العلم يحرص طالبه ويشرفه والوصف يقصر والله عن يحي وفضله، وما يجهل أمره إلا الجاهل». وليحي عدة مؤلفات. فيقول عنه ابن الجزار في تاريخه : «له من المصنفات نحو الأربعين جزءا». نذكر منها كتاب «الرد الشافعي» وكتاب «الميزان» وكتاب «الرواية» وكتاب «الوسوسة» وكتاب «أحكام السوق» وكتاب «الرد على الشكوكية» وكتاب «أحمية الحصون». توفي بسوسة سنة 902 م ودفن بها.

ابن رزين: هو أبو عبد الله محمد بن رزين من محدثي إفريقية وكبارهم. زامن يحي بن عمر وهو من مواليد سوسة، تعلم بالقيروان ومنها قصد الحجاز وعند عودته أقام بمصر وأخذ عن علمائها ثم عاد إلى سوسة وأصبح من كبار علمائها وتتلمذ عليه العديد من الطلبة وذاع صيته عند أهل المغرب وتوفي بسوسة سنة 895م.

القبرياني: هو سهل بن عبد الله بن سهل من مواليد القيروان سنة 824م تتلمذ على يدي الإمام سحنون وكان يلازمه كثيرا وخرجا معا للمرابطة في قصر الطوب إلى أن شيد من ماله الخاص قصر اشتهر باسم «قصر سهل» ورابط به إلى أن توفي سنة 895م.

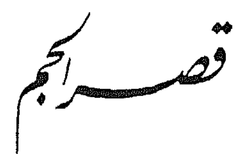
أبو الأحوص: هو أحمد بن عبد الله ويكنى بأبي الأحوص. وهو أصيل المغرب الأقصى. انتقل إلى القيروان ولازم الإمام سحنون وأخذ عنه. ثم تحوّل إلى سوسة وأقام بها مرابطا، وتعلّم عليه الكثير من طلاب العلم وبقي يدرس الحديث والفقه بالجامع الكبير. وكان الأمير إبراهيم الثاني يتردد عليه ويتعظ بنصائحه وكانت وفاته بسوسة سنة 897م.

ابن بطام: هو محمّد بن بطام بن رجا الصبي من مواليد البصرة انتقل إلى مصر وتتلمذ على علمائها ثم تحوّل إلى القيروان وأحضر معه كتبا كثيرة لكبار المالكية بالمشرق ودرس بجامع القيروان ثم انتقل إلى سوسة واستقرّ بها وتتلمذ على يديه العديد من الطلبة، كما ألّف العديد من الكتب، وكانت وفاته بسوسة سنة 925م.

وهكذا فإن مدينة سوسة بمعالمها التاريخيّة وبعلمائها البارزين تبقى دائما راسخة وخالدة في الذاكرة الإنسانيّة.

سوسة
الرباط
منظر خارجي





الهادي سليم

إنّ الملعب المدرج بالجمّ الذي يعتبر العلامة المميزة لتونس الرومانية، تماما مثل حنايا قنوات مياه زغوان الشامخة الهيبة، يعدّ في نظر القدامى والمحدثين أجمل معلم من معالم إفريقيا في العهود القديمة. وقد كان المؤرخون والجغرافيون العرب في العصر الوسيط يصنفون هذا المعلم ضمن العجائب الكبرى التي ورثناها عن الماضي. أمّا الرحالة الأوروبيون في القرون الأخيرة الشغوفون بنداء المدن التي لا حياة فيها، فقد كانوا مأخوذين، هم أيضا، بعظمة وجلال هذا المعلم القائم وسط السباسب الجرداء الشاسعة حيث «تطفو رائحة الملح والطين». وكانت عزلة هذا المعلم التي لا تحدّ تضفي عليه حينئذ من العظمة ما هو جدير بمصر الفرعونية. وحتى في وقتنا الحاضر، فإنه ليس هناك ما يهيئ الزائر لرؤية قصر كوليزي آخر» يبرز فجأة أمامه على مسافة خمسة عشر كيلومترا، في محيط مختلف أصلا عن محيط «المدينة الخالدة». وفعلا فإن كتلته الهائلة المرتسمة على مشارف الأفق، مهيمنة بعلوها الشامخ على المباني العصرية المنخفضة المتراصة على أقدامها، توحي أكثر بوضع الأهرام.

على أن مدرّج الجمّ هو قبل كلّ شيء في نظر علماء الآثار والمؤرخين الحديثين عمل معماري وفني من الطراز الأوّل، يشهد بالرقي العجيب لهذه المدينة وهذه المقاطعة، ويشكّل على مدى العصور مسرحا لأحداث تاريخية عظيمة.

عمل معماري وفني عظيم

من وجهة التصميم والمعمار اتخذ «كوليزي» رومة، بدون أدنى شكّ، مثالا وانموذجا «لكوليزي» الجمّ الذي لا يقلّ عنه إلاّ من حيث المقاييس والأبعاد ومن حيث السعة: 527 مترا كمحيط مقابل 427 مترا؛ و188 م × 156م. مقابل 148م. × 122م. بالنسبة للمحور الأكبر؛ و84م. × 54م. مقابل 64م. × 39م. بالنسبة للمحور الأصغر؛ و43000 إلى 45000 متفرج مقابل 27000 إلى 30000 متفرج. ويمكن تصنيف «قصر» الجم ضمن كبريات الملاعب المدرّجة الرومانية من الطراز الأوّل، وقد يأتي في المرتبة الثالثة بعد رومة وكابو (Capoue)، ولكن قبل آرل (Arles) ونيم (Nimes) بشوط بعيد. ولئن كنّا نعرف أن «كوليزي» رومة قد تمّ تدشينه في سنة 80 بعد الميلاد، فإن تاريخ بناء قصر

الجمّ يبقى من قبيل الإفتراضات والتخمينات. وقد نتج عن فقدان وثائق منقوشة أو أدبية ثابتة ظهور عدد وافر من التواريخ المقترحة. وكثيرا ما نسبت إقامة هذا المبنى إلى غورديان الثالث (Gordien III)، الذي قد يكون كرّسه في أواسط القرن الثالث لتخليد مجد هذه المدينة التي ساعدت جده على بلوغ مرتبة الإمبراطورية في سنة 238. وهناك أيضا من يرجعه إلى عهد الأباطرة الأنطونيين (Antonins) أو إلى أواخر القرن الثاني اعتمادا على استدلالات تتصل بأسلوب البناء، كما أن هناك من يعيده إلى العهود القديمة المتأخرة مستدلا على ذلك بنفس الإعتبارات المتقدمة. وهناك افتراض آخر أحدث عهدا يحدد لهذا المعلم تاريخيا أقرب إلى المعقول وهذا الإفتراض يربط عدم إتمام نحوت أغلاق عقود الأقواس بالطابق الأرضي إلى الإضطرابات التي شهدتها المدينة في سنة 238، ويقترح إذن أن تكون أشغال البناء قد بدأت حوالي سنة 230 في أوائل مدّة ولاية غورديان (Gordien) على مقاطعة إفريقية. ومما يزيد في تأكيد ترشيح هذا الرجل للإقدام على هذا العمل الضخم، أنه كان مشهورا بتشجيع الفنون وبالإقبال على

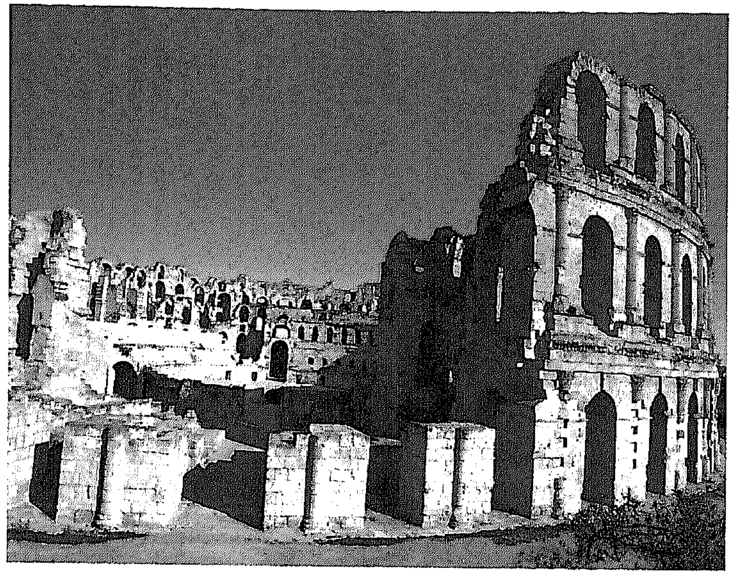


الجم
المدرج الكبير
(الواجهة الجنوبية)

الألعاب، وكانت له ممتلكات ومكاسب ومصالح بمدينة الجمّ ومنطقتها. لكن هذه الآراء تبقى كلها افتراضات قريبة أو بعيدة الإحتمال، وقد يكون من الجائز -نظرا لفقدان براهين لا جدال فيها- أن تكون الطبقة الثرية من سكان المدينة هي التي بادرت في أوج ازدهارها، خلال العقود الأولى من القرن الثالث بعد الميلاد بتزويد مواطنيها بملعب مدرّج قادر على مظاهاة ملعب «الكوليزي» من حيث الروعة والشهرة.

ومهما يكن من الأمر، فإن «قصر» الجمّ هو من آخر ما أقيم من المعالم العظيمة الشامخة في العالم الروماني، إن لم يكن آخرها على الإطلاق. وقد استوحي مثاله من تصميم الكوليزي لكنه بني بعده بقرن ونصف، وبعد أهمّ المباني الشهيرة العديدة الأخرى بعدة عقود من السنين على الأقلّ. وقد استفاد من التطوّرات والخبرات المتجمّعة طوال السنين. وبذلك تمّ فيه تجنّب أنواع من النقص كشف عنها الإستعمال في مبان أخرى. من ذلك أن الزوايا الضائعة التي كانت تحجب الرؤية بالنسبة إلى المشاهدين في أعلى المدرّجات على مدى 7 أمتار برومة قد تمّ تخفيضها إلى 5 أمتار فقط. كما أن السراديب السّفلى قد تمّ حفرها وإدماجها بالمباني بصفة لاحقة في كثير من الملاعب الكبرى، عندما أبرزت التجربة والممارسة عيوب اتخاذها تحت المنصة الشرفية أو خارج المبنى تماما. أمّا بالجمّ فقد تمّ التفكير فيها مسبقا ضمن مثال البناء الأصلي وكانت بذلك جزءا لا يتجزّأ من ميدان الألعاب، مما يمثل مزايا واضحة جليّة فيما يتعلق بسير الأنشطة وانسجام الشكل المعماري. وهناك أشكال أخرى من التطوّر والتقدم تبرز تحكما أفضل في مشاكل توازن قوى الضغط : فاتخاذ عدد من السقوف المعقودة مساو لعدد الأقواس والحنايا قد أتاح إزالة الضغوط الدافعة في مستوى الواجهة، وتجنّب الوصلات الرابطة بين العقود، وإعادة استخدام نفس تركيبات الاسناد، وإنجاز عدة عقود في آن واحد باستخدام

عدة فرق من البنائين تعمل في نفس الوقت. كما أن الداخل والتوزيعات والخارج داخل المبنى قد تمت دراستها بشكل أفضل وجاءت فيما يبدو أكثر اتقانا منها بأي مكان آخر. وعلى غرار الملاعب الكبرى العصرية لكرة القدم فإن قصر الجم كان فيما يبدو يمتلئ بالشاهدين ويخلو في ظرف بضعة دقائق بدون ازدحام ولا اضطراب أو تشويش. ويجدر بنا أن نشير في آخر الأمر إلى نظام صرف المياه الذي كشفت عنه الحفريات الحديثة العهد والذي يحسن الإطلاع عليه خصوصا في هذه المنطقة القاحلة التي كان الناس يحرصون فيها قبل كل شيء على عدم التفريط في أية قطرة من الماء. وفعلا فإن مياه الأمطار النازلة فوق المبنى تسيل حتى أسفل المدرجات، ثم تبلغ موقع المنصة الشرفية حيث تتلقاها سواق تجري فيها داخل المعبر المحيط بميدان الألعاب. وهناك تقودها أرضية مفروشة بهشيم الحجارة المكسوّ بملاط عازل كتيم نحو قنوات مجهزة بفتحات تفقّد وصيانة مغطاة، وبأحواض صغيرة للترسيب معدة لإزالة الشوائب والأوساخ. وتطوف حول كامل المبنى قناة كبيرة مهيئة لتجميع المياه ومغطاة بسقف من الزاج المعقود مصنوع من خليط من هشيم الحجارة والملاط ومجهز باثنتي عشرة فتحة صيانة تفصل بين الواحدة والأخرى مسافة 52 مترا. وهذه القناة تسمح بإيصال السائل الثمين إلى أحواض كبرى أو فسقيات ومواجل ضخمة تقع على مسافة نحو مائة متر شمالي الملعب المدرج، وقد كانت آثارها لا تزال ماثلة للعيان في أوائل هذا القرن.



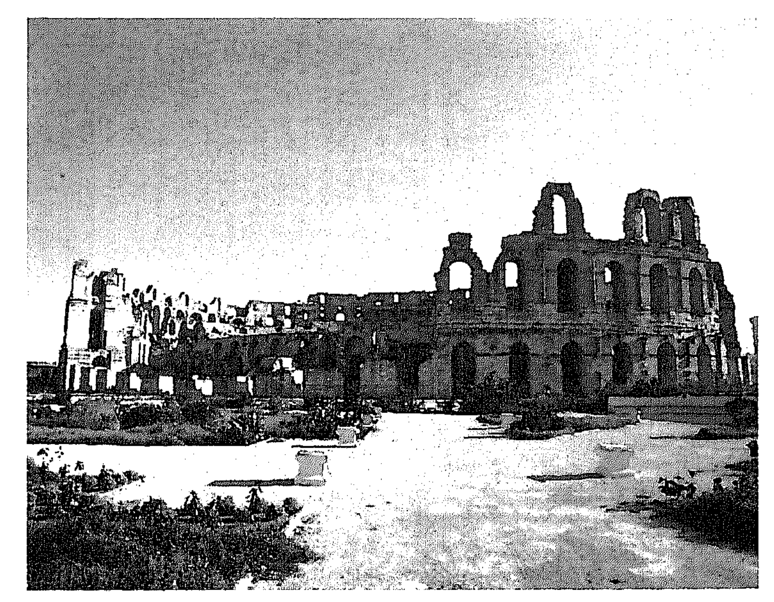
الجم
المدرج الكبير
منظر من الجانب
الجنوبي الشرقي

وإلى جانب مثل هذه الإبتكارات فإن قصر الجمّ يتميّز بعدة خصائص معمارية وفنيّة. وهو يفرض نفسه قبل كل شيء بمظهره المفرط في الكثافة والسّماكة ممّا يميّزه بوضوح عن كلّ المباني الأخرى. وهذه الخاصيّة ناجمة عن عظمة سمك الجدران والركائز، وقلّة بروز الطّنوف، وغلبة الممتلآت على الفراغات. والسبب الذي فرض كل هذه الكثافة هو طبيعة حجارة البناء وهي نوع من الحثّ الرملي الذي لا يحتمل الضغط كثيرا.

ومما يزيد في الشعور بطابع الكثافة مظهر الصرامة التي تضفيها على المعلم قلة الزينة والزخارف وهي ناشئة لا محالة عن طبيعة المادة الحجرية التي لا تصلح كثيرا للنحت. كما يعود الإقتصاد في الزينة أيضا إلى إرادة في توخّي البساطة الجمالية التي تنسق وتنسجم تماما مع ضخامة الأحجار العمارية للبناء.

ولئن كان سحنة الكثافة والصرامة الكالحة لهذا المبنى تسمه بطابع الهيبة، فإنّ ما تصطبغ به الحجارة من ألوان متدرجة دافئة، وما يكسوها به تقادم الزمن من غشاء شبيه بلون الذهب، وكذلك الإختيارات الفنية في زخرفة الواجهة، تضفي كلها على المجموعة من الروعة والجمال ما يندر أن نراه في مكان آخر. وقد تمّ الاعراض عن الطراز «الدوري» في العمارة، المألوف عادة في كل مكان، كما حصل التخلّي عن التوجّه الذي اعتمد في مبنى الكوليزي، حيث نرى فخامة العمارة تتزايد مع

ارتفاع الطوابق، منتقلة من الطراز «الدوري» إلى الطراز «الإيوني» ثم «الكورنتي». فوقع الإختيار، بالنسبة إلى قصر الجمّ، على الطراز الكورنتي في الطابق الأرضي والطابق الثالث وعلى الطراز «الخليط» بين الكورنتي والإيوني في الطابق الثاني، وعلى أغلب الظن في الطابق «الآتيكي» -وهو الطابق الذي يأتي في قمة المبنى ويكون قليل الإرتفاع ومشتملا على فتحات صغيرة بدل الحنايا والأقواس. ولم يعد أحد اليوم ينكر وجود هذا الطابق الأخير بحكم بقاء عناصر منه لا تزال بادية للعيان. ومهما يكن من أمر فإن قصر الجمّ الذي يبلغ ارتفاعه 36 مترا هو الملعب المدرج الوحيد، مع كوليزي رومة، الذي نجد به واجهة ذات ثلاثة مستويات من الأروقة لا تزال سليمة في معظمها. فالمباني الضخمة الأخرى التي يحتمل أنها كانت تشتمل على نفس الشكل والترتيب، لم يبق منها سوى الطابق الأرضي. أما المباني العديدة الأخرى التي حصلت المحافظة عليها في شكل أكمل فإنها لا تملك سوى طابقين فحسب مثلما هو الشأن بالنسبة إلى ملاعب مدن «نيم» (Nimes) و «آرل» (Arles) و«بولا» (Pula) ولئن سلمت واجهة قصر الجمّ نسبيا وجزئيا من عوادي الزمن ومن أيدي الناس، فإنّ الأمر لم يكن كذلك، من سوء الحظ بالنسبة إلى المدارج، بالرغم عن بقائها سليمة إلى حدود القرن الحادي عشر على الأقل حسب شهادة الكتاب العرب الذين عاشوا في العصر الوسيط وقد كانت هذه المدارج تنقسم إلى ثلاثة أقسام تفصل بينها حواجز درابزين وتؤدي إلى كل منها مرقاة مخصوصة. وتنتهي هذه الأقسام بمصطبة مسطّحة قليلة العرض تتكون منها المنصة الشرفية المخصصة للأشخاص المرموقين. ويتوزع المشاهدون وفقا لسلم الترتيب الإجتماعي والسياسي السائد بالمدينة، والذي نجد بذلك صورة منه فوق المدارج. وقد أمكن العثور أثناء الحفريات الأخيرة على العديد من أجزاء المقاعد، التي تحمل في بعض الأحيان حروفا تشير إلى البقاع المخصصة لذوي المكانة من بين المشاهدين. وقد استخدمت كلّ هذه البقايا وغيرها في إعادة بناء قسط هام من المدارج وجزء من المنصة الشرفية.



الجم
المدرج الكبير
(الواجهة الشمالية)

أمّا الحلبة وملحقاتها بـ «قصر» الجمّ فإنها بقيت أسلم بكثير مما نراه برومة أو بآرل. وإننا نرى فيها من أشكال الترتيب ما توفّر لنا دراسته عناصر الإجابة عن الأسئلة التي تثيرها بعض المباني الأخرى التي لم تحظ هياكلها بنفس الدرجة من السلامة. وهي تلفت الإنتباه من أوّل وهلة بفضل ما تتسم به من التجانس والبساطة ويحيط بالحلبة جدار المنصّة الشرفية الدائرة، الذي يبلغ ارتفاعه 3,50 من الأمتار، وهو مكسوّ بصفائح المرمر في أسفله، وبملاط سميك مخلوط بهشيم القرميد ومطلي بأشكال تحكي هيئة المرمر في الجانب الأعلى. ويشتمل هذا الحائط على ستة أبواب تنفتح على معابر خاصة بالخدمات، وعلى بابين كبيرين ذوي مصراعين عرض الواحد منهما 4,50 من الأمتار، يقعان في طرفي المحور الأكبر، تخرج منهما مواكب الطواف التي تسبق الألعاب والتي تمرّ بالفسحتين الرئيستين حيث يقوم سمط



الجم
المدرج الكبير
حلبة المصارعة
وبعض المدارج
المعادة بناؤها

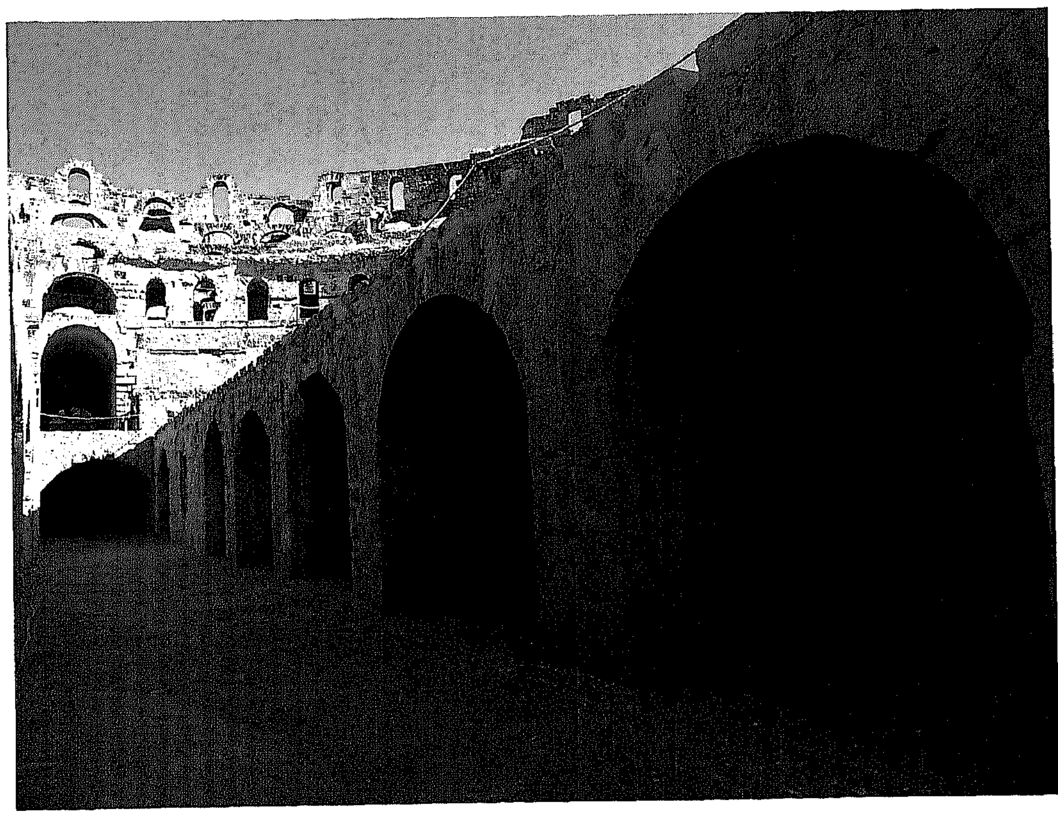
من الحجرات الصغيرة، منها أربع ذات تجويفات ومزدانة بالفسيفساء، كانت فيما يبدو تستخدم كمصلّيات أو معابد يتقرّب فيها إلى آلهة الملعب المدرّج.

وتحت أرض الحلبة يلتقي نفقان ينفذ إليهما من الخارج عن طريق مسلكين منحدرين يسيران في اتجاه متعمد مع المحور الأكبر وقد تمت تهيئتهما في طرفي السرداب الأكبر. ويوجد على جانبي هذا السرداب 16 مقصورة، وهو، في الجزء الأوسط منه، مكشوف ومفتوح على الحلبة، موفرا بذلك الهواء والنور لمجموعة الأنفاق والسراديب. وكانت هذه الفتحة تغطّى عندما تبدأ الألعاب بواسطة أرضية متحركة من الخشب لا تزال آثار ركابها وإطباقها بادية للعيان. أما السرداب الأصغر المهيأ على طول المحور الأصغر للملعب، فقد كان ينفذ إلى فتحتين في أرض الحلبة ترفع عبرهما أقفاص الوحوش. وكانت توجد مراق ومدارج عديدة تصل بين الطابق الأرضي وما تحته من معابر ومعدات. وكانت المقصورات معدّة لإيواء الحيوانات أو لتقبّل جثث المصارعين. وكان الماء الضروري لصيانة المبنى وضمان سيره الطبيعي يستمد من بئر حفرت بإحدى الحجرات الموجودة تحت الأرض. على أن فحص السراديب والحلبة ومجموعة الأبنية الموجودة بالطابق الأرضي ينفي قطعيا الرأي الذي كان سائدا في السابق والقائل بتنظيم مسرحيات معارك بحرية وغيرها من العروض المائية داخل هذا المعلم. هذا وإن ندرة

المياه وما يضاف إليها من فقدان أيّ تجهيزات جدية تضمن الكتامة ضدّ التسرّب، ومن مخاطر انهيار البناء، تسمح لنا بالتخلص نهائيا من هذا الإحتمال. ونؤكد كذلك بأن الأنفاق والمعابر الموجودة تحت الأرض كانت في مختلف الأزمنة والفترات تحفز وتحرك خيال الرواة والزائرين، الذين اعتبروها منطلقات لطرق مدفونة تحت الأرض تربط بين مدينة الجمّ وساحل البحر الواقع على مسافة أربعين كيلومترا من ذلك المكان. ومن المعلوم أن هذه الأنفاق كانت بكل بساطة تستخدم للربط بين المبنى وبين الاسطبلات الموجودة قريبا منه. لكن أشدّ ما حرّك فضول الزائرين وخيالهم في السابق، هو بالخصوص وجود معلم متميّز بمثل هذه الضخامة والمهابة في منطقة تتسم بقلة الموارد إلى حد بعيد. وقد بنيت أغرب الإفتراضات وقدّمت لتفسير هذا الحدث «الشاذ». وكانت أقل هذه الإفتراضات غرابة تعطي ملعب الجمّ وظائف إقليمية بل وحتى مقاطعية. أما أبعدها عن الصواب فهي ترى فيه نزوة إمبراطور غريب الأطوار والطباع، أقام «ملعب الكوليزي في قلب الصحراء» متغنيا بعظمة رومة ومجدها، بل ومتحدّيا العقول. وفي الحقيقة فإن البحوث الحالية قد بيّنت أن أهمية هذا الملعب المدرّج تتناسب تماما مع ثراء المدينة الرومانية التي سبقت قيام مدينة الجمّ الحالية، وهي تيسدروس (Thysdrus).

الملعب شاهد على صعود مدينة

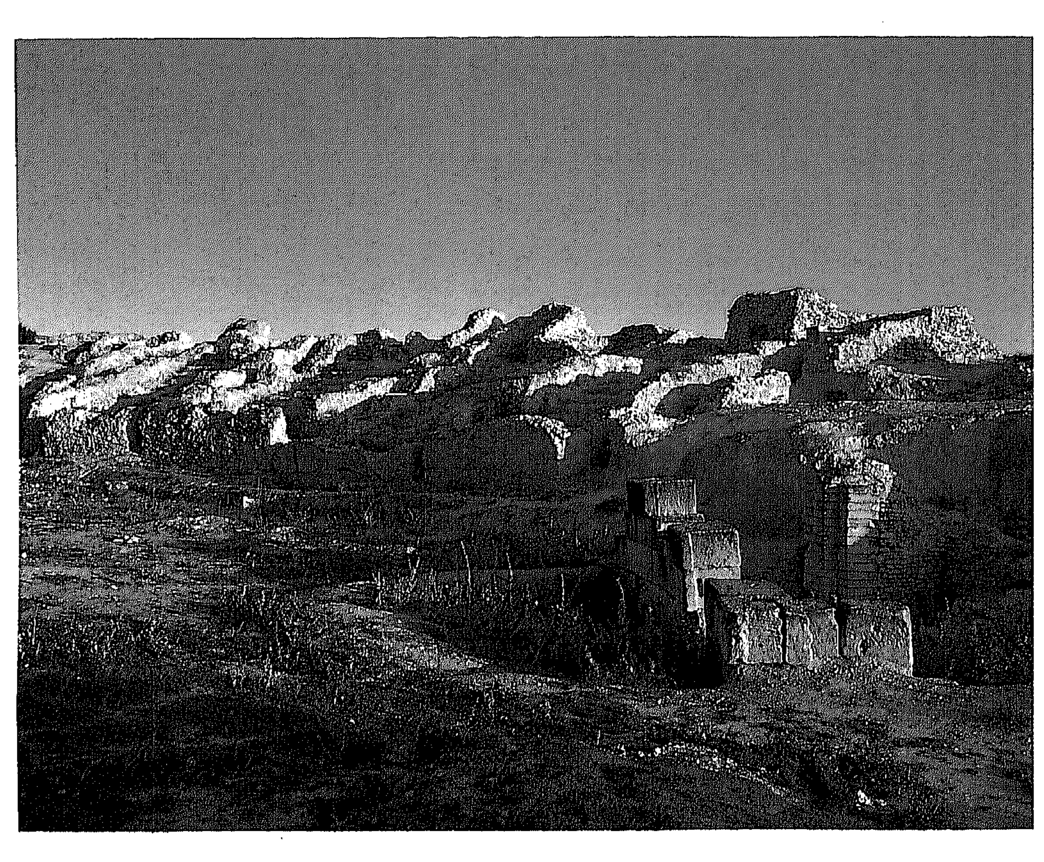
إن صعود مدينة تيسدروس (Thysdrus) في العهد الروماني فيه لأوّل وهلة، شيء من المفارقة والتناقض. وفعلا فإنّ الجمّ وأريافها القريبة تشكو ظروفا طبيعية، إن لم تكن سيئة تماما، فإنها على الأقل غير



الجم
المدرج الكبير
المباني التحت
أرضية

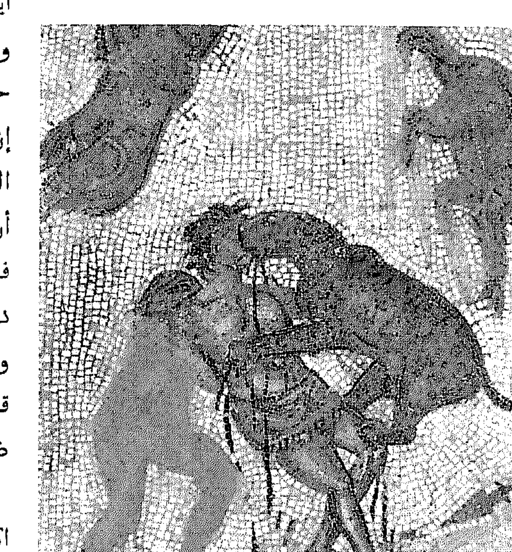
مساعدة كثيرا على ازدهار مركز حضري كبير: فالتربة طينية ثقيلة وقليلة الخصوبة، والأمطار قليلة وغير موزعة بانتظام، والطبقة المائية بعيدة العمق وضئيلة الحجم وذات ملوحة كبيرة، والعيون والمنابع مفقودة عمليا، ومقاطع الحجارة بعيدة المسافة، والموقع الإستراتيجي غير جيّد. وكلّ هذه المساوئ، بالإضافة إلى المتاعب التي يسببها المناخ القاري المذمّر، هي التي تفسّر المبادي المتواضعة للمدينة. رغم أنّه لمّا قدم يوليوس قيصر إلى إفريقية في أواسط القرن الأوّل قبل الميلاد ليقوم بمحاربة خصومه الجمهوريين قد كانت تيسدروس تملك كمية هامة من القمح كان خزنها عدد من التجار والفلاحين الإيطاليين. وكانت بالإضافة إلى ذلك محمية بأسوار على جانب كبير من القوة والمناعة. غير أنّه عندما أراد قيصر غداة انتصاره النهائي، معاقبة المدن التي انضمت إلى أعدائه، فإنه لم يكن بوسعه أن يطالب تسيسدروس الاّ بتقديم كمية من القمح لأنها لم تكن سوى «قرية حقيرة» حسب تعبير المصادر اللاتينية. والأثر الوحيد الذي يمكن أن ننسبه إلى ذلك العهد البعيد أو إلى أوائل فترة الإمبراطورية هو ملعب بدائي محفور بتمامه في الصخر، يمكن أن نضيف بناءه إلى أولائك التجار الإيطاليين الذين ذكرتهم النصوص أو إلى المنحدرين من أصلابهم، وهذا يدل على شغف مبكر -على الأقل- بالألعاب، كما يترجم مع ذلك عن مدينة ضئيلة الأهمية. وينبغي أن ننتظر حلول العهد الفلافي (Flaviens) ونهاية القرن الأوّل بعد الميلاد لنشهد بعض التوسيع في حجم المدينة بواسطة أشغال أعمار وبناء فيها، وأعمال لجلب المياه إليها، وخصوصا في شكل إبدال الملعب البدائي الأوّل بملعب آخر أكثر تطوّرا فيه أقسام مبنية ومسندة إلى نفس المنحدرات التي نحتت فيها المدارج الأولى.

الجم
المدرج الصغير



إن عهد الإزدهار الأكبر سوف لن يفتح إلاّ في القرن اللاحق، بالغا أوجه في الحدّ الأخير من نهاية القرن الثاني وخلال العقود الأولى من القرن الثالث وتحت حكم السيفيريين (Sevères) بلغت المدينة درجة عليا من النموّ إلى حدّ أنها أصبحت تنافس «هدرومات» (Hadrumète) - وهي سوسة الحالية- وتحتل المرتبة الثانية بين مدن المقاطعة. وقد توّج هذه المسيرة الصاعدة قيام مدينة الجمّ بدور من أعظم الأدوار في سنة 238 بعد الميلاد. فقد كان من نتائج ضغوط الجهاز الضرائبي الذي انسدت أمامه الآفاق في نطاق إمبراطورية باتت في حالة متأزّمة، ان بادرت هذه المدينة الثرية إلى إعلان ثورة كان لها ما كان من الآثار والعواقب على نطاق العالم الروماني بتمامه، إذ أنها أدت إلى الإعلان عن غورديان (Gordien) امبراطورا. ولم تتردّد كل من قرطاج ورومة في المصادقة على انقلاب تيسدروس وفي اختيار غرديان لذلك المنصب. وبذلك ندرك مدى المسافة التي قطعتها القرية الصغيرة منذ عهد يوليوس قيصر. وقد أصبحت بفضل زراعة الزياتين وصناعة الزيوت وبفضل تطور الصنائع والحرف المختلفة، نقطة الإنطلاق ومدار التوزيع بالنسبة إلى التجارة، سواء على نطاق المقاطعة أو على صعيد الإمبراطورية كلها. وكانت في ذلك تقوم بدور شبيه بدور صفاقس في الوقت الحاضر. وكانت تيسدروس في أوج ازدهارها تغطي مساحة تقارب 200 هكتار وتزدان بجملة من المباني والمعالم الفاخرة. وكانت تملك آنذاك مركض خيل أيضا هو في حجم مركض ماكسانس (Maxence) برومة.

فسيفساء تمثل رجلا محكوما عليه تنهشه السباع (متحف الجم)



وكان يمتد على 550 مترا طولا و 95 مترا عرضا، ويتسع حسب التقديرات لما يناهز 30000 متفرّج، بالرغم عن عدم إزالة كامل التراب الذي كان يغمره. أمّا الحمامات العمومية التي تمسح 2400 متر مربّع، فإنها بالرغم عمّا يوجد في أرضيتها من لوحات فسيفسائية جميلة، ليست فيما يبدو في مستوى أهمية تيسدروس، بل أنه يمكن اعتبارها في درجة أكثر تواضعا تساوي درجة حمامات الأرباض والضواحي على أنه قد عثر منذ سنوات عديدة على قطعة من زينة معمارية يمكن أن تكون جزءا من حمامات ضخمة عظيمة جديرة بهذه المدينة.

وهذا الجزء المعماري يتمثل في أكبر تاج عمود اكتشف بالبلاد التونسية على الإطلاق. وحجم هذا التاج يساوي 1,82 مترا. وقد أمكن تقدير ارتفاع العمود الذي كان ينتمي إليه بما يعادل 15 مترا. ومثل هذه الركائز تناسب نوعين من المباني : فاما أن يكون معبدا يساوي في حجمه أكبر معابد رومة، وأما أن تكون حمامات في منتهى الفخامة وضخامة الحجم. وقد اتخذ أثرياء سكان تيسدروس أيضا بيوتا فاخرة تتجاوز مساحتها في الغالب 2000 متر مربع، وتبلغ في بعض الحالات 3000 إلى 3500 متر مربّع وبعض هذه البيوت فخمة رائعة حقا بقاعاتها العظيمة المهيئة للإستقبالات التي تغطي ما يساوي أو يزيد عن 200 متر مربع، والقامة على صفوف الأعمدة الداخلية.

لكن أصحاب هذه البيوت قد أرادوا أن يبرزوا مدى عظمتهم وقوتهم في زينة أرضيات بيوتهم بالخصوص. وقد عرضوا فيها حبّهم للترف وشغفهم بالبذخ، من خلال لوحات فسيفسائية تصوّر غالبا

جوانب هامة من الحياة اليومية وتعكس شواغل السكان. من ذلك ما نجده فيها من موضوعات تشيد بالثروة الزراعية والتجارية وتمجّد الآلهة التي تنعم على الناس بمثل هذه الخيرات، ومن مشاهد لألعاب المدرجات تحيي فترات مثيرة أو تخلّد ذكرى أصحاب الهبات السخية، ومن مآدب وأوقات فراغ وترفيه، ووفرة في جميع أنواع الموادّ والثروات تتغنّى بفرحة الحياة لدى الطبقة الميسورة، ومن مناظر غرامية مقتبسة من حياة مقصورات الخلوة.

هذا وقد كانت المقاطعة بتمامها وكمالها عندئذ في أوج ازدهارها بفضل اقتصادها المتطوّر الثريّ، وبفضل إحرازها على أعلى الخطط الإدارية والسياسية على نطاق الإمبراطورية، وبفضل ما كان لها من إشعاع ثقافي لم يسبق له مثيل.

ويبدو أنّ بناء ملعب الجمّ مرتبط بكل هذا الجوّ المنعش المثير المتصل بتحقيق الإنتصار على طبيعة قاسية إلى أبعد حدّ، وذلك بفضل الجهود الجبارة التي بذلها أبناء هذه الأرض وبفضل ما امتازوا به من فائق المهارة.

ملعب الجمّ شاهد على أحداث تاريخية عظيمة

قسيفساء تمثل نمرا منقضا على تيس يحاول الفرار (متحف الجم)



بعد أن تولّى الملعب توقيع نسق حياة الجماهير الغفيرة مدّة قرون، صانعا الاحتشاد أو الفراغ، والسكون أو الضجيج في صلب المدينة، ومثيرا الشغف وتأجج العواطف بما يقدّم فيه من ألعاب متنوّعة تمتلك نفوس المتفرّجين، فقد في نهاية الأمر نزعته الأصيلة كمبنى خاص بمشاهدة الإحتفالات والألعاب، وتبنى اتجاها آخر سوف يتيح له أن يستمر على ما اتسم به من شهرة وذيوع صيت في نظر التاريخ.

فقد حوّله البيزنطيون فعلا إلى قلعة حصينة معتمدين على ما تميز به من الكثافة ومتانة البناء وجميع ما كان يوفره من الخصائص والمزايا على الصعيد الدفاعي. وفي سنة 647 عند حصول أوّل غزوة إسلامية للبلاد التونسية وغداة انهزام البطريق جرجير بسبيطلة، لجأت فلول الجيش البيزنطي إلى داخل المبنى وتحصّنت به. وبعد مدّة من الحصار أذعنت هذه العناصر إلى التفاوض مع المسلمين بشأن رحيلهم عن البلاد.

وفيما بعد ذلك انتصر الفاتحون العرب بيسر على البيزنطيين لكنهم اصطدموا بمقاومة شديدة من قبل البربر، دامت عشرات السنين، وجسّمتها الكاهنة. وبعد تحقيق عدة انتصارات، لقيت هذه الأميرة شبه الأسطورية المنتسبة إلى جبال الأوراس بعض الإنكسارات والهزائم، فلم تتردد في الإحتماء داخل مبنى قصر الجمّ حيث خضعت لحصار طويل. ومنذ تلك الحادثة بقي اسم الملعب مقترنا بشكل وثيق بالبطلة البربرية وأصبح هذا المعلم يعرف عند المؤرخين والجغرافيين والرواة العرب باسم «قصر الكاهنة». وقد كتب أحدهم في ذلك يقول: «ويقال أن الكا[...] لما رأت نفسها محاصرة في هذه القلعة أمرت باحتفار نفق في الصخر يسير تحت الأرض ح[...] سلقطة [الواقعة على ساحل البحر، على مسافة أربعين كيلومترا من الجمّ]، ويتسع [...] الفرسان معا. ومن هذا المنفذ كانت تأتيها الأقوات وكل ما تحتاج إليه».

ويخبرنا غيره من الرواة كيف أن هذا المعلم قد استعمل في النزاعات والفتن الداخلية بالبلاد، فيقول: «... هاجم بن غانية [أحد الأمراء المرابطين] هذا القصر بشدّة. وبعد اليأس [من ضياع جهوده ومساعيه]، اضطرّ إلى ترك الحصار وانسحب خائبا. ويحكي أن المحاصرين داخل القلعة قاموا بعد صمودهم مدّة طويلة بإلقاء الأسماك الحيّة على ابن غانية، وقد كانت تأتيهم عن طريق النفق المؤدي إلى سلقطة... وعندها يئس ابن غانية من النجاح في مسعاه وأقلع عن الحصار.»

وتوجد أساطير أخرى تجعل هذا «الملعب-القلعة» متصلا بالمهدية وصفاقس وسوسة وغيرها... هذا وأنّ ما يوجد من سراديب تغور في الأرض وما يتسم به المبنى من الضخامة والنجاعة كقلعة هو الذي يفسّر دوام هذه الأساطير وبقائها على مرّ الأيام.

وفي العهد الحديث والمعاصر استمرّ ملعب الجمّ في القيام بدور القلعة، وكثيرا ما احتمت به القبائل المحلية الثائرة ضدّ السياسة الجبائية التي كان يسلكها بايات تونس. وفي سنة 1695 تمرّدت هذه القبائل ضدّ محمد باي وتحصّنت داخل تلك القلعة. ولاقى جيش الباشا مشقّة كبيرة في إجلائها عنها. وتوقيا من تحصّن جديد داخل المبنى أحدث هذا الجيش ثلمة فيه بواسطة المدافع. وفي سنة 1850 حدثت ثورة جديدة ضدّ سلطة أحمد باي. وتمكّن الثوار من الوقوف عدة أيام في وجه جيوش الباي وتحديها باللجوء إلى داخل الملعب العتيق. ولم يتردد الباي في توسيع الثلمان التي أحدثها سابقوه وذلك من أجل وضع حدّ لهذا التمرّد.

وفي سنة 1881، عند انتصاب الحماية الفرنسية على تونس كانت ردود الفعل متفاوتة في الشدة والعنف. وعقد معظم المتمردين بالمنطقة اجتماعا داخل ملعب الجم وقرروا الثورة ضدّ فرنسا. وصنعوا البارود (من الملح الخاص به)، بداخل المبنى وأرسلوا كمية منه إلى سكان قصور الساف. وقاموا بأعمال انتقامية ضدّ من أبى الإنضمام إليهم من السكان. ولم يتمكن الجنرال لوجـرو (Logerot) من التغلب نهائيا على هؤلاء المتمردين إلاّ في سنة 1882.

وبذلك ومهما كان العصر، فإن هذا الملعب المدرج يحتلّ مكانة بارزة في حياة مدينة الجمّ وكامل منطقتها، بل في حياة البلاد بتمامها وكمالها. وعلى كل، وإذا ما عدنا إلى الحديث عن العهد الروماني فإنه لابدّ من تأكيد الأهمية البالغة التي كانت لتيسدروس في نشأة الملاعب المدرجة وتطورها. ويبدو أنها المدينة الوحيدة في العالم التي تملك ثلاثة ملاعب مدرجة ينتمي كل واحد منها إلى صنف من الأصناف الثلاثة الكبرى المعروفة: وهي المعالم المحفورة والمعالم المستندة والمعالم المقامة تماما على أرض منبسطة. وقد كان بروما عدّة ملاعب مدرجة، لكنه لم يبق منها أثر، باستثناء ملعب «الكولـيـزي». ونجد ببعض المدن أحيانا ملعبين مدرجين بقيا في حالة طيبة نسبيا، لكن أحدهما يكون مدنيا في العادة، في حين يكون الثاني عسكريا، أمّا في تيسدروس فإنه لم تكن توجد مطلقا أية حامية عسكرية، وقد كانت الملاعب الثلاثة مدنيّة، وكلّ واحد منها يمثل انموذجا من نوعه كما يمثل أيضا عصرا معيّنا يطابق مرحلة محددة من تطور معمار الملاعب المدرجة، بل وفترة خاصّة من التطوّر الإقتصادي والإجتماعي والبنائي للمدينة.

وهذه الملاعب الثلاثة ذات قيمة وثائقيّة كبرى بالنسبة إلى الدراسات التصنيفية سواء بإفريقيا أو خارجها. ويجدر بنا هنا أيضا أن نسجّل ما اتسم به ولوع سكان تيسدروس بالملاعب من استمرار ودوام على نحو لافت للنظر. ولم يقتصر هذا الشغف المتواصل على البروز في الملاعب الثلاثة فحسب، بل تجسّم كذلك في ما عرفته الموضوعات المتعلّقة بالألعاب من رواج عجيب في برامج زخرفة البيوت وزينتها.



الرقم الآلي : 9973 - 917 - 25 - 1